
دعوة الحق
شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية
العدد 3
السنة 21

بيانات إدارية :



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية

- تبعث المقالات الى العنوان التالي :

مجلة «دعـوة الحـق»

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط - المغرب: الهاتف : 03 - 627 و 04 - 627

- الاشتراك العادي عن سنة 55 درهماً للداخل، و 67 درهماً للخارج. والشرفي 100 درهم فأكثر

- السنة عشرة أعداد . لايقبل الإشتراك الا عن سنة كاملة .

- تدفع قيمة الإشتراك في حساب :

مجلة « دعوة الحق » رقم الحساب البريدي 485.55 الرباط .

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

أو تبعث رأساً في حوالة بالعنوان أعلاه .

- **لاتلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر**

العدد 3
السنة 21

رجب 1400
يونيو 1980

هذا العدد

يسجل هذا العدد حدثين تاريخيين عاشهما المغرب خلال الفترة الاخيرة : انشاء اكاديمية المملكة المغربية ، وتنظيم ندوة الامام مالك بن انس . وكلاهما وقع فى فاس مهد الحضارة ، ومنشا المدنية ، ومنطلق الفتوحات الجهادية والفكرية فى المغرب والمشرق .

والحدثان لهما من الدلالات ما يرقى بهما الى مستوى التطورات الفاعلة فى الحضارة البشرية ، لان الاكاديمية مشروع انساني مشترك ، تلتقي فيه خلاصة الفكر العالمي، فى وقت يحتدم الصراع بين الاتجاهات والمذاهب الفكرية على نحو يهدد عطاء الاجيال المتعددة ونتاج العصور الطويلة من الخلق والابداع . والندوة انما هي خطوة أولى الى بلورة الدراسات الاسلامية ، وتمحيص البحوث الفقهية ، وترشيد الاتجاهات العلمية نحو كل ما فيه سمو ديننا ، ورفعة امتنا وعزة أوطاننا .

وحينما يجلس رائد الفضاء ، مع محدث فقيه ، الى منظر ديبلوماسي ، بجانب فيلسوف ، الى شاعر ، ولغوي، ورجل القانون ، وعالم فيزياء ، تحت قبة واحدة ، فى جو يعبق بأريج التاريخ ، بجوار القرويين اقدم جامعة فى العالم، ينصتون جميعهم ، وكان على رؤوسهم الطير ، الى رجل دولة له وزنه الدولي ، وصيته الاممي، يجمع بين العلم والخبرة والدراية ، وبين الحنكة والتجربة وطول الممارسة، وبين رئاسة الدولة وبين امارة المؤمنين .. تتضح امامنا الصورة الحقيقية لهذا العمل الانساني الكبير .

وحينما يقف علماء افريقيا فى ندوة الامام مالك يعلنون على رؤوس الملا انتماءهم الفكري والحضاري الى المغرب ، ويؤكدون أن اسلامهم انما جاءهم من فاس ومراكش ، تكون اهمية الندوة قد تجلت فى جمع شمل علماء الامة ، وحث هممهم على النظر فى امور دينهم ودنياهم بعقول متفتحة ، وقلوب مؤمنة بأحقية هذا الدين لسيادة العالم .

هي ليست تغطية صحافية بالمعنى السائر ، فهذا دور الصحافة اليومية ، ولكنها محاولة ، نحسب انها جادة، لرصد اهم ملامح الحدثين البارزين على الصعيد الفكري ، اردنا بها تسجيل مرحلة متقدمة من مراحل تطورنا المطرد نحو المزيد من الشموخ والعلو فى الارض بالحق .

عبد القادر الادريسي

الثمن : 5 دراهم

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية :

أصالة في الفكر وعراقة في الحضارة

●● ليست الاصالة التعلق الغبي بالماضي على علاته ، وانما هي القدرة الذكية على استثمار التاريخ واستنباط الدروس والعبر منه ، والنظر برؤية معاصرة الى التراث ، لا للاخذ به دون روية ووعي ، ولكن لاستلهامه ، والاقتباس منه ، واستيعاب مضامينه الغنية بالعطاء ، الزاخرة بالثراء ، بعقل وفطنة وتبصر .

وحينما يتعلق الامر باصالة الشعوب والدول ، فليس المراد التنقيب ـ وان اصطبغ بالصبغة الاكاديمية ـ عن مظاهر الحياة اليومية فى انحرافاتها واسقاطاتها ومباذلها . فهذا مفهوم قاصر للاصالة الشعبية ، وانما القصد من ذلك ـ احتكاما الى التعريف العلمي والتحديد الموضوعي لهذا الاصطلاح ـ البحث عن الجذور الحضارية ، والاصول الفكرية ، واسباب البقاء والاستمرار ، وعوامل الصمود والتحدي التي ضمنت الاشعاع ، وعمقت التاثير ، وحفظت للشعب هويته الخاصة ، وصانت كيانه المادي والمعنوي على مدى الاحقاب .

ومن هذا المنظور ، فان أصالة المغرب ليست فلكلورا وآثارا معمارية فحسب ، وليست عادات وتقاليد وأعرافا وطقوسا فقط ، وليست انماطا من السلوك الشعبي والممارسة اليومية لاشكال الحياة فى تدفقها وزخمها وتواترها ، ولكن أصالة المغرب دين ولغة ، عقيدة ولسان ، شعور وفكر ، احساس ومبدا ، قلب وعقل ، بها امتزجت ، وفيها انصهرت ، وعلى اساسها قامت ، ومن قاعدتها انطلقت ، فاشعت الخير والمحبة والايمان ، وتدفقت عطاء موصولا ، والهاما ممتدا ، وتأثيرا مستمرا ، فتخطت الحدود ، وبلغت آفاقا واسعة فى افريقيا واوروبا وجزر البحر الابيض المتوسط .

●● لقد عرفت بعض مناطق المغرب قبل الاسلام الديانتين اليهودية والمسيحية ، وسادت لفترات طويلة بعض اللغات القديمة ، وتعاقبت على البلاد اجناس متعددة حملت معها مدنياتها وحضاراتها وثقافاتها ، فما أثر ذلك كله التأثير العميق الذي يلقي تجاوبا وتفاهما واستجابة من الشعب ، وما خلف الا اصداء واهية ، وآثارا فانية ، ورسوما تشهد على المرور العابر والدور الفاتر .

● بيد أن للاسلام قصة وملحمة فى هذه البلاد ، ما ان أقبل فاتحوه الاول حتى تشربت به نفوس المغاربة ، فخالط دماءهم ، فرضوا به دينا ، وتشبثوا به عقيدة ، واقبلوا عليه يذودون عنه ، ويحمونه بالمهج والارواح ، فكان ان استقر الدين الجديد فى الارض والعقل والوجدان ، واضحى خاصية من خصائص هذا الشعب ، به علا شانه ، وارتفع مقامه ، وذاع صيته ، وفتح الامصار ، واعتق الانسان ، واشاد الحضارة ، فلم يعرف الا باسلامه ، ولم يذكر له التاريخ مكرمة الا فى ظل الاسلام ، فصار المغرب مسلما ، والاسلام مغربيا ، وبذلك تحددت السمات الرئيسية لاصالة المغرب ، وارسيت القواعد الاولية لحضارة هذه البلاد .

وقد يورد البعض ، فى سياق هذا الحديث ، ما سجله التاريخ فى عهد الفتح الاسلامي الاول للمغرب ، من ردة أهله ، وعصيانهم ، وتمردهم على الفاتحين العرب ، فى حالات متكررة . غير ان التمحيص التاريخي النزيه ، والركون الى الحجج القاطعة ، والدلائل الدامغة ، يثبت لنا حقيقة جديرة بالتنويه والتنبيه . ذلك ان سكان المغرب ، الذين تجاوبوا مع عقيدة التوحيد ولغة الضاد ، لاول عهدهم بهما ، لم يرضوا من قادة الفتح وجندهم تصرفات اتسمت بالشدة والفلظة ، والكبر والازدراء ، فاثار ذلك حفيظة الاهالي ، وأيقظ فيهم انفتهم واباءهم والشعور بالعزة ، فكان منهم ما نقراه فى كتب التاريخ من رد فعل عنيف ، لم يكن موجها – اساسا – ضد العقيدة الجديدة ، فهذه قد استقرت وانتهى أمرها الى رسوخ على قصر العهد ، ولكنه كان رفضا للعدوان والعنف واستغلال النفوذ ، حتى وان كان صادرا من حملة الرسالة ودعاة الحق . وهذه ميزة فريدة ، وشرف وفضل يحسبان لهذا الشعب ، لانه فرق بين الدين واهله ، وبين اللغة واصحابها ، فآمن بالدين عن اقتناع ورضي وارتياح ، واخذ باللغة لسانا له ، ورفض الظلم وابى الضيم . وتلك طبيعة المغاربة فى كل وقت وحين .

● واستمرت الحال تتراوح بين اخذ ورد ، ومد وجزر ، الى ان كان الفتح الاكبر فى النصف الاخير من القرن الثاني للهجرة على يد ادريس بن عبد الله رضي الله عنهما .

وفى هذه الفترة اصطبغ المغرب بالصبغة الاسلامية الشاملة التي محت كل صبغة ، ولم تبق الا على الخصال الكريمة ، والمزايا الشريفة ، التي تعود الى الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها جميعا .

ومضت اثنا عشر قرنا ، والمغاربة على دين واحد ، ولغة واحدة . ومرت مراحل تعرضت فيها الوحدة المذهبية لهزات عنيفة ، بحكم عوامل تاريخية ، وتطورات فكرية سادت العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه فى القرون الاولى . ولم تنل تلك الاحداث من اصرار المغرب على التمسك بالوحدة فى مظاهرها المتعددة ، وانكشفت الغمة ، وبقي هذا الشعب موحدا دينا ومذهبا وعقيدة ولسانا ونظاما الى يوم الناس هذا . ولم يعرف المغاربة قط نزعة عرقية جاهلية ، أو دعوة قبلية بغيضة ، او نزوة عنصرية كريهة ، أو ميل الى اعتماد الاصل التاريخي اساسا فى التفرقة والتمزق والتشتت ، الا فى عهد الاستعمار ، حينما تفتق مكره الخبيث عن حيلة عدوانية اراد بها أن يهز الكيان الوطني هزا عنيفا ، لتتداعى أركانه ، ويتساقط بنيانه . ونستطيع أن نؤكد أن تاريخ المغرب منذ الفتح المبكر الى سنة 1930 لم يعرف اتجاها من هذا القبيل او محاولة من هذا الصنف . بل أنه قامت فى المغرب دول من عنصر غير عربي فى أزمنته المتأخرة ، وحكمت البلاد ، ودان لها الجميع بالسمع والطاعة ، وساد الاستقرار والاطمئنان ، ولم يجد أحد غضاضة فى ذلك . والاهم من هذا ان هذه الدول لم يصدر منها قط ما يؤكد تمسكها بالجاهلية الاولى ، وانحرافها عن الدعوة الاسلامية الخالصة التي تجعل الناس سواسية كأسنان المشط .

تلك قصة أصالة المغرب ..

●● ويقتضينا الانصاف ـ وقد آلينا على أنفسنا الاخذ بالمنهج العلمي فى استقراء وقائع التاريخ والتعامل مع الماضي ـ أن نؤكد على الاصل المشترك للعرب والبربر ، استنادا الى مئات الدراسات التاريخية المعمقة لعلماء ومفكرين ومؤرخين من ابن خلدون الى محمود شيت خطاب. وعلى هذا الاساس ، فان القول بثقافة المغرب الاصلية ، او بتعبير أدق أصالة أخوال ادريس بن ادريس ، لا معنى علمي له ، الا بالرجوع الى الاصول المشتركة للمجتمع المغربي ، هذا فى حالة القبول بالجدل الذي لا يغير من الحقيقة التاريخية شيئا .

ولعلنا واضحون الآن . لان الدعوة الى أصالة الشعب المغربي فى مفاهيمها العرقية التي أبطلها الاسلام لم تنشأ الا فى حضن المحتل . وله فى بلاده اليوم معاهد ومراكز تختص بنوع من الدراسات ظاهرها العلم والادب والثقافة . ولكنها فى الحقيقة تخدم أهداف استعمارية آن الاوان لفضحها .

ولقد فضحها علماؤنا ومفكرونا ورواد حركتنا الوطنية منذ نصف قرن .

اننا جميعا نستظل بظل الاسلام ، ونقف تحت مظلته . فهي وحدها الواقية . وشعبنا مسلم ، لان هذا قدره ، وتلك هويته . والفصحى لغة القرءان ، ومن ثم فهي لساننا جميعا ، وهي الآصرة القوية

والعروة الوثقى . وأي مساس بالفصحى انما هو نيل مباشر من الاسلام ، لان هـذه من تلـك .

ولعله من لطف الله بهذه الامة ، أن جعل على رأسها أسرة شريفة من أهل البيت ، ظلت أربعة قرون تعيش مع البربر فى الصحراء الشرقية ، الى أن تولت عرش المغرب ، فانضوت تحت لوائها كل عناصر الامـة ، وانتظم فى مسيرة العرش المغاربة أجمعون . وبذلك اكتملت ضمانـات الاستمـرار :

- اسـلام .
- عروبـة .
- عرش مغربي عربي أسلامي .
- وحدة مغربية عربية اسلامية .

● واذا كنا نأسف لشيء فاننا نأسف لما تضطرنا اليه تحديات المرحلة الراهنة من اعادة القول حول مسلمات وبديهيات آمن بها شعبنا واستوعبها ، وكانت منطلق الحركة الوطنية المغربية ، فى الثلاثينيات .

وان مما يثير الانتباه ويجدر بنا ان نسجله بالمناسبة ، أن المغرب يشهد حركة فكرية عميقة الجذور على رأس الذكرى الخمسين لقيام الحركة الوطنية . وكان الاقدار شاءت ان تقترن هذه الذكرى المجيدة بمراحـل تطور ، هي بكل المقاييس ، قمة فى النضج والاكتمال والاستواء .

ولنا أن نرصد مظاهر هذه الحركة الواعدة ونجتهد أن نحصرها فى المعالـم التاليـة :

اولا : استكمال الوحدة الترابية باسترجاع اقليم وادي الذهب .

ثانيا : انشاء المجلس العلمي الاعلى برئاسة جلالة الملك .

ثالثا : تاسيس اكاديمية المملكة المغربية التي تضم اعلاما شامخة من مختلـف أنحـاء العالـم .

رابعا : تنظيم ندوة الامام مالك بن أنس .

خامسا : تعديل فصول من دستور المملكة يتعلق أولهـا بتنظيـم مقتضيات مجلس الوصاية على العرش .

●● وتجري هذه التحولات الهامة فى الوقت الذي تستميت القوات المسلحة الملكية العتيدة فى مسح وتطهير الصحراء المغربية من جيوب

المرتزقة المارقين عملاء الالحاد والتبعية الذليلة . وهي حالة ، لو توفرت لبلد من بلدان العالم الثالث ، لكان ذلك داعيا الى ايقاف كل نشاط فكري وتعطيل العمل بالحريات العامة ، واعلان الاحكام العرفية ، وممارسة القهر بشتى أشكاله ضد ارادة الانسان بدعوى المحافظة على صلابة الجبهة الداخلية .

غير ان صلابة جبهات المغرب جميعها تستمد من أصالة فكره وعراقة حضارته ، مما يوفر له القدرة على الصمود في جوانبه العسكرية والفكرية والدستورية .

●● وبهذا الرصيد الحضاري الضخم ، وبهذه الوحدة الدينية واللغوية والسلالية المتراصة ، يستشرف المغرب القرن الخامس عشر الهجري ويتطلع الى مستقبل يعز به الاسلام ، ويسود فيه السلام ، ويعم معه الوئام ، بين الامة الاسلامية والمجموعة الانسانية قاطبة .

وما كنا لنصل الى هذا المستوى من الرسوخ والثبات والصحوة الدائمة ، لو لم تكن حصوننا آمنة مطمئنة ، وصفوفنا موحدة متماسكة ، ولو لم تكن أصالتنا عربية اسلامية في مضمونها ومحتواها ، وفي أصولها وجذورها .

دعوة الحق

خطاب جلالة الملك الحسن الثاني بمناسبة الاستفتاء على مشروع تعديل الفصل 21 من دستور المملكة :

تدعيم المؤسسات الدستورية

بترشيد الديمقراطية وتعميق الشورى

وجه جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله يوم 13 ماي المنصرم خطابا ساميا الى شعبه الوفي طرح فيه حفظه الله موضوع الاستفتاء على تعديل الفصل الواحد والعشرين من دستور المملكة الذي ينظم مقتضيات مجلس الوصاية على العرش . وقد شرح جلالة العاهل الكريم في هذا الخطاب الاسباب الموضوعية التي دعت الى ان يتألف مجلس الوصاية من الرئيس الاول للمجلس الاعلى ورئيس مجلس النواب ورئيس المجلس العلمي للعدوتين الى جانب عشر شخصيات يعينها الملك بمحض اختياره .

واوضح جلالة الملك الاغراض المتوخاة من هذا التعديل فأوجزها كمايلي :

أولا : تجريد مؤسسة المجلس من الطابع الشخصي وطبعها بالطابع الموضوعي الخليق بأن يكسبها الفاعلية القصوى .

ثانيا : جعلها في مأمن من الحوادث المحتملة باستمرار اذا ظلت مرتبطة بمصير شخص واحد بذاته معين تعيينا مسبقا .

ثالثا : توسيع نطاق الديمقراطية وذلك باختيار مواطن لرئاسة مجلس الوصاية .

رابعا : ابراز الصلات الوثيقة التي تربط الملكية كمؤسسة بسائر المجموعة الوطنية.

وفيما يلي النص الكامل للخطاب الملكي الهام :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه .

شعبي العزيز :

خطابنا اليك شعبي العزيز لا يتجه الى فئة منك دون سائر الفئات ، ولا يتناول شانا من تلك الشؤون التي نتحدث اليك فيها تارة بعد أخرى . وانما هو خطاب نوجهه الى جميع أفرادك ، لانهم يؤلفون أسرتنا الكبيرة التي لا نرى ابرآم امر ذي بال دون مشورتها واستطلاع رايها ولأن موضوع الحديث اليك اليوم ، سيسترعي اهتمامك الكبير كما استرعى اهتمامنا البالغ لاتصاله المباشر باحكام ومقتضيات دستورية .

لقد اطلنا النظر فى كل مادة من مواد دستورنا الحالي قبل عرضه عليك وموافقتك على مضمونه ومحتواه ، ثم اخذنا بعد ذلك نراقب سير المؤسسات الدستورية ونوالي العناية بمختلف اطوار الديمقراطية وخطاها ، فى كل مستوى وعلى كل صعيد ، وطفقنا الى هذا نمعن النظر فى فصول تاريخنا المديد ونكثر التصفح والمطالعة لمتعدد أحوالنا الجارية فى مجاري الاحقاب والعصور . وكان من آثار استرسال التامل واستعراض الاحداث والداب على رعاية شؤونك أن استخلصنا العبر ، وانتهينا الى الاقتناع بأن صيانة مصالح الوطن العليا ، رهينة بمراعاة ما يقوم عليه تاريخنا من أصول وقواعد ثابتة .

وهكذا استقر رأينا على أن نتناول فى مرحلة أولى فصلا من فصول دستورنا بتعديل لا يخلو من مرونة ، ولا يبتعد بمحتواه الجديد عن تلك القواعد والاصول .

ويتعلق الامر بالفصل الواحد والعشرين الذي يحدد كما تعلمون بلوغ الملك سن الرشد فى نهاية السنة الثامنة عشرة ، ويخول لمجلس وصاية قبل بلوغ الملك هذا السن ممارسة اختصاصات العرش وحقوقه الدستورية ، وينص علاوة على ذلك على رئاسة مجلس الوصاية وعدد أعضاء هذا المجلس .

اما المراجعة التي نريدها اعتبارا لما سلف فانها ترمي :

اولا : الى أن الملك يبلغ سن الرشد فى نهاية السنة السادسة عشرة من عمره .

ثانيا : الى أن مجلس الوصاية يتالف من الرئيس الاول للمجلس الاعلى ، ورئيس مجلس النواب ، ورئيس المجلس العلمي لمدينتي الرباط وسلا ، وعشر شخصيات يعينهم الملك بمحض اختياره .

ثالثا : الى أن مجلس الوصاية يقتصر عند بلوغ الملك سن الرشد ، اي السادسة عشرة من عمره ، على العمل كهيئة استشارية بجانب الملك الى ان يدرك تمام السنة العشرين من عمره .

رابعا : الى أن يزاول الرئيس الاول للمجلس الاعلى رئاسة مجلس الوصاية .

شعبي العزيز :

اننا نريد من اسنادنا رئاسة مجلس الوصاية الى الرئيس الاول للمجلس الاعلى بدلا ، كما يقول الدستور الذي نريد تعديله فى فصله ، بدلا من اقرب الاقرباء الى الملك من جهة الذكور وأكبرهم سنا ، اننا نريد ان نبلغ الاغراض التالية :

اولا : تجريد مؤسسة المجلس من الطابع الشخصي وطبعها على عكس ذلك بالطابع الموضوعي الخليق بأن يكسبها الفاعلية القصوى .

ثانيا : جعلها فى مأمن من الحوادث المحتملة باستمرار ، اذا ظلت مرتبطة بمصير شخص واحد بذاته معين تعيينا مسبقا .

ثالثا توسيع نطاق الديمقراطية وكيف ؟ وذلك باختيار مواطن لرئاسة مجلس الوصاية يمارس احدى المهام الكبرى للدولة ولا يخضع فى هذا الاختيار لاي اعتبار يمت بصلة الى انتماءاته الاجتماعية او العائلية .

رابعا : وبصورة أقوى ، ابراز الصلات الوثيقة التي تربط الملكية كمؤسسة بسائر المجموعة الوطنية .

وهنا يوجب علينا الانصاف : أننا قد تناقشنا فى هذا الموضوع مع اخينا صاحب السمو الملكي الامير مولاي عبد الله وبالاخص حينما اجريت له عمليته . وكل منا وضع اصبعه على نقطة الضعف فى الدستور القديم .

فانني أريد بهذه الكلمة أن أزيل من الطريق كل تعليق خاطىء ، أو كل حديث مزيف . فكلانا ينتمي مدرسة المؤدب الاعلى والاسمى محمد الخامس طيب الله ثراه ، وكلانا تعلمنا منه أن ننظر الى المستقبل بتجرد ، وأن نتحمل التضحية فى كل وقت وحين .

شعبي العزيز :

هذا هو التعديل الذي نريد ادخاله على الفصل الواحد والعشرين من الدستور . فاذا وافقت عليه

من طريق الاستفتاء عرضنا عليك في مرحلة ثانية ما نرى ضرورة مراجعته .

ان دستور المملكة هو القانون الاسمى للدولة ، وهو الاطار الذي لا يجوز أن تخرج عن نطاقه القوانين التي تعبر عن ارادة الامة ، وتنظم علاقات الدولة بالافراد وعلاقات الافراد بعضهم ببعض ، ولكن الدستور ، وان اتسم بهذه السمة ، وامتاز بهذه الميزة جار على سنة النشوء والارتقاء ، قابل للتبديل والتغيير ، متى ظهرت الحاجة الماسة الى تعديله وتطويره ، ودعت المصلحة الى جعله أكثر ملاءمة لما لنا من اصول تاريخية قارة ، أو لما يطرأ على الاحوال من تحول ، ويجد من جديد في المجتمع ، بالنظر اليه وحده ، أو باعتبار صلاته بغيره من المجتمعات .

وعهدك بنا شعبي العزيز ، الا نسارع الى اتخاذ المبادرات ، ولا نبادر الى انفاذ التوجيهات الا بعد استعمال الروية والتفكير ، والمفاضلة بين قرار وقرار .

ولئن عرضنا عليك فيما سلف . ما نبتغيه في هذه المرحلة من مراجعة ، فما ذلك الا لانه صح لدينا ، بعد النظر الفاحص المستقرىء أن التعديل الذي نقصد اليه ، مرتبط أوثق ارتباط ، بالرعاية التي نسأل الله أن يوفقنا بعونه لاضفائها شاملة متصلة ، على كل شأن من شؤون حياتك .

ولنا اليقين الراسخ ، بأن ارادتنا في مجال المراجعة ، وفي غيره من المجالات ، سيكتب الله لها أن تلتقي دائما بارادتك .

فالمنتظر منك أن تصوت بنعم وباقتناع وبايمان لان هذه المراجعة ليست مراجعة دستورية فحسب ولكنها هي في الحقيقة دليل آخر على أن ما يربط بينك وبيننا ليس هو الا وشائج قربى ، تلك الوشائج وتلك الصلات التي تجمع بين الاب وأسرته الكبرى .

والله ولي التوفيق والتسديد ، وهو المستعان على ما نريد وتريد .

والسلام عليكم ورحمة الله .

جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله يفتتح أكاديمية المملكة المغربية ويحدد مقاصدها:

حمل الأمانة الربانية الملقاة على عاتق الإنسان والإسهام في التقارب بين الشعوب

افتتحت يوم 21 ابريل الماضي بمدينة فاس اشغال الدورة التاسيسية لاكاديمية المملكة المغربية . وقد القى جلالة الملك الحسن الثاني بالمناسبة كلمة سامية حدد فيها أهداف هذه المؤسسة العلمية العليا وأوضح المرامي والمقاصد المتوخاة منها وذلك على ضوء أوضاع عالمنا المعاصر .

واكد جلالة العاهل الكريم بان (الامل معقود باكاديمية المملكة المغربية الجامعة لالوان من التفكير وأصناف من الاحساس وأفانين من التخصص والعرفان ان تطوي المسافات وتوثق أواصر الاتصال والتعارف بين مفكرين وحماة للفكر يتمسكون بقيم روحية واحدة ، وان اختلفت العقائد والاديان، ويهتمون اهتماما مشتركا بكل ما يستحث خطى الحضارة ، ويؤمن المصير الآمن المشرق للانسان) .

وقد عبر جلالة الملك عن روح العبقرية المغربية وترجم مشاعر شعبنا المتطلع الى استئناف دورة حضارة جديدة يشع فيها العلم والعرفان ويزدهر الفكر والثقافة ويسود الامن والسلام .

وقد اعتبرت هذه المبادرة الملكية السامية دليلا جديدا على الاستقرار والرسوخ اللذين يتمتع بهما المغرب رغم ضراوة المعركة التي فرضت عليه للدفاع عن وحدته الترابية . وذلك انطلاقا من الفهم الموضوعي لمقتضيات المرحلة التاريخية التي تفرض على الدول ذات الاصالة والعراقة الحضارية أن تضطلع بمسؤولياتها في اشاعة الامن العقلي والسلام الثقافي والازدهار الحضاري .

ومن أجل هذا كان انشاء أكاديمية المملكة المغربية عملا في مستوى الدور العلمي الهائل الذي قام به المغرب طيلة أربعة عشر قرنا . وبهذا الاعتبار فهو استمرار مكثف له جدته وجديته وأهميته القصوى .

(دعوة الحق)

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول اللـــه وآلـــه وصحبـــه

أصحاب الفخامة ، أصحاب السعادة ، أصحاب المعالي ، حضرات السادة العلماء الاعـــلام .

حضرات السادة الافاضـــل .

يمتلىء قلبنا في هذه اللحظة المشهودة مـــن تاريخنا ، بشعور فياض ، تلتقي فيه المسرة والاعتزاز. ذلك ، أن الله يحقق لنا في هذه الآونـــة السعيـــدة الميمونة امنية غالية من امانينا وحلما عزيـــزا مـــن احلامنا ، فطالما تطلعت نفسنا الى يوم يعلو فيه فوق ارضنا ، بنيان يكتسب شموخـــه ممن يجتمـــع في رحابه من اقطاب الفكر ، وأساطين المعرفة ، وأئمـــة البيان ، وبناة الحضارة .

وها نحن اليوم في هذه الجلسة الافتتاحيـــة ، نبارك انطلاق اعمال اكاديمية المملكة المغربية مؤمليـــن من وراء هذه الاعمال الاسهام المنشود في تألق الفكر وازدهار العرفان ، والتقارب بين الافراد والشعوب ، والتفاهم المفضي الى سعادة الانسان .

وقد كان حرصنا شديـــدا على أن تحتضـــن الاكاديمية رجالا يفدون من آفاق متباينة ، وينتمون الى أجناس مختلفـــة ، وينتسبـــون الى ثقافـــات وحضارات متغايرة ، ويمتازون كلهم بالصيت البعيد ، والشهرة الواسعة، والتجربة الوافرة والحكمة البالغة.

ومن تباشير اليمن ان يسر الله ما اليه قصدناه وعليه حرصنا ، فلبى دعوة الانتساب الى أكاديميتنا نخبة من قادة الفكر وصفوة من جهابذة العلماء وأكابر الادباء والشعراء ، فالى هؤلاء الاعضاء الاجلاء نوجـــه خالص الشكر وجزيله وبهم جميعا نرحب في بلدهم هذا صادق الترحيب وجميله .



حضرات الاعضاء الاجلة المحترمين :

لقد انطلقنا في تحديد غايـــات أكاديميتنـــا ، وتشكيلها على نحو غير معهود ، من منطـــق موقـــع المغرب الجغرافي وهو موقع أراد الله ان يكـــون في مفترق قارات فرسم وجهة المغـــرب التاريخيـــة ، وفرض على بلادنا ان تقوم باستمرار بدور اداة للربط والاتصال والتاليف بين الشعوب والحضارات .

واذا كنا قد آثرنا ان يلتقي في رحاب أكاديميتنا اقطاب يردون من جهات متباعدة فان مرد ذلك الى ان جهود بلادنا وحدها لا تؤدي الى اغراضنا المنشودة ولا تحقق مطامحنا المقصودة ولذا فقد الحت علينـــا الرغبة في مد مؤسستنا بابعاد تجعل منها مسترادا فسيحا تتضافر في رحابه جهود سامية لا للتباحث والتداول في شؤون فكرية وعلمية فحسب ، ولكـــن لايجاد ذلك التقارب وذلك التفاهم الخليقين بالاتساع والامتـــــداد .

فالامل معقود باكاديمية المملكة المغربية الجامعة لالوان من التفكير واصناف من الاحساس وأفانين من التخصص والعرفان ان تطوي المسافات وتوثق اواصر الاتصال والتعارف بين مفكرين وحماة للفكر يتمسكون بقيم روحية واحدة ، وان اختلفت العقائد والاديان ويهتمون اهتماما مشتركا بكل ما يستحث خطى الحضارة ، ويؤمن المصير الآمن المشرق للانسان .

ان الظروف التي تجتازها حياة البشر ، ظروف عسيرة عصيبة ، بما يتلاحق من مشاكل ويتفجر من ازمات ويتجهم الخلق من سحاب ويتطاول للمادة من نفوذ ، ويتضاءل من جاه للروح وسلطان ، ويشيع في النفوس من قلق وخوف ، ويتوالى على الالسنة والقلوب من اسئلة لا يطرحها التفاؤل والاستبشار ، وما أشد حاجة الانسان والظروف التي تحيط بحياته لا تنبت الاطمئنان ولا تزهر بالآمال الى حظ كبير من الدعة ونصيب وفير من التفكير مما يعيد البشاشة ويفيض الانشراح . ويرد عازب الامل .

فاذا كتب الله لهذه الاكاديمية ـ والظن بالله جميل ـ ان تعين على حث ركب الحضارة ، ونشر الطمانينة . وبعث الامل . فان الاعضاء المتآزرين في هذه المؤسسة أرباب الفكر السامي وأصحاب القلب الطافح بالخير سينيرون في هذا الزمن المتبدل المتحول ، سبيل ولوج العهد الجديد ويساعدون على حمل الامانة الربانية الملقاة على عاتق الانسان .

ولنا ـ حضرات الاعضاء الاجلة المحترمين ـ ثابت اليقين وراسخه بان أهدافا كهاته الاهداف وعزائم كعزائمكم المأثورة ستكون اعظم ضمان لاداء الرسالة الموكولة الى اكاديمية المملكة المغربية .

وفقكم الله ويسر لكم مسالك الخير وسدد خطاكم على محجة العمل الصالح . وأثاب جهودكم بالنجاح الذي لا يتخلف ولا يغيب .

واليكم منا تحية اعزاز وتبجيل وإكبار .
والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الأستاذ أحمد الطيبي بنهيمة

أمين السر الدائم لأكاديمية المملكة المغربية

بين يدي صاحب الجلالة

بســـم اللـــه الرحمـــن الرحيـــم

والصلاة والسلام على رسول الله وآلـه وصحبـه

مولاي صاحب الجلالة والمهابة :

صاحـب الفخامـة :

أصحـاب السـادة :

زملائـي الاعضـاء :

لقد حظيت صباح اليوم فى الجلسة الافتتاحية لاكاديمية المملكة المغربية بشرف تعييني أمين السر الدائم لهذه المؤسسة العليا . وانه ـ يا مـولاي ـ لفخر لبلدي ، أن يكون خديم أعتابكم الشريفة وأحد المواطنين المغاربة ، قد نال هذه الحظوة من صفوة رجال العلم والمعرفة والثقافة والسمعة الدولية الرفيعـة .

ولقد سجلت امام زملائي الكرام أعضاء الاكاديمية ـ بالصدق الكامل ـ احساسا ملك على أقطار نفسي . فلقد عبرت لهم بأنني حينما أتطلـع الى وجوههـم الكريمة التي تمثل أنبغ مستويات الفكر، وأرفع درجات العلم ، وأنصع الصفحات فى سجـل الخدمـات الانسانية المتعددة الوجوه ، فانه يترسخ لدى اعتقاد جازم بأنني كلفت بمأمورية ستظل عندي ما حييـت موضع زهو واعتزاز .

مـــولاي :

ان هذه المبادرة الحضارية الهائلة التي اقدمتم جلالتكم عليها ، ليست وليدة فكرة جديدة ، فهـي ـ فى أساسها ومنطلقها الاول ـ رغبة سامية شغلت بال جلالتكم زمنا طويلا ، وجعلت همتكـم العاليـة تنصرف الى التمهيد لها بانشاء مؤسسات علمية عليا ، وخلق مجالات واسعة للبحث العلمي ، وتوفير فرص متعددة للدارسين والباحثين وطلاب المعرفة . ولعل التوسع فى احداث الجامعات والمراكز التعليميـة المختلفة وتكوين المجلس العلمي تحت رئاسة جلالتكم ، وتأسيس دار الحديث الحسنية للدراسات الاسلامية العليا، ليس الا مظهرا للعناية الملكية بالفكر العلمي فى مدلولاته الشاملة سعيا وراء الرفـع مـن مستوى المواطنين تعليميا وثقافيا حتى تتأهل الاطر فى مجال العطاء الفكري ، علاوة على ان ذلك يجسم فضائـل العبقرية المغربية ، ويبرز خصائص الحضارة العربية والاسلامية ، ويضمن استمرار التواصل الحضاري الذي طبع تاريخ المغرب بميسم التميز منذ اقـدم العصـور .

ويقتضينا الانصاف ان نؤكد بأن انشاء الاكاديمية ليس عملا متفردا تقومون به يا مولاي ، ولكنه حلقة فى سلسلة الاعمال الفكرية والانسانية التي انجزتموها

سواء على الساحة الوطنية أو على الصعيد الدولي ، مثبتين بها صواب اختياراتكم الرشيدة ، ومرسخين صلاحية فكركم الباني الذي يحكم مسيرتنا في مدارج التقدم والرقي .

ولقد ابيتم يا صاحب الجلالة بانشاء اكاديمية المملكة المغربية ، الا أن تصلوا الحاضر بالماضي بأقوى صلات الفكر والمعرفة والثقافة ، وتزيدوا من الاشعاع العقلي في ميادين البحث والدراسة والتأليف ، وتخلقوا وسائل جديدة لاثراء الحياة العلمية في مختلف الفروع المتصلة بها ، وذلك بالنظر الى ما يمكن أن يؤديه المغرب من جلائل الاعمال في سبيل الدفاع عن القيم الروحية .

وان عمل جلالتكم يا مولاي المتمثل اليوم في تأسيس هذه الاكاديمية الرفيعة المستوى ، انما هو تجسيد لرؤيتكم الحصيفة الى عالمنا المعاصر ، تلك الرؤية الواضحة التي لا تحصرها قيود العقيدة أو الجنس أو الحدود الجغرافية ، والتي تأخذ في الاعتبار طبيعة هذا العالم ، الذي وان كان يغلب عليه التضارب الشكلي في الكثير من العلاقات الدولية والانسانية ، فانه في الحقيقة عالم متداخل محكوم عليه بالتجانس والتعايش .

واستلهاما لهذه المعاني ، فقد جعل من اهداف الاكاديمية ، الاسهام بحظ موفور في الحفاظ على المثل والمبادىء الانسانية العليا ، وذلك عن طريق انعاش العقل ، وتنوير الوجدان ، وتحديث اساليب العمل الثقافي ، تطلعا الى الآفاق التي يمتزج فيها الايمان بالمحبة والسلام والاخاء ، وانقاذا لبني الانسان مما بات يهدده من اخطار حضارية ، ناتجة عن التنكر للقيم ، والاقبال على التعصب ، والاعراض عن الايمان ، والجنوح الى التباغض ، وممارسة العنصرية ، مما أثر أسوأ الاثر على العلاقات بين الشعوب من جهة والعلاقات بين الدول من جهة أخرى .

واذا كانت البشرية قد امتحنت في اعز مقوماتها بما تم التلميح اليه ، فان من صميم المقاصد التي توخيتموها يا مولاي من احداث الاكاديمية ، احياء الحوافز الروحية ، والتخفيف من ضغوط المادة ، واشاعة الامن العقلي والتعايش الثقافي والتبادل العلمي ، كل هذا على أساس من التقدير المتبادل بين الانسان واخيه ، لمواجهة حالة الانهيار الحضاري التي توشك أن تقلق راحة العقلاء والحكماء على السواء .

ولست في حاجة الى القول بأن العهود التي تميزت فيها الانسانية بالابداع والخلق والعطاء وترسيخ الاسس الاولى لعصور النهضة بالنسبة لمختلف الحضارات ، انما تميزت بذلك بحكم ما كان يسودها من فضائل الحق والعدل والحرية والاخاء والسلام .

لذلك ، فان استئناف الاشعاع الحضاري ، واعادة سجايا الخير الى سابق عهودها الزاهرة ، مرتبطان اساسا بمدى الجهد الذي نبذله في سبيل الرفع من قيمة الفكر ، والسمو به الى مدارج الرقي ، حتى تتلاشى الفوارق المصطنعة ، ويعلو شأن الانسان من جديد ليخلي السبيل للتسامح .

ولامراء في انه كلما سما العقل البشري وتحرر من رواسب الانانية ، كلما اقترب من الصفاء الروحي ، وعمل على صون كرامة الانسان بغض النظر عن معتقده وجنسه وانتمائه .

وتلك هي رسالة الاديان ، وهدف كل دعوة خيرة تنشد سلامة البشرية من التلاشي والذوبان والانهيار .

وغني عن التذكير أن الحضارة العالمية المعاصرة ، هي ميراث مشترك بين جميع الامم والشعوب . فهذا هو شأن الحضارات جميعها ، تتراوح بين المد والجزر ، وتتنوع بالتمثل والتفاعل ، وتزدهر بالاخذ والعطاء ، الامر الذي يبلوره التقاء الحضارة الاسلامية بالحضارات الاخرى ، والذي ما يزال يعتبر للآن نموذجا صالحا يمكن الاهتداء به .

وتوكيدا لما ذكر ، واثباتا لحسن النوايا ونبل الغايات ، واسهاما من المملكة المغربية في تحمل قسطها من المسؤولية الدولية للحفاظ على كرامة الفكر والمفكرين ، كانت مبادرتكم يا صاحب الجلالة بانشاء هذه الاكاديمية ، التي تمثل بأعضائها النابغين

سائر الحضارات القديمة والحديثة ، والتي تقوم دليلا على صدق عزم جلالتكم فى اثراء الحوار بما يخدم قضايا الانسان أولا وقبل كل شيء .

ومن بين الاعمال والمواقف النبيلة التي اضطلعتم بها يا مولاي من أجل خدمة هذه الغايات الشريفة ، زيارتكم الاخيرة لحاضرة الفاتيكان ، تلك الزيارة التي كانت سعيا خالصا لفائدة القدس الشريف ، وجهدا صادقا فى سبيل بلورة مفهوم العمل الدولي المشترك الرامي الى تحرير مدينة الاديان كلها .

واود ان أقول بالمناسبة ، ان لقاء الفاتيكان لم يتم فقط بقصد تعزيز المساعي الدبلوماسية التي يضطلع بها العالم الاسلامي فى هذا الصدد ، وانما كان لقاء يهدف الى اشراك جميع القوى المؤمنة والارادات الطيبة ، لتجسيم التسامح الديني بمدينة القدس ، واعطاء هذه المدينة المقدسة صبغة نموذجية لما يمكن أن يلعبه الفكر الرصين والحوار المتكافيء والايمان الناضج من دور فى اقرار السلام واسعاد البشرية .

وان مدينة القدس باعتبارها مهد الديانات وأرض المقدسات منذ عشرات القرون ، محكوم عليها بأن تبقى على الدوام منطلقا للاخاء والسلم والوئام ؛ وأي مساس بهذه الوضعية ستصبح معه المدينة المقدسة مصدرا للتفرقة والتمزق والشتات .

مولاي صاحب الجلالة والمهابة :

اصحاب السعادة :

زملائي الاعضاء :

سيداتي سادتي :

ان تدشين أكاديمية المملكة المغربية اليوم ، ينطوي على كل المعاني النبيلة والتصورات الايجابية والدلالات العميقة التي حاولت قدر الامكان التعبير عنها فى هذه الكلمة . وفى ذلك ما فيه من رمز الى امكانية استئناف دورة حضارية واعدة وفاعلة ؛ من شأنها ان تثري وجدان الانسان ، وترد عنه خطر التطاول على ذاتيته وكرامته وحريته .

يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الحكيم :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير » .

(صدق الله العظيم)

وان هذه الآية الكريمة لتعتبر تكليفا الاهيا لاهل الفكر والعلم فى كل مكان ، من اجل النهوض باعباء الامانة المقدسة بما يرضي الله والضمير والانسانية جمعاء . وأعضاء أكاديمية المملكة المغربية عازمون بكل تفان واخلاص على القيام بهذه المهمة بالصورة الوافية بالقصد والمتفقة مع اهداف ومرامي جلالتكم السامية فى هذا المضمار .

والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الأستاذ عبد الله كنون
باسم أعضاء أكاديمية المملكة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيــــم

مولاي صاحب الجلالة :

تابى همتكم العالية ونظرتكم المستقبليـــة ان يشغلكم مهم عن مهم ، من امر اصلاح البلاد والنهوض بالشعب وبناء الاستقلال واستكمال الوحدة الترابية للوطن وبعث الحضارة المغربية وتطعيمها بما جد فى عالم العلم والمعرفة والادب والفن ، مع مد عنايتكـــم الشريفة وبسط يدكم الكريمة للاخـــوة الاشقاء فى ارض العروبة وديار الاسلام بالعون المادي والادبي وحمل الكل وخوض المعارك والاضطلاع بالمسؤوليات الجسام التي لا يتقلدها الا الرجال العظام ، فالزمن عند جلالتكم انما هو توقيت لمشروع ينجز ، ومشكل يحل ، وخطة ترسم ، وحملـــة للانشاء والتعميـــر والتشييد والترميم وليس دون ذلك فسحة الا للتفكير فى جولة جديدة ، ومبادرة حميـــدة ، فشانكم شان الحال المرتحل ، الخاتم المفتتح الذي ورد انه افضل الاعمـــــال .

وكذلك رأيناكم يا مولاي وانتم تجرون اللمسات الاخيرة على المسيرة الخضراء ، تنطلقون الى وضع الحجر الاساس فى السد الذي أصبح يحمل اسمها ، وتحتفلون فى مراكش بالذكرى التاسعة عشرة للعيد الوطني ، عيد جلوسكم على عرش اسلافكم المنعمين، ثم تنتقلون لتقبل مراسيم الولاء الى مدينة الداخلـــة عاصمة اقليم وادي الذهب بصحرائنا المسترجعة ، فلم يكن من المستغرب اليوم ان تعودوا من رحلتكم الموفقة التي قمتم بها الى فرنسا والى الفاتيكان من اجل قضية القدس ، لافتتاح الاكاديمية الملكية التي تضيفونها الى مآثركم الخالدة .

والامر من الاهمية بمكان ، فلقد طالما تشوفت نفوس اهل العلم والنخبة المثقفة بمملكتكم السعيدة ، الى انشاء مؤسسة من قبيل ما يوجـــد فى البـــلاد العربية الشقيقة كالمجمـــع العلمـــي او الفقهي او اللغوي ، وتضاربت الاراء فى الاختيـــار بين هـــذه المجامع واسبقية بعضها على بعـــض بالنظـــر الى الكفاءات المغربية والاختصاص الغالب على اهلهـــا ، فجاء رأيكم السديد ، وقراركم العتيد ، رافعا للخلاف مستجمعا لكل هذه الاتجاهات ومضيفا اليها غيرهـــا مما لم يفكر فيه احد ولم يخطر لغيركم ببال .

وهكذا جعلتموها اكاديمية تعمل على تنميـــة البحث والاستقصاء فى اهم ميادين النشاط الفكري، من علم العقائد والفلسفة والاخلاق والفقه والقانـــون ومناهج الحكم والتاريخ والآداب والفنون الجميلـــة

والرياضيات والعلوم التجريبية والطب والدبلوماسية والعسكرية والادارة والاقتصاد والصناعة والتعمير والتقنيات التطبيقية الى العمل الجليل الذي يمكن للمغرب أن يقوم به فى حظيرة الاسلام دفاعا عن القيم الروحية والحضارة الانسانية ، مع اقرار تكافل مستمر بين هذه النشاطات وجمع شمل رجالات المملكة الذين برهنوا على دراية كاملة وتضلع واسع فى هذه الميادين ، وتحقيق الاتصال بينهم وبين رجال من جنسيات مختلفة اشتهروا بما انتجوه من اعمال فكرية وما أسدوه للحضارة من جليل الخدمات .

انها فى الواقع يا مولاي ، اكاديمية ملوكية بالنسبة الى الجمع لا الى المفرد ، لجمعها اشتات المعارفة ومتنوع الثقافات ، وهل تكون اكاديمية الحسن الثاني الا كذلك ؟ فقد قال المتنبي :

على قدر أهل العزم تاتي العزائم

وقال أحد شعراء السلطان المرحوم مولاي يوسف :

تحب المعالي من يحب المعاليا

ونظرا الى موقع المغرب الجغرافي فى مفترق القارات الذي يحدد وجهته التاريخية ويفرض عليه ان يضطلع بدور يجعله صلة وصل واداة ربط وعامل تأليف بين الشعوب والحضارات فى اوربا وافريقيا وخاصة فى حوض البحر الابيض المتوسط وعبر شاطىء المحيط الاطلسي الذي يمتد الى العالم الجديد ، فانه لا يمكن للمغرب أن يكون الا كما عهد من قبل ، منارة اهتداء ومثابة لقاء وارض تعايش بين جميع العناصر الخيرة والفئات العاملة لما فيه مصلحة الانسانية جمعاء ، ولا يتحقق ذلك الا فى اكاديمية من النوع الذي اخترتموه والمغرب ليس بعيدا عن هذا الميدان فمنذ أحرز كيانه وحقق سلطانه وبرزت شخصيته الحضارية ، من أيام دولة الاشراف الادارسة الى أيام دولة بني عمهم الاشراف العلويين – ادامها الله – وهو مركز من مراكز الثقافة فى العالم بحاضرته العلمية وجامعته القروية وما ورثه من تراث علمي وحضاري عن عاصمة المغرب الكبير مدينة القيروان وعاصمة الفردوس الاندلسي مدينة قرطبة ، وما أبدعه من مدينة زاهرة فى عاصمته الجنوبية أيام الموحدين الذين كان من وزرائهم أبو بكر بن طفيل وأبو الوليد بن رشد وابناء زهر وتلك الطبقة والذين انشاوا بمراكش بيت الطلبة على غرار بيت الحكمة الذي كان ببغداد فى العصر العباسي الاول، ومنه ومن جامعته القرويين،أم الجامعات،تسرب النور الى أوربا عن طريق اسبانيا فكان بداية عصر النهضة فيها .

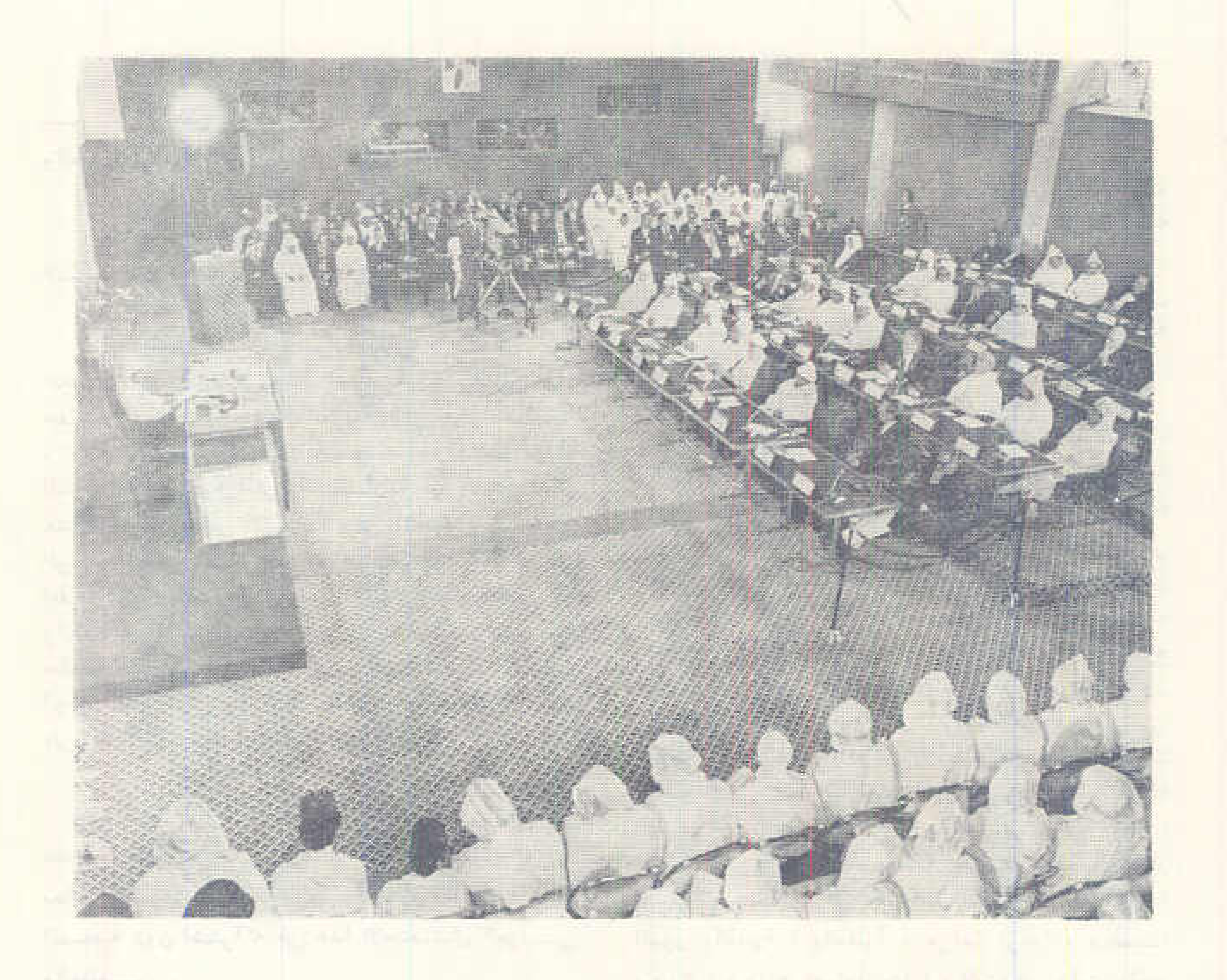
وكلنا يعلم أن ابن رشد هو الذي لخص فلسفة ارسطو وشرحها بأمر من يوسف بن عبد المومن الموحدي ، وعن كتبه ترجمت الى اللغة اللاتينية وغبر زمن فى أوربا لم تكن الفلسفة تدرس فيه الا بكتب الشارح أي ابن رشد كما كان الاوربيون يدعونه . واشتهر ان الارقام العربية وما تستعمل فيه طبعا من عمليات حسابية ومعادلات جبرية أتم ادخالها الى أوربا احد رجال الدين المسيحي الذين تعلموا فى المغرب وكان يدهش رؤساء الكنيسة بسعة معارفه مما رشحه لتقلد منصب البابوية . وأمر الشريف الادريسي الجغرافي الكبير مع روجر معروف ، فانه كان يعتبر طبيبه الخاص فضلا عما وضعه له من خارطة العالم وألفه في جغرافية الدنيا من كتابه المشهور نزهة المشتاق ، وكان روجر هذا وهو ملك صقلية يجله ويرفع مكانته حتى انه ليجلسه معه فى اريكته .

ومثل ذلك حصل للعالم الفاسي الحسن الوزان الذي يعرف بليون الافريقي فان قراصنة البحر أسروه وباعوه للبابا الذي قربه اليه واحاطه بعنايته لما راى من علمه وواسع اطلاعه وكان يستفيد منه كثيرا ولذلك حرص عليه ولم يقبل فيه فداء .

وما بالنا نبعد النجعة وبالامس القريب قال البابا يوحنا بولس الثاني يا مولاي فى كلمته التي القاها ترحيبا بكم فى الفاتيكان : انكم يا صاحب

الجلالة ملك بلد لا ينكر احد ماضيه الزاخر بالمفاخر، وشعبكم بين شعوب الشمال الافريقي هـو وارث لتقاليد مجيدة وعريقة في القدم وحامل للواء حضارة طبع اشعاعها وما زال يطبع مجالات الثقافة والفن والعرفان ، فهذه شهادة يزيد في قيمتها انها تمجد الحاضر كما تمجد الماضي .

والفضل في ذلك يرجع الى جلالتكم وما تبذلونه من جهود جبارة في سبيل تطوير المغرب وقطع المراحل التي تفصل بينه وبين النمو الكامل والازدهار ليبقى دائما يعطي ويأخذ ويصدر ويورد ، وما هذه الاكاديمية التي تدشنونها اليوم الا مثال من عشرات الامثلة على ما تفتحونه من مغالق وما تشرعونه من ابواب امام شعبكم الناهض للاتصال بالثقافات المتنوعة وتلقيح فكره بالنماذج المتخيرة من حضارة العصر ومنشآت المدنية الحديثة ، فلكم الشكر الجزيل والثناء العاطر باسم الاجيال العاملة والصاعدة ، والساعية والناشئة ، والله يقر عينكم ببلوغ الاهداف وتحقيق المطامح التي تعملون لها ليل نهار من اجل رقي شعبكم وتقدمه وهو المسؤول سبحانه ان يحفظ المغرب فيكم وفي ذريتكم الواعدة ولا سيما ولي عهدكم الامير سيدي محمد وصنوه الامير مولاي رشيد ، والسلام على مقامكم العالي بالله .



كلمة السيد المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني عاهل المغرب نصره الله .

انه واجب أثير ، وشرف سني ، يا صاحب الجلالة ، ان أتقدم في هذه المناسبة الجليلة الى مقام جلالتكم ، باسم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وباسمي ، بأعظم آيات التقدير واصدق معاني الشكر على الدعوة الكريمة للمشاركة في استقبال هذا الحدث العلمي الكبير ، وفي الاحتفال به في الرعاية الملكية السامية ، مع هذه النخبة الخلاقة من اعلام الفكر والعلم والفن ، وأن أشيد باللقاء الحميم والضيافة الحفية ، وبالتنظيم الرشيد الذي هيأته حكومة جلالتكم القادرة ، وأن احيي شعبكم الابي الوفي الذي يبني بالارادة والقدرة ، الحياة الكريمة على هذه الارض البارة بقيادتكم السامية .

وائذنوا لي ، يا صاحب الجلالة ، أن ارفع الى مقام جلالتكم تحيات الامين العام لجامعة الدول العربية معالي الاستاذ الشاذلي القليبي الذي حالت ظروفه الصحية دون اشتراكه في هذا الاحتفال القومي والعالمي .

يا صاحب الجلالة :

ان أكاديمية المملكة المغربية التي ارسيتم اسسها الراسخة واقمتم قواعدها العالية على رؤية مستوعبة ، وفكر بصير ، وادراك متكامل لابعاد المسؤولية الحضارية قوميا وعالميا معلم تاريخي في حياة المملكة الناهضة ، وهي الى ذلك اضافة سرية الى مسيرة الفكر العربي الاسلامي ..

وانه لتوفيق من الله ، يا صاحب الجلالة ، وتوقيت من القدر ، واختيار من ارادتكم السامية رشيد ، أن تقوم هذه المؤسسة الشامخة في هذه البقعة الغالية من الوطن العربي الاسلامي ، والتي كانت ارض اللقاء بين الحضارات ، وقاعدة الحوار بين الثقافات ، والتي انطلقت منها ، ومن حواليها ، ومما بذر فيها من اصول العلم والفكر ، طلائع الحضارة العالمية المعاصرة ... وهي مع ذلك تكون في هذه المدينة الرائدة « فاس » القرويين التي حملت مشعل الفكر العربي الاسلامي المستنير قرونا موصولة عبر القارات ، ثم تكون في هذه المدينة الطليعة ، في هذه الدار التاريخ ، التي ارتفع منها صوت الحرية والكرامة وهكذا جمعت حكمة الاختيار لهذه المؤسسة ، كل مقومات الشموخ الحضاري ، الدور والقدرة ، والقدوة ، موقعا فريدا ، وعلما مبذولا ، وحرية مضنونا بها ، وكانت في وقت واحد

تكريما لكل هذه المعاني ، وتجسيدا لها ، ورمزا دالا عليها حيث يقترن العلم بالحرية ، وهما وجهان لمفهوم واحد ، هو الحقيقة ، فلا علم يكون بغير حرية ولا حرية تتحقق بغير علم ، والعلم بعد ذلك معاناة وعطاء والحرية كذلك .

ان هذه الاكاديمية يا صاحب الجلالة ، وهي مأثرة كريمة من مآثركم الكثيرة لشعبكم ولامتكم ، سوف تكون كما اردتموها ، ان شاء الله ، قوة جديدة ، في البناء الفكري القومي الذي يتهيأ لاستئناف دوره الحضاري ، متفاعلا مع الحضارة المعاصرة ، في مسؤولية ايجابية يتكامل معها ، محتفظا بأصالته وعبقريته فلم يعد الاسهام التاريخي لامتنا في الحضارة الانسانية مجدا نتغنى به ، ولكنه مسؤولية جليلة علينا ان نقوم لها في ارادة وفي قدرة .

ولقد كان تراثنا العظيم ، هو احد مشكلاتنا ، وان التعامل مع هذا التراث العريض اتخذ صورا متعددة ، فقد ادى انفصام الفكر القومي عن نسيج الحياة الاجتماعية في الظروف التاريخية التي عاشتها الامة العربية الاسلامية ، الى توقف الابداع ، فلم يعد هناك نمو كيفي للمعرفة ، وانما اصبح هناك تراكم كمي لها ، فالمتون تشرح ، والشروح تحشى ، والمطولات تلخص ، وهكذا ، فكانت فترة استغراق ، واستغلاق ، عكست صورة المجتمع المتجمد ...

ثم كان اللقاء المفاجيء والعدواني مع الحضارة المعاصرة والذي تم في اطار المد الاستعماري الاوربي ، وما سبقه ، وصحبه واعقبه من وقائع وظاهرات وعلاقات ، افضت الى سيطرة الحضارة الوافدة واجهزتها ومؤسساتها وقيمها على مقومات حياتنا الاجتماعية والسياسية ، والى محاصرة منابع قوتنا الفكرية المتمثلة في تراثنا ، مستودع قيمنا ، ومناط شخصيتنا ، فاغترب بذلك جيلان او ثلاثة من اجيالنا عن الذات الثقافية القومية او كادت وجعلت تنظر الى ذلك التراث العظيم ، نظرة سلبية ، من خلال التصور الظالم الذي فرضه المغرضون من الاجانب .

حتى اذا تحررت امتنا ، وفكت قيودها بالنضال والتضحية والبذل ، بدأت فترة التلاحم الحي ، مع القيم ، ومع الاصالة ، في ضوء المعطيات الجديدة ، منهجيات وحقائق ، ونشأت العلاقات الوظيفية بين الواقع وبين الوجود التاريخي ، واصبحت مسؤولية الفكر القومي ، مسؤولية اختيار ومسؤولية اجتهاد ومسؤولية ابداع ...

ان المشكلات المطروحة امامنا ، مشكلات كبيرة ومعقدة ، وهي كبيرة ومعقدة ، لانه لم تعد هناك مشكلة تعني شعبا واحدا او امة واحدة ، فالمشكلات المعاصرة بطبيعتها مشكلات كونية ، تتعدد اطرافها ، وتتنوع طبيعة قضاياها ، فهي حصيلة حضارة كونية غالبة تحاول تنميط الحياة البشرية ، وهي بأجهزتها وقدراتها التكنولوجية ، تتحكم في وجود الناس وفي مصائرهم ، واذا كانت الحضارة ، اي حضارة ، بناء متكاملا ، فهي تفوز قيمها الخاصة ، والتكنولوجية التي هي قوام هذه الحضارة ، ليست سلعة محايدة ، ولكنها منطوية على قيم ، وسلوكيات تحدد التعامل معها ، ومع ان للقيم في كل حضارة جهازها التفسيري وقدرتها التكيفية مع الواقع ، فان المشكلة الانسانية الكبرى في ظل هذه الحضارة هي ذلك التحدي الذي تقيمه بين الاصالة والمعاصرة ، والتحدي المطروح امام الدول النامية كلها هو معادلة طرفاها التنمية في التصور التكنولوجي قيما واهدافا واتجاهات من ناحية والشخصية القومية خصائص ومقومات وغايات من ناحية اخرى .

وفي مثل هذه الاكاديمية التي رأيتم جلالتكم بالحكمة تكوينها في تصور شمولي متكامل لمجالات المعرفة البشرية ، وللاتجاهات الفكرية ، والمواقع الاجتماعية والانتماءات القومية والاهتمامات العالمية ، ينشأ المناخ الايجابي لتنمية المعرفة الانسانية وتطوير الحوار العلمي النافع ، وترسيخ التعاون القومي والعالمي المسؤول .

اذنوا لي ، يا صاحب الجلالة ، ان احيي هذا الجهد العلمي والفكري الذي يجيء حلقة في سلسلة وضيئة من جلائل اعمالكم المذكورة والباقية ، وان الامل معقود على ما تحققه هذه الاكاديمية من اهداف في خدمة ثقافتنا القومية في كل المجالات .

والتوفيق من الله مسؤول ، وهو من وراء القصد معين .

كلمة السيد الأمين العام لمنظمة المؤتمر الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

يطيب لي ان اتقدم بخالص التحية والتقدير الى جمعكم الحافل بمناسبة افتتاح اكاديمية المملكة المغربية ، واهنىء المغرب الحبيب بهذه المؤسسة الثقافية التي اتمنى لها مستقبلا زاهرا واخص باغلى التهاني جلالة عاهل المغرب الهمام الملك الحسن الثاني راعي الثقافة والمعرفة . فهذا الانجاز الجديد يكتب في سجل اعماله ومبادراته الموفقة كما اهنىء الشعب المغربي بهذه المؤسسة التي جاءت تتويجا لمعاهد العلم والفن والادب التي ازدانت بها المملكة المغربية منذ اشرق فجر الاستقلال على ربوعها ، التي رعاها عاهل البلاد بنفسه مثلما كان يرعاها من قبله والده العظيم محمد الخامس تغمده الله برحمته الواسعة . ويعد قيام اكاديمية المملكة المغربية لبنة جديدة في صرح البنية الحضارية التي امتاز بها المغرب العربي عبر القرون كهمزة وصل بين الشرق والغرب والاندلس ، والتي حملت مشعل الحضارة ازيد من سبعة قرون من جهة وبين قارة افريقيا التي استمدت بعض مقوماتها الفكرية والروحية من العطاء الذي قدمه لها المغرب العربي منذ قرابة الف عام من جهة ثانية . ولا يزال هذا الاشعاع الثقافي متأججا متعمق الجذور خاصة في افريقيا الغربية التي تجمعها بالمغرب وشائج قوية الصلة .

ان مظاهر اليوم ليست في الواقع الا استمرارا للدور الذي لعبه المغرب في الماضي الثقافي والحضاري . وان قيام الاكاديمية المغربية بمثابة جسر يمتد بين الماضي والمستقبل ، جسر يعبره الجيل الحاضر وفاء لماض حافل بالمعرفة والاشعاع الفكري ، وتطلعا لمستقبل مشرق زاهر . وان اختيار بعض اعلام الفكر المعاصر من الاجانب للانضمام للاكاديمية الملكية لمؤشر على تلاقح الثقافة لخير الحضارة الانسانية قاطبة .

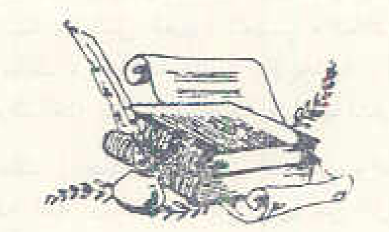
فهنيئا للمغرب بمؤسسته الجديدة ، ومزيدا من الازدهار والتقدم للبلد العزيز في عهد ملكه الهمام .

الحبيب الشطي
الامين العام
لمنظمة المؤتمر الاسلامي
بجدة

لائحة أسماء أعضاء أكاديمية المملكة المغربية

1 — الدكتور احمد عبد السلام
2 — الاستاذ نيل ارمسترونغ
3 — الدكتور بهجت الاثري
5 — الدكتور محمد الحبيب بلخوجة
4 — الاستاذ الحاج امحمد ابا حنيني
6 — السيد عبد العزيز بن عبد الله
7 — الدكتور عبد اللطيف بن عبد الجليل
8 — الدكتور المهدي بن عبود
9 — الدكتور محمد بن شريفة
10 — السيد احمد الطيبي بنهيمة

11 ـ السيد عبد الوهاب بن منصور
12 ـ الدكتور عبد اللطيف بربيش
13 ـ السيد المطران نوربير كالمس
14 ـ السيد موريس دربون
15 ـ الدكتور احمد الضبيب
16 ـ السيد عبد الرحمن الفاسي
17 ـ الاستاذ محمد الفاسي
18 ـ الفقيه العلامة السيد الرحالي الفاروقي
19 ـ الرئيس ادغافور
20 ـ الاستاذ ايمليو كارسيا غوميث
21 ـ السيد عبد الكريم غلاب
22 ـ الفقيه العلامة السيد عبد الله كنون
23 ـ الدكتور عبد المنعم القيسوني
24 ـ السيد ابراهيم الكتاني
25 ـ السيد محمد العربي الخطابي
26 ـ الدكتور هنري كيسنجر
27 ـ الدكتور محمد عزيز الحبابي
28 ـ السيد احمد الاخضر غزال
29 ـ الدكتور المهدي المنجرة
30 ـ الدكتور عبد الله ناصف
31 ـ صاحب السمو الملكي اوطودوها ببور
32 ـ الرئيس ليوبولد سيدار سنغفور
33 ـ الدكتور صبحي الصالح
34 ـ الدكتور فؤاد سازكين
35 ـ الدكتور محمد علال سيناصر
36 ـ الدكتور عبد الهادي التازي
37 ـ السيد العميد جورج فودبل
38 ـ السيد هوان كيانغ



في الرسالة الملكية السامية الى ندوة الامام مالك :

مواجهة التحدي الحضاري الجديد على ضوء منهجية الامام مالك

اجمع المشاركون فى ندوة الامام مالك بن أنس على أن الرسالة الملكية السامية الموجهة الى الندوه تعتبر بكل المقاييس وثيقة عمل ليس فقط فى اطار عملهم ، وانما فى كل ميدان فكري تطرح فيه الآراء وتناقش الافكار وتعالج الموضوعات المتصلة بالثقافة العربية الاسلامية .

لقد حددت الرسالة الملكية بدقة متناهية مسؤولية علماء الاسلام فى الحاضر والمستقبل ، وانطوت على توجيهات سديدة أنارت الطريق أمام الباحثين فى التراث الاسلامي والدارسين لاثر الثقافة العربية الاسلامية فى ازدهار الحضارة الانسانية ، وتضمنت المقاييس الموضوعية لوظيفة المفكر الاسلامي واسلوب تعامله مع التراث على ضوء تغيرات عصره وتطورات بيئته .

وخاطب امير المؤمنين نصره الله العلماء بقوله : « لتكن ندوتكم هذه فرصة للبحث عن ذلك الاسلوب ومناسبة للتصدي لهذا التحدي الحضاري الجديد ، وذلك بدراسة وتحليل قضايا العصر واتخاذ مواقف بناءة على ضوء منهجية الامام مالك ، مواقف تتسم بالايجابية والاقناع والانسجام مع عقيدتنا وبيئتنا وطبائعنا وتكون امتدادا طبيعيا لتاريخنا وحضارتنا » .

وقال جلالة الملك : حاشا أن يكون التحجر والجمود من شيم الاسلام ، واكد حفظه الله أن هذا الدين بريء من كل من يقفون فى وجه التقدم باسم الاسلام .

والحق ان الرسالة الملكية الموجهة الى ندوة الامام مالك بن أنس اشاعت فى أوساط الندوة جوا من الثقة والامل والاقبال على الحوار البناء والمناقشة الهادفة بحيث انطبعت اعمال الندوة بالروح العلمية . وانكب المشاركون على اشغالهم فى حماس كبير . وبذلك حققوا للندوة قدرا رفيعا من النجاح .

وفيما يلي النص الكامل للرسالة الملكية القيمة التي تلاها الاستاذ السيد احمد بن سودة مستشار صاحب الجلالة نيابة عن جلالته :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وآله وصحبه



حضرات السّادة العلماء المكرمين

منذ بضعة أيام، حقّقنا بمشيئة الله وعونه، أملاً عزيزاً علينا، وَحُلُماً طالما راوَدَنا، وذلك بتدشين أكاديمية المملكة المغربية التي نأملُ أن يُصبح المغرب بوجودها مركزَ إشعاعٍ للعلم والفكر، والحضارة البشرية بجميع مُقوّماتها وأبعادِها.

ولم تَصْرفنا مشاغلُنا اليومية، ومَشاكِلُنا الظرفيةُ عن تكريسِ بعضِ جهدِنا واهتمامِنا لإقامةِ صرح تلك المؤسّسةِ العتيدة، عِلماً منّا بأنّ عظمة الأُمم والشعوب لا تُقاسُ بضخامة بنيانها، ولا بِسعةِ عُمرانها، ولا بكثرة سُكّانها، ولكن بعدد ما أنجبَته للإنسانية من عقولٍ مبتكرة، وأفكارٍ نيّرة، وقياداتٍ روحيةٍ تشعّ حكمةً ونوراً، وتَبقى على مرّ الزمان مَناراتٍ تُضيء الطَّريقَ للبشريّة وتاخذ بيدها نحوَ السّعادة الأبديّة.

وإنّ من بواعثِ رضانا، ودواعي غبطتنا وارتياحنا، أن تُقام على أرضنا هذه الطّيّبةِ الطّاهرةِ، وفي هذا الظرف بالذات، ندوةٌ خاصةٌ بالإمامِ مالك بن أنس رضي الله عنه، إحياءً لذكراه، وتذكيراً لأهلِهِ بفضله، وتعريفاً بمقامه الرفيع بين شبابنا المتطلّع إلى تُراثه الرّوحيّ العريق. وذلك بتسليط الأضواء بما سيُلقى من محاضرات، وما سيَعقُبها من مناقشات، على جميع أعمالِهِ العظيمةِ الخالدة، التي ضَمِنَتْ للسُّنّة النبويّة البقاءَ والنّقاءَ، والصّحّةَ والصّفاء، وذلك بما احتواه كتابُه "الموطّأ" من صحيح الحديث، وثابتِ الشّمائل، ممّا جعل تلميذه الإمامَ الشافعيّ رضي الله عنه يقول: "ليس بعد كتاب الله أصحّ من مُوطّأ الإمام مالك".

وما أغناه، رضي الله عنه، عن التعريف والتذكير في بلدٍ كالمغرب وبين قوم كالمغاربة. فقد اختلط مذهبه العظيم بحياتنا منذ أن اعتنقناه. فلا يمرّ يوم دون أن نمارس فيه جملةً من تعاليمه، ولا يتمّ أكلٌ ولا شراب، ولا صلاة أو صيام، ولا زواج أو طلاق، ولا معاملةٌ دون الرجوع إليه، والاهتداء بما أخرجه فيه، من بيع وشراء، وإعارة وكراء، ومعاوضةٍ ومناقلة، ومقاصّة ومحاسبة وشركات، إلى غير ذلك من المعاملات، "فالدّينُ المعامَلة".

وإنّ انعقادَ هذه الندوة في مثل ظروفنا الراهنةِ لينطوي على أكثرَ من مَغزىً؛ فقد ألهمَ الله أجدادَنا المنعمين إلى اختيار مذهب الإمام مالك، ونشرِه - وحدَه دون غيره - في طول البلاد وعرضها، حفظاً لوحدةِ البلاد المذهبية، ودَرْءاً لكلّ ما يحمله تعدّدُ المذاهب والنِّحَلِ من بذور الشقاق والخلاف، فبرهنوا بذلك على بُعدِ نظرهم، وعمقِ محبّتهم لشعوبهم، ورغبتِهم في إسعادِها بدفءِ الوحدة، وما ينتُج عنها من قوّة ومنعَة. ولو صدَروا في سلوكهم عن أنانيةٍ أو حبٍّ للتسلّط، لعَملوا بمبدأ "فرّق تسُد" ولأصبحت بلادنا طوائف وشيَعاً تتقاتل فيما بينها وتتناحر، ولمَا رأينا اليومَ هذا التماسُكَ والتلاحُمَ بين أفراد شعبنا في مواجهة الغزو الأجنبيّ الرامي إلى تمزيق وحدتنا الترابية، وعرقلةِ مسيرتنا الحضارية.

أما المغزى الثاني من إقامة هذه الندوة، فهو تأكيد تمسّكنا بالسير في الطريق الوسط التي اختطّها لنا إمامُنا مالك رضي الله عنه، عملاً بقوله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمّة وسَطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" فتجنّبنا باتباع مذهبه الإفراط والتفريط، والانحراف عمّا يمليه العقلُ السليم، والطبع القويم. فقد كان، رضي الله عنه، في حياته مثالاً للتوسّط والاعتدال، مقتدياً بأخلاق وشمائلِ الرسول صلى الله عليه وسلم.

ورغم اعتداله ودماثةِ أخلاقه، فقد كان دِرعاً متيناً للعقيدة ضدّ التحريف والتزوير، والتأويل المغرض، ونبراساً يضيء الطريق أمام الخلفاء، والأئمة والعلماء في مملكة الإسلام. فكان المفتيَ الدقيق، والشارحَ الواضح،

والمؤوّلَ الصادق الأمين. ولم يبتعد، في كلّ فتاواه وتعاليمِه، عن المنطق السليم، والخُلقِ المستقيم، ممّا جعل غالبيّة المسلمين تطمئنّ إليه، وتأتمّ بهديه. وهذا مغزىً آخرُ نستخلصه من سيرة هذا الرجلِ العظيم.

وممّا يجب استلهامُه كذلك من سيرة الإمام مالك، ثباتُه، رضي الله عنه، على المبدإ، ومُطابقةُ أقوالِه لأفعاله. فقد كان شجاعاً في نصرة الحقّ، قويّ الإيمانِ بالله، واضحَ المواقف، لا يخشى في الله لومةَ لائِم، فلم يُداهِن قويّاً، ولم يتملّق طاغية، ولم يتنازل عن شَرْوَى نقيرٍ من مبادئ العقيدةِ وأوامرِ الله.

وقد امتُحِنَ من أجل ذلك في إيمانه أيّما امتحان، وضُرِبَ وعُذِّبَ، وأُهِينَ في سبيل الله، وطِيفَ به في شوارع المدينة، وخُلِعَت ذراعُه ليتنازل عن رأيه، ويُفتيَ بغيرِ ما أنزل الله، ويأذَنَ بطَلاقِ المُكرَه، فأبى وصبر على الأذى، وخرج من محنته التي كان يُرادُ بها إذلالُه، أعزَّ وأكرَمَ على الله، وأجَلَّ وأعظَمَ في عيون قومه، وفي ضميرِ الأمّة الإسلامية إلى عصرنا هذا. وصدَقَ اللهُ وعدَه: "إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم".

وذَهَب الإمام مالك، وبقيت صيحتُه الشهيرة: "من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس. طلاق المكرَه لا يجوز". بقيت تتردّد أصداؤها بين شعاب المدينة وتكبُرُ وتَعظُم لِتشملَ أرجاء المعمور، ولتَبقى شاهداً حيّاً مدى التاريخ على رفض الظلم، والانتصار للحق.

هذا عن جانب الإيمان، والجهاد، والثبات، في شخصية الإمام مالك رضي الله عنه.

ولو أردنا تطبيقَ المقاييسِ العلميةِ العصريّةِ على الجانب العلميّ لهذا الرجل الفذّ، لَبرزت لنا شخصيةٌ عبقريّةٌ ثاقبةُ الفكر، متعدّدةُ الأبعاد، واضحةُ المنهج، شديدةُ العمق والانضباط. فهو لم يكتفِ بإثبات سنَد الحديث وتَجشّمِ المشاقّ في تقصّي رواياته إلى نبعه الأصليّ، بل تعدّى ذلك إلى تحليل شخصيات رُواةِ الأحاديث، والتأكّدِ من استقامتها وصدقِها ورُسوخِها في العلم.

وَقد أفضى به اجتهادُه ودقّتُه العلميةُ إلى النزول إلى شوارع المدينة المنوّرة لدراسة البيئةِ الاجتماعية التي عاش فيها الرسول صلوات الله عليه وسلامه. فدرس عاداتِ وتقاليدَ أهلِ دارِ الهجرة التي انطبع سلوكُ أهلها بالسّلوك النبوي. وذلك حتى يطمئنّ إلى صحّة ظروف بعض الأحاديث. فأوحى بذلك للعلاّمة المغربيّ عبد الرحمن ابن خلدون بالمنهج العلميّ التجريبيّ الذي نَصَح به لتصحيح وقائع التاريخ القديمةِ بالرجوع إلى البيئاتِ الاجتماعية التي وقعت فيها.

ولم يكتفِ، رضي الله عنه، بكلّ ذلك رغم عظمته، فترك باب الاجتهاد مفتوحًا للأئمّة من بعده، وذلك بسَنِّهِ استنباطَ الأحكام في ما كان يستجدّ من قضايا يَفرضها اتّساع رقعة الإسلام، بالقياس على ما ورد في السنة وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم. فضمن بذلك المرونةَ والشمولية للمبادئ والأحكام الإسلامية، وقَطَعَ الطريقَ على السطحية، والتزمّت، والرّكود.

وقد اكتشف الغربُ المسيحيّ، بعد ألف عام من وفاة الإمام مالك، مَا لمذهبِه الكاملِ من قوة وثراءٍ ودقّةٍ في تنظيم أحوال المجتمع البشريّ أبدعَ نظام. فاستعاروا منه الشيءَ الكثير، وخرجوا به على العالم وكأنه من صنع أيديهم، وعبقريةِ مفكّريهم.

ورغم ما أسداه الإمام مالك للإسلام من خدماتٍ جُلّى، وما تَحمّله في سبيل الدفاع عن مبادئه من أذى، فقد خالجته في أواخر حياته شتّى الشكوكِ والمخاوفِ من أن يكون قد أفتى برأيه سهوًا أو خطأً بما يُخالف الكتاب والسّنة. قال (مَعن بن عيسى): سمعتُ مالكًا يقول: "إنّما أنا بشر، أُصيبُ وأُخطئ، فانظروا في رأيي، فما وافق السّنة فخذوا به".

وقال (ابن قُعْنُب) وهو أحد رُوَاته البارزين، حين عاده وهو على فراش موته: جلست إليه فرأيته يبكي، فقلت: يا أبا عبد الله، ما الذي يُبكيك؟ فقال: "يا ابن قُعْنُب، ومالي لا أبكي؟ ومَن أحقُّ بالبكاء منّي؟ واللهِ لَوددتُ أنّي ضُربتُ بكل مَسألةٍ أفتيتُ فيها برأيي بسَوْطٍ سَوط، وقد كانت لي السّعةُ فيما سِقْتُ إليه. وليتني لم أُفتِ بالرأي".

وإن دلّ هذا على شيء، فإنما يدلّ على شفافيةٍ في الروح، وقربٍ من الملكوت الأعلى، وإشراقٍ داخليٍّ لا يحظى به إلاّ الراسخون في العلم من أولياء الله والصالحين "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون".

وإذا تدبّرنا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "يبعث الله على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدّد أمر دينها" وجدناه ينطبق انطباقاً كاملاً على الإمام مالك رضي الله عنه، فقد ولد سنة 93 للهجرة، وتوفي سنة 179، فملأ بعلمه وفضله قرناً كاملاً من الزمان، وأخذ عنه العديدُ من العلماءِ والفقهاءِ من المشارقة والمغاربة. وقد حدَّثَ عنه أُمَمٌ لا يكادون يُحْصَوْن، ومع ذلك لم يجلس للفتوى حتى شهد له سبعون من جلّة العلماء بأنه أهل لذلك. ومن شهادات أهل عصره له ما قاله تلميذه الإمام الشافعي: "إذا ذُكر الأئمة (فمالِكٌ) النجمُ الثاقب. وما أحد أَمَنَّ عليّ من مالك". وما كان أحد في زمانه أبرزَ منه ولا أعلمَ، فهو بحقٍّ مبعوثُ هذه الأمة الأولُ بعد رسول الله.

معشر العلماء المبجلين، إنّ حيوية الأمة الإسلامية، وتداخُلَ مجتمعاتها مع غيرها، وتفاعلَها مع حضارات، وثقافات، وديانات، ومذاهبَ كانت إلى أمدٍ قريب تفصلها عنها المسافاتُ المادية والمعنوية، وإنّ التطوراتِ والتغيّراتِ السريعةَ التي طرأت على المجتمع البشريّ في السبعين سنة الماضية، والتي قال عنها أحد المستقبليّين: "بأنّ ما حدث خلالها من تقدُّم يوازي ماحدث في مدى الخمسة آلاف سنة الماضية" كلّ هذا يفرض علينا أسلوباً جديداً في التعامل مع تراثنا الحضاريّ بجميع جوانبه. أسلوباً يُتيح للمسلم والمسلمة أن يندمجا في المجتمع التكنولوجي الذي يعيشان فيه، وينسجما مع هياكل الحضارة الحديثة في إطار من الأخلاق الإسلامية السامية، ودون شعور بالاغتراب والاستلاب، أو بالتناقض والانفصام أو بالدُّونيّة والإثم.

فلتكن ندوتكم هذه فرصةً للبحث عن ذلك الأسلوب، ومناسبةً للتصدّي لهذا التحدي الحضاريّ الجديد، وذلك بدراسة وتحليل قضايا

قضايا العصر واتخاذ مواقف بنّاءة منها على ضوء منهجية الإمام مالك، مواقفَ تتّسم بالإيجابية والإقناع، والانسجام مع عقيدتنا، وبيئتنا وطبائعنا، وتكون امتداداً طبيعياً لتاريخنا، وحضارتنا، وإسهاماً من مفكّرينا في تحسين نوعية العيش، ونماذج السلوك، في مجتمعنا، بل وحتى في المجتمعات الإنسانية الأخرى.

وهذه المواقف يجب أن تكون قابلة للبلورة حتى تصبح بديلاً قوياً، وواضحاً، وجذاباً لما هو مطروح في الأسواق من شعارات أجنبية عنا، أفرزتها ظروف تاريخية واجتماعية لم نعشها، وفي مجتمعات بعيدةٍ كل البعد عن مجتمعنا.

وإنّا على يقين من أنكم ستواجهون هذا التحدّي بإقدام وإيمان، ومن أنكم ستفوزون بهذا الرهان. فكلّ ما تَعُجّ به أسواق الكتب، والصحف، والندوات، وأمواج الأثير من شعارات الحرية، والديمقراطية، والاشتراكية، والعدالة، والمساواة، وحقوق الإنسان، ما هو إلاّ بضاعتنا رُدَّت إلينا مُعَنونةً بشتّى العناوين.

وليست هذه أول مرة يُطالَبُ فيها علماءُ الإسلام بالتّكيُّف بوضع جديد، فقد كان لهذا الوضع في تاريخ أمتنا ما يُوازيه. ولم يكن ذلك أبعدَ كثيراً من عصر إمامنا مالك. فقد جاء بعده من العلماء مَن استخدَموا منهجه وانتهوا إلى غير ما انتهى إليه من نتائج، فكانوا يُعلنون عدم اتفاقهم معه جهاراً بقولهم المشهور: «وإن قالها مالك، فلَسْنا له بمَمالك» ولم يجد أحد في ذلك غضاضةً ولا انتقاصاً من مقام الإمام العظيم. ذلك أنّ روحَ مذهبه قائمةٌ على الاجتهاد فيما لم يَرِدُ في الكتاب أو السنّة أو الأثر. والاجتهاد هو مفتاح المسلمين للتكيّف مع كل تقدّم أو تطوّر فكريّ أو ماديّ في العالم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وحاشا أن يكون التحجّر والجمود من شيَم الاسلام. وهو بريءٌ من كل من يَقِفون في وجه التقدّم باسم الإسلام. فحتّى في عهد الرسول

صلى الله عليه وسلم ، وُجِد من أساء فهمَ الإسلام من ذوي الأمزجة السوداويّة الجامدة ، واعتقدوا أنه جاء للتحريم ، والتضييق ، والترهيب ، فحاجّهم الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز بقوله : " قل مَن حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق " .

ونحن على يقين من أنّ بركة الإمام مالك ستحلّ بينكم ، وتشمل ندوتكم هذه ، وأنكم ستخرجون منها مُوفّقين إن شاء الله ، ومُحَمَّلين بما يملأ مُجلّدات من الأبحاث ، والدراسات ، والاكتشافات ، تضاف إلى تراثه الخالد وتبقى مرجعاً حافلاً لدارسيه ، وشاهداً على فخرنا واعتزازنا بالانتماء إلى مذهبه ، وتشبُّثِنا بمبادئه السامية .

" وقل اعملوا فسيَرى الله عملكم وَرسوله والمومنون " صدق الله العظيم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حرّر بالقصر الملكي بالرباط في يوم الجمعة 9 جمادى الثانية عام 1400 الموافق 25 أبريل سنة 1980 .

خطاب السيد وزير الأوقاف والشؤون الاسلامية في الجلسة الافتتاحية لندوة الامام مالك :

إجماع المغاربة على المذهب المالكي يؤكد تمسكهم بالسنة النبوية الصحيحة

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

حضرات السادة :
السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد ، ففي اطار الاحتفالات ببداية القرن الخامس عشر الهجري وتنفيذا لاوامر صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله ، تنظم وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ندوة الامام مالك بن أنس رضي الله عنه ، ويسعدني ويشرفني في هذا الحفل الافتتاحي ان أرحب بكم متمنيا لكم المقام الطيب وراجيا لكم العمل النافع الخالص لوجه الله فيما ستصرفونه من جهد أثناء انعقاد هذه الندوة .

لقد أصغينا باجلال واحترام للرسالة الملكية السامية التي وجهها جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله الى الندوة على لسان مستشار جلالته الاستاذ أحمد بن سودة .

ويجدر بالندوة ان تعتبر هذه الرسالة الملكية السامية دستورا لها وورقة عمل أساسية لاشغالها لما تحتويه من أفكار اصيلة ومعاني نفيسة ، فهي تدعونا الى رؤيا مستقبلية نتبنى فيها المنهجية في العمل والاسلوب العلمي في التبليغ والايصال تمشيا مع ما تقتضيه الظروف العصرية من استعمال الوسائل التقنية الحديثة وهي سلاح يقوي ساعد المسلم وعقله وتضع المسلمين في المكانة اللائقة بهم بين الامم مع الحفاظ على جوهر الاسلام نقيا خالصا ناصعا .

واني باسمكم لاتوجه بالشكر والامتنان الى صاحب الجلالة حفظه الله على التفاتته الكريمة التي قصد منها اكرام العلم والعلماء ووضع برنامج عمل بين ايديهم ليهتدوا به في أعمالهم وتفكيرهم .

حضرات السادة :

يجدر بنا أن نحتفل بالامام مالك وان نتدارس تراثه وأثره على الامة الاسلامية ، فقد ولد الامام في سنة خمس وتسعين للهجرة . ونشأ في دار الهجرة ، المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، واخذ العلم عن شيوخ من جلة التابعين وكبارهم ، فروى عنهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة ، ومعلوم ان المدينة شهدت من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم اهمها واغزرها تشريعا وفيها عاش جل صحابته رضي الله عنهم ، أخذ التابعون صفات رسول الله وأعماله وتقريراته ، وتكون هي السنة التي تعد المصدر الاول للشريعة بعد القرءان الكريم .

والى جانب هذا كان عمل اهل المدينة وهم اعرف الناس بحياة الرسول عليه السلام وسلوكه وسجلوا كل حركاته وسكناته وما واكب سلوكه من ملابسات ، وهم الامناء الثقات الذين لا يتطرق الشك الى ان اعمالهم كانت تبعا لما تعلموه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت من ثم اجتهاداتهم فيما لم يرد فيه نص صريح اقرب الى الصواب ، خصوصا وان المدينة المنورة لم تبلغها الخلافات التي اندلعت في جهات اخرى من الامة الاسلامية . وهكذا كانت المدينة مهدا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة نقية من الشوائب ، رواها صحبه وعنهم تلامذتهم كبار التابعين والفقهاء ، ومن هؤلاء تفقه الامام مالك ، فقد لازم ابن هرمز عبد الرحمن الاعرج ونافعا مولى ابن عمر ومحمد بن شهاب الزهري وغيرهم حتى اصبح علما من اعلام السنة والفقه يمحص ما يبلغه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وينتقي الثقات من الرواة والشيوخ ، فلا يروي الحديث الا عمن يعلم صدقه وامانته ، وقد قال في هذا المعنى : ان هذا العلم دين فانظروا عمن تاخذون منه . ولقد ادركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الاساطين ، فما اخذت عنهم شيئا ، وان أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان امينا ، الا انهم لم يكونوا من اهل هذا الشان .

وقد ثبت عنه انه كان لا يخوض في تلقي العلم أو تدريسه حتى يستعد لذلك بما يقتضيه مقام العلم وشرف حديث الرسول صلى الله عليه وسلم والمسجد النبوي الذي كان يرتاده طالبا ومعلما ورائدا .

واذا علمنا ان الائمة الثلاثة الذين انتشرت مذاهبهم في جميع اقطار الدنيا : ابو حنيفة النعمان والشافعي واحمد ، اخذوا عنه جميعا حتى ابا حنيفة الذي يكبره سنا ، علمنا السبب الذي جعل المغاربة يختارون علمه مذهبا ويستمسكون به منذ ان وصل اليهم في مطلع القرن الثالث على يد علماء افارقة أخذوا عنه كتابه الموطأ ، امثال علي ابن زياد وعيسى ابن شجرة من تونس وأسد بن الفرات القروي وخلف ابن جرير بن فضالة القروي وعبد العزيز بن يحيى وعبد الله بن عمر بن غانم الرعيني ومحمد بن معاوية الطرابلسي ويحيى بن يحيى الليثي الاندلسي ، وقد ظل المغاربة متمسكين بمذهب مالك طيلة قرون عاملين على اثرائه بما قاموا به من دراسات لنصوصه واستنتاجاته يواجهون بها ما يعرض لهم من قضايا ، ومن ثم اصبح مذهب الامام مالك اغزر مادة في ميدان الافتاء وقواعده التي بنى عليها علماء الفتوى ما استنتجوه من أحكام اصبحت علما مستقلا وضع فيها المتاخرون مؤلفات قيمة لا تزال مراجع للفقهاء ترشدهم وتنير لهم طريق الفهم الصحيح من قواعد القرافي والمقري والونشريسي وغيرهم ، والامام مالك اول من الف كتابا اجتمع شيوخ العلم والحديث على انه أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى حيث يقول الشافعي : ما في الارض كتاب في العلم اكثر صوابا من كتاب مالك ، يقول ايضا ما على الارض كتاب اصح من كتاب مالك ، يقول ايضا ، ما كتب الناس بعد القرءان شيئا هو انفع من موطا مالك .

وقد درس المغاربة المذاهب كلها دراسة فحص وتحليل واحاطوا باصولها وقواعدها وفروعها وتتبعوا سيرة أصحابها الغراء ومناقبهم العديدة ومآثرهم الحميدة فوقع اختيارهم على المذهب القائم على الكتاب والسنة والاجماع والقياس وعمل اهل المدينة والاخذ بالمصالح المرسلة ، وقلدوا الامام الذي انتهت اليه رئاسة الحديث والفقه واعترف له بذلك من كافة الائمة ووجدوا فيه القدوة والمثل الذي يجب احتذاؤه والاقتداء به في التمسك بالكتاب والسنة وما عليه جماعة اهل الحق والسلف الصالح .

ونظروا الى ما اتفق عليه السابقون واللاحقون من زيادة علم مالك وورعه وبعد غوره في الكتاب والسنة فتأكدت لهم ضرورة الاخذ بمذهبه لما بين العلماء من خلاف في جواز تقليد المفضول مع وجود الفاضل .

واذا كان للمغرب ان يعتز في اباء وشمم بذلك الدور الطلائعي الذي لعبه في نشر الاسلام وافشائه وفي حمل راية الجهاد وتأدية واجب الدعوة وبثها في بلاد المعمور وفي مختلف الازمنة والعصور فان له كذلك ان يعتز بأن جعله الله المنطلق الثاني بعد المدينة المنورة لنشر مذهب الامام مالك وتلقي دعوته .

فقد تلقى المغاربة هذا المذهب وكافحوا وجاهدوا تحت رايته والفوا فيه وشرحوا واجادوا فيه وابدعوا ودافعوا عنه وقالوا بأرجحيته على سائر المذاهب .

وللمغاربة كذلك ان يرفعوا رؤوسهم في اعتزاز بأن اعترف لهم دون غير من بلاد المعمور بأنهم قادة الفكر المالكي ورجال دعوته وجمهور مذهبه حتى عد بعضهم من مرجحات المذهب المالكي تمسك المغاربة به للحديث الوارد في تمسكهم بالحق .

وقد استقل المذهب المالكي بالمغاربة فاستقطب مؤلفاتهم ونقولهم وفتاويهم وهيمن على تفكيرهم ، فمنهم من دافع عن صحة الموطأ وجعله في الرتبة الاولى من درجات الصحة ، ومنهم من دافع عن المذهب وارجحيته وترجم لطبقاته ، ومنهم من وضع المختصرات المفيدة ، ومنهم من ألف في أصول المذهب وقواعده .

حضرات السادة :

نعقد هذه الندوة اكبارا للامام مالك واعترافا بفضله على الاسلام والمسلمين ، وهي مناسبة لتحريك همم المتخصصين ليعملوا فيما يستقبل من الايام والسنين على بعث الدراسات الاسلامية في التشريع والحديث والفقه والاحوال الشخصية .

ويجدر بنا جميعا ان نسعى في جهد عام الى انجاح الندوة بالبحوث القيمة وبالمناقشات والندوات .

حضرات السادة :

اشكركم على تلبية الدعوة واكبر فيكم روح التضحية بالوقت النفيس للحضور والمشاركة في البحوث والمناقشات التي ستدور في هذا اللقاء حول حياة امام الائمة وسيرته واصول مذهبه وقواعده وفروعه واعلام مدرسته وما له من خصائص ومميزات .

واني لادعو الله بهذه المناسبة ان يحفظ مولانا امير المؤمنين جلالة الحسن الثاني رائد البعث الاسلامي ومجدد امجاده ويقر عينه بولي عهده الامير المحبوب سيدي محمد وصنوه الامير مولاي رشيد وباقي افراد الاسرة الملكية الكريمة ، كما ادعوه سبحانه وتعالى أن يحفظ الامة الاسلامية من كيد اعدائها وان يحرسها .

والسلام عليكم ورحمة الله .

بحوث ندوة الامام مالك

- « الامام مالك ونظريته في تأصيل عمل أهل المدينة وترجيحه على الحديث الذي لا يصحبه عمل » : للاستاذ الرحالي الفاروق .
- « المذهب المالكي مذهب المغاربة المفضل » : للاستاذ المكي الناصري .
- « الفقه والوحدة المذهبية بين المغرب وصحرائه » : للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله .
- « أثر الامام مالك في تدعيم مكانة السنة النبوية في النهج الفقهي العام » : للدكتور فاروق النبهان .
- « أصول مالك في الموطأ » : للاستاذ عبد الغفور الناصر .
- « أثر الشخصية المغربية في فقه مالك » : للاستاذ محمد حماد الورياغلي .
- « ابن أبي زيد القيرواني » : للاستاذ أحمد سحنون .
- « ذكرى الامام مالك بن انس امام الائمة » : للاستاذ الشاعري الزيتوني .
- « فتاوي النوازل في القضاء المغربي » : للاستاذ رضا الله ابراهيم الالغي .

● « مالك المحدث » : للاستاذ ابراهيم بن الصديق .

● « أبو مروان عبد الملك بن حبيب السالمي » : للاستاذ محمد يسف .

● « القانون المدني الفرنسي مأخوذ من مذهب الامام مالك » : للاستاذ الصديق العلوي .

● « قبس من تاريخ مالك رحمه الله » : للاستاذ عبد السلام جبران المسفيوي .

● « علماء شنقيط » : للاستاذ عبد الكبير العلوي .

● « تاثر القوانين المغربية بالمذهب المالكي » : للاستاذ شبيهنا حمداتي ماء العينين .

● « نافع استاذ مالك » : للدكتور التهامي الراجي الهاشمي .

● « الامام مالك امام دار الهجرة واثره فى الامة الاسلامية » : للاستاذ ابراهيم صالح بن يونس الحسيني .

● « الواقعية فى مذهب الامام مالك » : للاستاذ حسن السائح .

● « أسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره فى المغرب » : للدكتور عباس الجراري .

● « آفاق فقه مالك عبر التاريخ » : للاستاذ محمد صالح .

● « الاستدلال بعمل أهل المدينة عند الامام وموقف الفقهاء منه » : للاستاذ عمر الجيدي .

● « القضاء المغربي فى خواصه » : للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله .

● « سيرة الامام مالك مع الخلفاء » : للدكتور عبد السلام الادغيري .

● « المصالح المرسلة فى المذهب المالكي وبقية المذاهب الاخرى » : للدكتور يوسف الكتاني .

● « المنهجية فى مدرسة مالك بن انس وفى اصول مذهبه » : للاستاذ عبد الكريم التواتي .

● « البينة واثرها فى صياغة مذهبنا المالكي » : للدكتور عبد الله العمراني .

● « نظريات الامام مالك حول العقيدة والعبادات » : للاستاذ محمد الطنجي .

● « الامام مالك وكتابه الموطا » : للاستاذ المهدي الوافي .

الوفود الإسلامية المشاركة
في ندوة الإمام مالك

● المملكة العربية السعودية :

— الدكتور محمد العلوي مالكي .

— الاستاذ أحمد فراج الامين العام لاتحاد اذاعات الدول الاسلامية .

● تونس :

— الدكتور الشيخ الحبيب بلخوجة مفتي الديار التونسية .

— الشيخ محمد الشاذلي النيفر .

● الاردن :

— الدكتور عبيدة محمود .

● الكويت :

— الشيخ عبد الله الشوري .

● السينغــــال :

ــ الشيــخ عبــد الله نيــاس .

ــ السيــد ابراهيــم جــوب .

ــ السيــد الحــاج مالك ســي .

ــ السيــد حســن سيســا .

● النيجــــر :

ــ السيــد عبــد الرحمــان نــوح .

ــ السيــد اســان بوباكــار .

ــ السيــد ديالــو بوباكــار .

ــ السيــد القيمــوم البياقــي .

ــ السيــد سعــدو كلديمــا .

● نجيريــــا :

ــ السيــد ابراهيــم الحسينــي .

ــ السيــد ابــو بكــر كومــي .

الأستاذ عبد الله النوري يتبرع لفائدة طبع بحوث الندوة

● أثناء الجلسة الختامية لندوة الامام مالك بــن انس ،تقدم للمنصة الاستاذ عبد الله النوري من دولة الكويت الشقيقة بمقترح يرمي الى طبع البحــوث القيمة التي القيت في هذه الندوة تعميما للفائدة .

وقد ساهم الاستاذ النوري مشكورا بشيــك بمبلــغ خمسة آلاف دولار (5000 دولار) أي مــا يعادل عشرين الف درهم (20.000 درهم) تقريبا .

وقد قررت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ان تضيف المبلغ الذي شارك به الاستاذ النوري الى المبلغ العام الذي ستكلفه نفقات اخراج هذا العمل الجليل الذي شرع في انجازه بحيث سيتضمن كافة البحوث التي القيت في الندوة المذكورة .

● يصدر قريبا عن وزارة الاوقــاف والشؤون الاسلاميــة كتــاب (ايضــاح المسالــــك في قواعــد فقــه الامــام مالــك) للونشريســي . بدراســة وتقديــم للاستــاذ أحمــد الخطابــي .

في برقية الى جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله من ندوة الامام مالك

أعضاء الندوة يرفعون الى جلالة الملك اقتراحاً بانشاء ندوة علمية دائمة للفقه المالكي

بسم الله الرحمـــن الرحيـــم
والصلاة والسلام على رسول الله وآلـــه وصحبـــه

الـــــــــى

حضرة مولانا أمير المومنين حامي حمى الملـة والدين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أدام الله عزكم ونصركـــم .

السلام على مقامكم العالي بالله ورحمـــة الله تعالى وبركاتـــه .

وبعـــــد :

فبمناسبة انعقاد ندوة الامـــام مالـــك بن انس رضي الله عنه بعاصمة مملكتكم العلميـــة ، يتشرف علماء المغرب والاقطار الاسلاميـــة المشاركـــون فى الندوة بأن يرفعوا الى حضرتكم الساميـــة كامـــل تشكراتهم وموفور امتنانهم على الرسالة الكريمة التي تفضلتم بتوجيهها اليهم يوم افتتاح الندوة والتـــي انشرحت لها الصدور لما تضمنته مـــن توجيهـــات سامية كان لها الاثر الفعال فى نجاح الندوة والتـــي كانت بمثابة نبراس أضاء السبيل لاعضائها وخط لهم منهاج العمل فى اجتماعاتهم التي استغرقت اربعـــة ايام ، احياء لذكرى هذا الامام الجليل وتوثيقا للصلة بين المهتمين بالفقه المالكي فى الاقطار الشقيقة .

وان اعضاء الندوة ليعبرون لمقامكم العالي بالله عن سرورهم وكامل ابتهاجهم للقرار السامـــي الذي اتخذتموه بجعل هذه الندوة مفتوحة لكي تستمر فى اعمالها وتثري نشاطها بدراسات عن شخصيـــة القاضي عياض احد اعلام المذهب المالكي .

كما يرفع اعضاء الندوة الى علـــم جلالتكـــم اقتراحهم لوضع اللبنات الاولى لانشاء « ندوة علمية للفقه المالكي » تستقطب علماء المالكية وغيرهم مـــن فقهاء السنة وكذا اساتذة المعاهد العليا والجامعات الاسلامية المعتنيون بالبحوث الفقهية ودراسة الفقه المالكي خاصة .

وان هذه الحركة الفكرية لمنسجمـــة تمـــام الانسجام مع الخطوات المباركة التي اتخذتها جلالتكم باحداث المجلس الاعلى واكاديمية المملكة المغربية .



فانكم يا امير المومنين صاحب المكرمات الطيبة والمبادرات النيرة الموفقة .

وانتم يا صاحب الجلالة باحيائكم المجد الاسلامي التليد لتعبرون عن اريحتكم الفياضة بتطلعاتكم الكريمة لجمع الكلمة وتوحيد الصف درءا للشكوك والشبهات في هذا الظرف الذي يتطلع فيه المسلمون الى بزوغ قرن جديد ستكونون فيه بحول الله من المجددين لامر هذا الدين .

فجميع اعمالكم موقوفة على خدمة الصالح العام وخدمة العلم ونصرة العروبة والاسلام واعلاء كلمة الله والحفاظ على مقومات الامة الروحية والاخلاقية والحضارية .

وان كافة أعضاء ندوة الامام مالك ليعتبرون انفسهم جنودا مجندين وراءكم للذود عن وحدة الامة في العقيدة والمذهب ووحدتها الترابية المقدسة .

كما يسجلون باعتزاز وافتخار مواقفكم الخالدة لاحقاق حق فلسطين وتحرير القدس الشريف والمسجد الاقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين .

زادكم الله يا مولانا عزا ورفعة ونصرا وتوفيقا وسدد خطاكم وخلد في الصالحات ذكركم واراكم في شعبكم ما يسر وحفظكم في سمو ولي عهدكم الامير المحبوب سيدي محمد وصنوه المولى الرشيد وسائر افراد الاسرة الملكية الكريمة انه سميع مجيب .

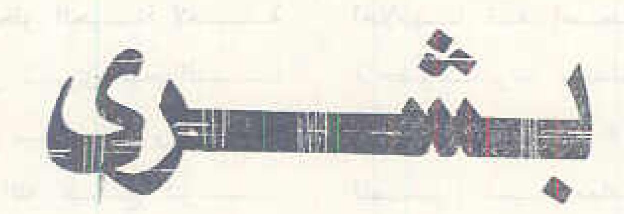
والسلام على مقامكم العالي بالله .

وحرر بفاس في 12 جمادى الثانية 1400 هـ

موافق 28 ابريل 1980 م

توقيع :

« ندوة الامام مالك بن أنس »



للشاعر الأستاذ محمد الحلوي

دقوا الطبول وهللوا تهليلا ... وتطلعوا لغد يضيء جميلا

واستروحوا عطر الحياة رضية ... وتفيأوا ظل الهناء ظليلا

وضعوا على الارض الحذوة وقبلوا ... كثبانها وسهولها تقبيلا

فاليوم يكشف صدرها عن سرها ... واليوم تفتح كنزها المجهولا

واليوم تلقي خير ما القت به ... ارض وتجري بالعطاء سيولا

حملته في احشائها حتى مضت ... حقب وملت ثقلها المحمولا

فرمت به ذهبا وخيرا أسودا ... اثرى البلاد وحقق المأمولا

وكأنما ضنت به لتصونه ... عمن غزاها فانثنى مفلولا

بشرى ومولد امة طماحة ... لغد يدعم مجدها الموصولا

واذا الجهود تضافرت هانت بها ... كل الصعاب وذللت تذليلا

لم تدخر في وسعها جهدا ولا ... يئست فانهت جهدها المبذولا

شعب التحدي منذ كان ولم يزل ... ان قال كان لما يقول فعولا

شق الجبال معابرا ومسالكا ... وكسا السهول جداولا وحقولا

شعب يدين بقيمة العلم الذي ... يبني ويعلي الساعد المفتولا

من قال للتاريخ قف ! فتوقفت　　اقلامه وصفت اليه طويلا
كتبت يد التاريخ عنه ملاحما　　فوق الملاحم صورة وفصولا
هي ارضنا سالت على جنباتها　　ارواحنا ، فتدفقت بترولا !
والارض تفتح قلبها لمحبها　　ولمن يعيش بحبها مشغولا
ولمن يرد العار عن ساحاتها　　ويعيش فيها قاتلا مقتولا
ولمن يفتش في ثرى اعماقها　　متجشما ومكافحا شغيلا
كالغادة الحسناء تمنح وصلها　　للاقوياء وتهجر المشلولا !
حلم ، وكم تحلو الحياة لامة　　احلامها قد اصبحت تمثيلا
بالامس غصنا فى ثرى صحرائنا　　فاخضوضرت وتبدلت تبديلا
ورقت بكنز مياهها وكانها　　من بعد لهفتها تلاقي النيلا !
واليوم باسم الله نفتح كنزنا　　لنصوغ منه معاملا وعقولا
لنسد حاجة عاطل او جاهل　　لنحارب الفقر العدو الغولا !
هي نعمة قد تستحيل لنقمة　　ان لم يجد تدبيرها مسئولا
ما قيمة الثروات ان فاضت　　ولم تنعش فقيرا عاطلا مشلولا ؟!
احرى بهما ان تستغل لمعمل　　او مصنع ، او تنشيء الاسطولا

* * *

بشرى باعظم حادث من عاهل　　جلت مواقفه فكان جليلا
قطع الرباض بيانه لكنها　　اسمى اذا ما استلهم التنزيلا
كالغيث فى خضر الخمائل رحمة　　والسيف فى ساح الوغى مسلولا
ما زال يدعو للهدى جيرانه　　من امعنوا فى اهلنا تنكيلا
ويرد بالحسنى على لطماتهم　　فكانه عيسى اعيد رسولا !
ومن البلايا ان تصيب عداوة　　ويكون خصمك فى العداء جهولا
والحلم مفسدة لمن لعبت بهم　　اهواؤهم وتعودوا التضليلا .
والحزم اسلم فى الخطوب مغبة　　ترجى واقرب للمراد وصولا
والشعب كالاعصار ان يعصف بهم　　ينزل عليهم كالقضاء نزولا
لكنها القربى التي نأسى لها　　ودم العروبة مهدرا مطلولا
ما ذا يريد الشامخون بانفهم　　والساحبون من الغرور ذيولا

من اجحفوا بعهودنا وجوارنا   واسترجعوا عهد القرون الاولى
واستأسدوا فى أرضنا وكأنهم   فى نزهة يتصيلون وعولا !
لا تحسبوا اغضاءنا عن طيشكم   ضعفا ، ولا امهالنا تذليلا
انا لنكره أن نقاتل اخوة   لم يرتضوا غير العداء سبيلا
ونريد سلما لا عداوة بعده   ونريد حبا دائما موصولا
هذي مبادئنا وتلك أصولنا   اكرم بها بين الشعوب أصولا

تطوان : محمد الحلوي

الإمام مالك
ونظريته في تأصيل عمل أهل المدينة

للأستاذ الرحالي الفاروقي

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على الانبياء والمرسلين وعلى الآل والاصحاب كلهم أجمعين .

حضرات السادة العلماء الافاضل ، حياكم الله وبياكم وسلام عاطر بلقاكم ورحمة الله تغشاكم ، وبعد.

فقد كان قام فيما مضى تفكير فى احياء ذكرى من الذكريات الفقهية والمناسبات القومية باسم شخصية اسلامية وعالمية لها ميزاتها الخاصة فى باب الفكر والمعرفة ومقامها المعروف بين الائمة المجتهدين والعلماء الراسخين ولها مذهب سمى وسوى عرف فى انحاء الدنيا بالتمكن من مادة الفقه والحديث وبالاصابة فى القول والعمل الا انه كتب له ان يستقر ويزدهر فى المغرب العربي وعلى الاخص المغرب الاقصى الذي دخل اليه مذهب الامام مالك بن انس رحمه الله فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة على يد ابي ميمونة دراس ابن اسماعيل المعروف بالمحدث .

وها هو المغرب الجديد يشهد الآن فى عهد ملك قوام همام رفع الرايات والبنود واقام السدود والحدود يشهد اقامة مهرجان يتناول فيه علماؤنا الاجلاء اماما من ائمة الدين الحنيف ومجتهدا من مجتهدي الفقه الشريف وعظيما من عظماء الاسلام ومفكرا من المفكرين الاعلام لما يتمتع به هذا الامام من صفة شرعية وصبغة دينية ، ولما يذكرنا به مما تملك من ثروة فقهية وقيمة قانونية تتصل بحياة الناس وتفصل بينهم فى الحياة الدنيا ، ويعتبر هذا المهرجان الكبير من السمو فى منابر التعبير ومناطق التفكير وهو ما يجعله يسير مسيرة عصره ويبحث مع ذلك حياة اهله ، ويبعث اماكن قوتها ونفوذها ومواضع عزها ومجدها فاشكر لهؤلاء الاعيان عنايتهم بهذا المهرجان واستجابتهم للدعوة فى هذا المكان الذي تعتبر دعوته دعوة استيناس واحتفاء ودعوة ارتباط وانتماء واسال الله لنا ولكم ولمن جاء قبلكم او جاء بعدكم قوة الايمان وصحة الارادة واخلاص العمل فى دائرة التعاون على البر والتقوى حتى يتاتى لنا ان نجمع بين روابط الماضي وروابط الحاضر ، من دون ان يلتبس علينا الحق بالباطل ، ومن غير ان يشتبه علينا مفهوم الخير بمفهوم الشر ، وحتى لا تكون بيننا وبين الاسلام قطيعة ولا مسافة بعيدة ، فان الاسلام الصحيح الماخوذ من الكتاب والسنة هو اساس تاريخنا وحضارتنا وقاعدة عزتنا ومكانتنا ، ومن كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، ومن كان يريد القوة فلله القوة جميعا ، وانما يقوم البناء الصحيح على اساس الايمان الصحيح ، وانما تكتسب العزة بالهداية والارشاد ، وبالاعداد والجهاد .

وما اكثر ما نرى من جليل الذكريات وعظيم الاحتفالات ولكن ما احوجنا الى الذكريات العامرة بالقيم والمعاني والمليئة بالاسرار والمثاني . وكذلك الى الرجال الذين تصنع بهم الدنيا وتخضع لهم الاعناق ، بسيرهم على صراط الله لعباد الله ، وجهادهم فى سبيل الله ، واجتماع مثل هذه الصفات وهذه السمات قليل فى الناس كما قال سبحانه وتعالى : « وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، » وقليل ما هم ـ وكما قال : « وقليل من عبادي الشكور » .

والشخصية التي نكرمها اليوم ونجتمع حولها فى هذا المكان وفى غيره من انحاء المغرب هي شخصية الامام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الاصبحي المدني أبو عبد الله المولود سنة 93 والمتوفى سنة 179 فى اصح الاقوال وأرجح الروايات ، وهذه الشخصية التي لها عدة جوانب خصبة ومواهب عذبة ـ تكونت فى ظل البيئة العربية، والثقافة الاسلامية ، وظروف الحياة الطيبة ، فلقد عاش رضي الله عنه فى القرون المثنى عليها بقول النبي صلى الله عليه وسلم : خيركم قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، فهو من السلف الصالحين واتباع التابعين الذين طلع نجمهم واتسع أفقهم وطار صيتهم ، فاتجه الراي العام الاسلامي الى آرائه وافكاره لما امتاز به من الفقه فى الكتاب والسنة ، حتى ضربت اليه ءاباط الابل من كل بلد ، ورجع الشيوخ اليه فى المتن والسند ، كما كان شيخ ائمة المذاهب الذين شرق ذكرهم وغرب فحاز بذلك ثقة الائمة واصبح مثابة وقدوة للامة بما حباه الله به من صفات خلقية ومزايا علمية وصراحة دينية ـ ومن اجل هذه الصراحة تعرض رضي الله عنه للضرب والاذاية فقد كانت الدولة في وقته تاخذ الناس بالطلاق فى البيعة فافتاهم رضي الله عنه بعدم لزوم الطلاق رغم نهيه عن ذلك بل خرج الى الشارع وقال : من عرفني فقد عرفني الخ . وهكذا يكون العلماء لا يخافون فى الله لومة لائم بل يصدعون بأمر الله كما قال الله لنبيه : « فاصدع بما تومر » .

ومن عادته فى مذهبه رضي الله عنه انه يتوسع فى باب الحياة والعادة حتى انه يقول فيها بالمصالح المرسلة ، ويتشدد فى باب الطاعة والعبادة حتى أنه لا يكاد يخرج عن الدلائل الواردة .

ومن لطائف المغرب وخصائصه ان يكون متبوعه عالم المدينة وخادم السنة وامام الائمة كما ان من دلائل ترجيح مذهبه ان يكون اتباعه اهل المغرب الوارد فيهم قوله صلى الله عليه وسلم : (لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) . او كما قال .

ومن تآليف هذا الامام العظيم : رسالته الى الليث بن سعد فى اهل المدينة واجماعهم ، ورسالته الى هارون الرشيد فى الآداب والمواعظ ، ورسالته فى القدر والرد على القدرية ، وتفسيره لغريب القرءان ، وكتابه فى النجوم ومدار الزمان ومنازل القمر ، ومنها غير ذلك الا ان اشهرها ذكرا واعظمها نفعا هو كتابه الموطا الذي كان اول ما ظهر فى القرن الثاني بالمدينة الطيبة واول من جمع بين شرفي الفقه والحديث ، فكان كتابا جامعا لابواب الحياة كلها، وكان مقامه فى الحديث معروفا فى الدنيا باسرها .

ـ ولذلك اعتنى به المسلمون شرقا وغربا وخدموه اجل الخدمات وشرحوه فى أعلى مستويات، واستفادوا منه كل ما يشتهون فى حياتهم الدينية والدنيوية ، ولا سيما المغاربة الذين اكبروه ونصروه ووضعوه فوق رؤوسهم ـ ومن ثم تم له الفضل وحق له ان يتبوأ مكان الصدارة فأحرى مكان المساواة ـ وذلك ان البلاغات والمراسيل التي توجد فيه تساوي المعلقات فى صحيح البخاري ، وكما ان المعلقات توجد متصلة فى مواضع أخرى كذلك المراسيل والبلاغات وجدت متصلة فى أماكن أخرى كما حقق ذلك أبو عمر بن عبد البر وغيره من الحفاظ والنقاد .

ومن بلاغاته فى الاجتماع قوله : بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما من داع يدعو الى هدى الا كان له مثل أجر من اتبعه لا ينقص من أجورهم شيئا ، وما من داع يدعو الى ضلالة الا كان عليه مثل اوزارهم لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا) .

ومن احاديثه فى الاجتماع حديث أم سلمة قالت : قلت يا رسول الله انهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث ، ومصداق هذا قول الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » والفتنة تشمل الفوضى فى الاخلاق التي تنشأ عن ركوب الهوى والمحارم ، والفوضى فى الارزاق التي تترتب على وجود الحيل والمظالم .

وقد دلت هذه النصوص الكريمة على ان طبيعة الاسلام لا تقبل الخبث والفساد ، وان تقوم على العدالة والطهارة ، وان العبرة بالاكثرية لا بالاقل وبطهارة الباطن لا بطهارة الظاهر وان كان الظاهر عنوان الباطن .

ومثل هذه الشخصية التي تطاولت اليها الاعناق ، ورحل اليها الناس من كل الآفاق ، تناولها العلماء بالدراسة واولوها مزيدا من العناية وحللوها بعمق فى البيئة والاجتماع ، وفى السلوك والاخلاق وفى الفكر والاصلاح ، وفى العطاء والانتاج ، كيف وهو من اجل المجتهدين المشهورين بأفكارهم الرشيدة وانظارهم السديدة ، والمعروفين بشدة اتباعهم وتعظيمهم للشريعة المعصومة فى السر والخفاء ، وفى الجهر والضحاء .

وكفاه فضلا وثناء قول السلف الصالح كسفيان ابن عيينة رحمه الله فى الحديث الذي تردد ذكره وتعدد لفظه ، يوشك ان يضرب الناس آباط الابل فى طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة ، انه مالك بن انس .

والناس اكيس من ان يمدحوا رجلا
حتى يروا عنده آثار احسان

قال القاضي عبد الوهاب البغدادي : لا ينازعنا فى هذا الحديث احد من ارباب المذاهب اذ ليس منهم من له امام من أهل المدينة فيقول المراد به امامنا ، ونحن ندعي انه امامنا بشهادة السلف له انه اذا اطلق عالم المدينة او امام دار الهجرة فالمراد به مالك دون غيره من علماء المدينة .

وقال الامام الشعراني رحمه الله تعالى فى الميزان : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم مرة وقال لي عليك بالاطلاع على اقوال امام دار هجرتي والوقوف عندها فانه شهد آثاري .

فامتثلت امره صلى الله عليه وسلم وطالعت الموطأ والمدونة الكبرى ، ثم اختصرتها وميزت فيها المسائل التي تميز بها عن بقية الائمة عملا باشارته صلى الله عيله وسلم ، ورأيته رضي الله عنه يقف عند حد الشريعة لا يكاد يتعداها وعلمت بذلك ان الوقوف على حد ما ورد اولى من الابتداع ولو استحسن فان الشارع قد لا يرضى بتلك الزيادة فى التحريم او في الوجوب . اهـ .

والى ذلك نتناول قضية من أهم القضايا ، ونظرية من اسد النظريات عنده وهي اعتبار استمرار عمل اهل المدينة راجحا ومقدما على غيره من اخبار الاحاد التي لم يصحبها عمل — اذ كان ذلك أصلا من اصول مذهبه ، وقاعدة من قواعده — بيد ان هذا الاصل قد تعرض لكثير من النقد والتعقب ، حتى بلغ احيانا حد الطعن والتعصب ، فمنهم من غاب عن نظره القصد والسدد ، ومنهم من عاب وقال هذا أمر حدد ، وكل نزاع فانما ينشأ عن سوء الفهم او عن سوء القصد ، وكيفما كان الحال فالخلاف طبيعة بشرية لا تقاوم ، ولكنها قد تحاكم .

وقبل ان ناخذ فى عرض القضية وتوضيح مراميها ، وتقديم شواهدها نذكر بشيء من صفات الامام مالك اذ الاخلاق هي أساس العلم والنجاح ، وباب الخير والفلاح .

لقد كان رحمه الله معروفا بالامانة فى الفقه واحكامه ، وبجودة النظر فى مآخذه ومداركه ، وبالحظوة فى معرفة السنن والاثار ، وحفظ سيرة رواة الاخبار ، كما اعتبر ذلك اهل عصره ، واعترف به اهل مصره ، وشاهد ذلك أولا — انه أول من وطأ للناس الحديث ، واول من الف فى تفسير غريب الحديث ، وأول من اشتهر بالجمع بين شرف الفقه وشرف الحديث — وانه اعلى سندا واثبت نظرا واصح بصرا ، وشاهد ذلك ثانيا ان ابا عبد الله البخاري وهو أدرى بعلم الحديث وبأهل الحديث قد ملأ جامعه الصحيح بالرواية عنه — وفى الوقت ذاته لم يرو عن الامام الشافعي والامام ابي حنيفة ولا حديثا واحدا — وليس هذا حطا من قدرهما ولا نقصا

من مرتبتهما حاشا وكلا وانما هو بيان للمواهب ، وتقدير للمناصب ، واما الامام احمد وهو من هو في الحديث فروى عنه حديثين لا غير لانه ادرك شيوخه، واهل الحديث يرغبون دائما في علو السند ، ولا ينزلون عن ذلك الا لغرض .

وقد كان رحمه الله حاملا لصفات العلم ولاخلاق العلماء ، وسالكا سبيل التبين والتثبت في المشكلات، ومتحريا عن الكلام في المعوصات ، وذلك ما سلك به مسلك الاولين ، وجعله يسير على سنن الماضين، يراه الناس أهلا للرئاسة والصدارة ، ويرى هو نفسه دون ذلك ، — تواضعا لربه وهضما لنفسه ، ومن شان العظماء عدم الرضا عن انفسهم ، وقلة النظر الى اعمالهم ، قال مالك رحمه الله ربما وردت على المسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم فقيل له يا ابا عبد الله، والله ما كلامك عند الناس الا نقر في حجر ما تقول شيئا الا تلقوه بالقبول ، قال فمن احق ان يكون هكذا ، الا من كان هكذا ، قال الراوي فرايت في النوم قائلا يقول : مالك معصوم — وقال اني لافكر في مسالة منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لي فيها راى الى الآن وكان اذا سئل عن المسألة قال للسائل انصرف حتى انظر فيها فينصرف ويردد فيها ، فقيل له في ذلك فبكى ، وقال اني اخاف ان يكون لي من المسائل يوم واى يوم — وكان اذا سئل عن مسالة تغير لونه ، ونكس رأسه ، وحرك شفتيه ، قائلا ما شاء الله لا قوة الا بالله — وكان يقول من احب ان يجيب عن مسألة فليعرض نفسه قبل ان يجيب — على الجنة والنار ، وكيف يكون خلاصه في الآخرة — وقال ما شيء اشد علي من ان أسال عن مسالة من الحلال والحرام لان هذا هو القطع في حكم الله ، ولقد أدركت اهل العلم والفقه ببلدنا وان أحدهم اذا سئل عن مسالة كان الموت اشرف عليه ورايت اهل زماننا هذا يشتهون الكلام والفتيا ، ولو وقفوا على ما يصيرون اليه غدا لقللوا من هذا ، وان عمر بن الخطاب وعليا وعامة خيار الصحابة كانت ترد عليهم المسائل وهم خير القرن الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يجمعون اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويسالون ثم حينئذ يفتون ، واهل زماننا هذا قد صار فخرهم الفتيا فبقدر ذلك يفتح لهم من العلم — قال ولم يكن من امر الناس ولا من مضى من سلفنا الذين يقتدى بهم ، ومعول الاسلام عليهم ، ان يقولوا هذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولون انا اكره كذا وارى كذا ، واما « حلال وحرام » فهذا الافتراء على الله « قل ارايتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله اذن لكم ام على الله تفترون » لان الحلال ما حلله الله ورسوله والحرام ما حرماه .

وسال رجل مالكا عن مسالة وذكر انه ارسل فيها من مسيرة ستة اشهر من المغرب فقال له اخبر الذي ارسلك انه لا علم لي بها ، قال ومن يعلمها ، قال من علمه الله ، وساله رجل آخر فلم يجبه فقال يا ابا عبد الله اجبني فقال ويحك تريد ان تجعلني حجة بينك وبين الله فاحتاج انا اولا ان انظر كيف خلاصي ثم أخلصك ، وقد سئل عن ثمان واربعين مسالة فقال في اثنتين وثلاثين منها لا ادري ، وكان يقول في اكثر ما يسال عنه لا ادري ، ويقول اذا اخطأ العالم لا ادري اصيبت مقاتله ، قال عمر بن يزيد فقلت لمالك في ذلك فقال يرجع اهل الشام الى شامهم ، واهل العراق الى عراقهم ، واهل مصر الى مصرهم ، قال فاخبرت الليث بذلك فبكى وقال — مالك والله اقوى من الليث — قال ابو مصعب قال لنا المغيرة تعالوا نجمع كل ما بقي علينا مما نريد ان نسأل عنه مالكا فمكثنا نجمع ذلك وكتبنا ، ووجه به المغيرة اليه وساله الجواب فاجابه في البعض وكتب في الكثير منه لا ادري فقال المغيرة يا قوم لا والله ما رفع الله هذا الرجل الا بالتقوى ، من كان منكم يسال عن هذا فيرضى ان يقول لا أدري — وكان يقول لاصحابه كما رواه عنه صاحبه معن بن عيسى القزاز انما انا بشر اصيب واخطىء فانظروا في رايي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وكل ما لم يوافق ذلك فاتركوه .

هذه جملة القينا بها لتبين ان العلم لا ينمو ولا يسمو الا في قلوب اهل الدين والورع ، ولتتبين بها من يكون من العلماء اولى بالاجتهاد والاتباع ، ولتتخذ ذلك قانونا في سائر العلماء فان هذه الصفات موجودة في سائر هداة الاسلام غير ان بعضهم اشد اتصافا بها من بعض .

ثم انه لا جدال ان كل امام من ائمة الاجتهاد له قواعد معينة ، وتصاميم محددة ، يركزون عليها احكامهم الفقهية ، ودلائلهم النظرية — واذا تاملت منازع الفقهاء ، ومناهجهم في الفقه ، واجتهادهم في الشرع ، وجدت مالكا رحمه الله ناهجا في هذه

القواعد خير المناهج ، وسالكا فيها أفضل المسالك، ومرتبا لمراتبها ومداركها أحسن ترتيب ، مقدما كتاب الله على الاثار ، ثم هي على القياس والاعتبار ، تاركا منها ما لم يتحمله الثقات العارفون بما يحملونه — او ما يحملونه ووجد الجمهور من أهل المدينة قد عملوا بغيره وساروا على خلافه — وهم مركز الاسلام ومواطن الايمان ، واعرف بالتقديم والحديث ، وأولى بالتمسك والتنسك — ولان للمدينة المنورة مزايا وفضائل ماثورة ، ولاهلها مواقف ومقامات مشهورة — وقد تكلم الامام البخاري رحمه الله آخر كتاب الحج من جامعه الصحيح على فضلها ، وتكلم فى آخر كتاب الاعتصام على فضل اهلها ، وترجيح علمهم على علم غيرها ، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : المدينة كالكير تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد ، والخطا فى الدين خبث ، وقوله ان الايمان ليأرز الى المدينة كما تارز الحية الى جحرها ، الى غير ذلك من الاحاديث التي تتكلم عن المدينة وخصائصها ، ومن ذلك ما أسنده البخاري فى المنبر والمد والصاع وغير ذلك مما يدل على تقديم اهل المدينة فى العلم على غيرهم وترجيح ما ذهب اليه الامام مالك رحمه الله .

وقال القاضي عياض فى المدارك — باب فضل علم اهل المدينة وترجيحه على علم غيرهم واقتداء السلف بهم — قال زيد بن ثابت اذا رايت اهل المدينة على شيء فاعلم انه السنة ، قال ابن عمر لو ان الناس اذا وقعت فتنة ردوا الامر الى اهل المدينة لصلح الامر ولكنه اذا نعق ناعق تبعه الناس — قال مالك كان ابن مسعود يسأل بالعراق عن شيء فيقول فيه ، ثم يقدم المدينة فيجد الامر على غير ما قال فاذا رجع لم يحط رحله ، ولم يدخل بيته ، حتى يرجع الى ذلك الرجل فيخبره بذلك ، قال وكان عمر بن عبد العزيز يكتب الى الامصار يعلمهم السنن والفقه ، ويكتب الى المدينة يسالهم عمن مضى ويعلمون بما عندهم ، وكتب الى ابي بكر بن حزم ان يجمع له السنن ويكتب بها اليه فتوفي وقد كتب له ابن حزم كتبا قبل ان يبعث بها اليه ، قال مالك والله ما استوحش سعيد بن المسيب ولا غيره من اهل المدينة لقول قائل من الناس ، وقال عبد الله بن عمر ابن الخطاب — كتب الى عبد الله بن الزبير — وعبد الملك بن مروان كلاهما يدعوني الى المشورة فكتبت اليهما ان كنتما تريدان المشورة فعليكما بدار الهجرة والسنة — وقال رجل لابي بكر بن حزم فى أمر والله ما أدري كيف أصنع فى كذا فقال ابو بكر يا ابن اخي اذا وجدت أهل هذا البلد قد اجمعوا على شيء فلا يكن فى قلبك منه شيء — وقال الامام الشافعي اما أصول اهل المدينة فليس فيها حيلة من صحتها — قال الامام مالك كان ابن سيرين اشبه الناس باهل المدينة فى ناحية ما ياخذ به .

قال مسعود بن كدام قلت لحبيب بن ابي ثابت ايما أعلم بالسنة او بالفقه اهل الحجاز أم أهل العراق قال أهل الحجاز — وقال الشافعي رحمه الله كل حديث ليس له اصل بالمدينة ففيه ضعف .

رسالة الامام مالك الى الليث بن سعد

من مالك بن انس الى الليث بن سعد سلام عليكم فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو اما بعد عصمنا الله واياك بطاعته فى السر والعلانية ، وعافانا واياك من كل مكروه اعلم رحمك الله انه بلغني انك تفتي الناس باشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وببلدنا الذي نحن فيه ، وأنت فى امامتك وفضلك ومنزلتك من اهل بلدك وحاجة من قبلك اليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك ، حقيق بأن تخاف على نفسك وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه — فان الله تعالى يقول : « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار » الآية وقال تعالى : « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه » فانما الناس تبع لاهل المدينة اليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرءان ، وأحل الحلال وحرم الحرام ، اذ رسول الله بين اظهرهم ، يحضرون الوحي والتنزيل ، ويامرهم فيطيعونه ، ويبين لهم فيتبعونه ، حتى توفاه الله واختار له ما عنده صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ثم قام من بعده اتبع الناس له من امته ممن ولي الامر من بعده فما نزل بهم مما علموه انفذوه ، وما لم يكن عندهم فيه علم سالوا عنه ثم اخذوا باقوى ما وجدوا فى ذلك — فى اجتهادهم وحداثة عهدهم — وان خالفهم مخالف او قال امرؤ غيره اقوى منه وأولى ترك قوله وعمل بغيره ، ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل ويتبعون تلك السنن ، فاذا كان الامر بالمدينة ظاهرا معمولا به لم أر لاحد خلافه للذي

فى أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لاحد انتحالها ولا ادعاؤهـــا .

ولو ذهب اهل الامصار يقولون هــذا العمــل ببلدنا ، وهذا الذي مضى عليه من مضى منا لم يكونوا من ذلك على ثقة ؛ ولم يكن لهم من ذلك الذي جــاز لهم ، فانظر رحمك الله فيما كتبت اليك فيه لنفسك واعلم اني أرجو ان لا يكون دعائي الى ما كتبت بــه اليك الا النصيحة لله تعالى وحده . والنظر لــك ، والظن بك ، فانزل كتابي منك منزلته ، فانك ان فعلت تعلم اني لم آلك نصحا وفقنا الله واياك لطاعته وطاعة رسوله فى كل امر وعلى كل حال حال والسلام عليكم ورحمة الله وقد وافقه الليث رحمه الله فى جوابه ، على ما اشار اليه فى كتابه ، وانما تركته اجتنابــا للطول وتقديرا للوقت ، ثم قال فى المدارك « باب ما جاء عن السلف والعلماء فى وجوب الرجوع الى عمل اهل المدينة ، وكونه حجة عندهم وان خالف الاكثر » :

روى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنــه قال على المنبر احرج بالله على رجل روى حديثا العمل بخلافه ـ قال ابن القاسم وابن وهب ـ رايت العمل عند مالك اقوى من الحديث ـ قال مالك وقــد كان رجال من اهل العلم من التابعين يحدثون بالاحاديث وتبلغهم عن غيرهم فيقولون ما نجهل هذا ولكن مضى العمل على غيره .

قال مالك رايت محمد بن ابي بكر بن حزم وكان قاضيا وكان اخوه عبد الله كثير الحديث رجل صدق فسمعت عبد الله اذا قضى محمد بالقضية قد جــاء فيها الحديث مخالفا للقضاء يعاتبه ويقول له الم يات فى هذا حديث كذا فيقول بلى فيقول اخوه فما بالك لا تقضي به فيقول فأين الناس عنه ـ يعني ما أجمع عليه من العلماء بالمدينة ـ يريد أن العمل بها اقوى من الحديث ـ قال ابن المعذل سمعت انسانــا سال ابن الماجشون ـ لم رويتم الحديث ثم تركتموه قال ليعلم اننا على علم تركناه ـ قال ابن مهدي الســنة المتقدمة من سنة اهل المدينة خير من الحديث ـ وقال ربيعة الف عن الف احب الي من واحد عــن واحد ـ قال ابن ابي حازم كان ابو الدرداء رضي الله عنه يسأل فيجيب فيقال انه بلغنا كذا وكذا بخلاف ما قال فيقول وانا قد سمعته ولكني ادركت العمــل على غير ذلك ـ قال ابن ابي الزناد كان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء ويسألهم عن السنن والاقضيــة التي يعمل بها فيثبتها ، وما كان منه لا يعمل به الناس الغاه وان كان مخرجهم من ثقة ، وقال مالك رحمه الله انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة كذا فى نحو كذا وكذا الفا من الصحابة مات منهــم بالمدينة نحو عشرة آلاف وباقيهم تفرق بالبلــدان فايهما احرى ان يتبع ويوخذ بقولهم ـ من مات عندهم النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه الذين ذكرت ـ او مات عندهم واحد او اثنان من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قال عبيد الله بن عبد الكريم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين الف عين تطـــرف انتهــى .

ولقد اشبع القاضي رحمه الله الكلام فى هذه المسالة واطال فى توجيهها والدفاع عن وجوهها ؛ وهي مسالة وان تبناها الامام مالك رحمه الله واقام مذهبه عليها فهي قضية السلــف الصالــح مــن الصحابة والتابعين كما سمعت ورايت وكان الاختلاف فى فهم هذه القضية نشا عن الاختلاف فى القصــد ومن المفهوم ان القصد هو الاجماع او شبه الاجماع الذي لا مجال فيه للراى ـ وهو العمل المستند الى الاصول وقالوا يرجح الخبر على معارضه بعمل اكثر الدليل الشرعي لا مجرد العمل كما صرح بذلك علماء السلف ـ وبعمل اهل المدينة وقد قال الامام مالك ومن ثم كان رحمه الله فى الموطأ ياتي بالاثار عــن الصحابة والتابعين مبينة بها السنن وما يعمل به منها وما لا يعمل به ، وما يقيد به المطلق وما يخصص به العام ، وكثيرا ما تراه يقول فى الموطــا ـ الامــر المجتمع عليه عندنا ـ او السنة التي لا اختلاف فيها عندنا ـ او من السنة كذا ومراده رضي الله عنه بذلك عمل اهل المدينة وليس اتباع عمل المدينة لعصمة اهلها ، وانما ذلك لكونهم اعرف بالوحي وبالمراد منه ، واعرف بالقديم منه والجديد ـ لان المدينة مهبــط الوحي وهم حاضرون فيها وغيرهم غائبون فيكــون ضبط الوحي فيها ايسر واكثر ومن اجل ذلك رجح العلماء والمحدثون الاحاديث الحجازية على الاحاديث العراقية حتى قالوا اذا جاوز الحديث الحرة انقطع نخاعـــه .

وقال ابو اسحاق الشاطبي رحمه الله فى مبحث ترجيح الدليل باستدامة العمل بمقتضاه او بكثرته ـ ما نصه رحمه الله احب الاحاديث الي ما اجتمع عليه الناس ـ

ومن هذا المكان يتطلع الى قصد مالك رحمه الله فى جعله العمل مقدما على الاحاديث ـ اذ كان انما يراعي كل المراعاة العمل المستمر والاكثر ويترك ما سوى ذلك وان جاء فيه أحاديث ، وكان ممن ادرك التابعين وراقب اعمالهم ، وكان العمل المستمر فيهم مأخوذا عن العمل المستمر فى الصحابة ولم يكن مستمـــرا فيهم الا وهو مستمر فى عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم او فى قوة المستمر ـ وقد قيل لمالك ان قوما يقولون ان التشهد فرض فقال اما كان احـــد يعرف التشهد فأشار الى الانكار عليه بان مذهبهـــم كالمبتدع الذي جاء بخلاف ما عليه من تقدم .

وسأله ابو يوسف عن الاذان فقال مالك ومـــا حاجتك الى ذلك فعجبا من فقيه يسأل عن الاذان ، ثم قال له مالك وكيف الاذان عندكم فذكر مذهبهم فيـــه فقال من اين لكم هذا فذكر له ان بلالا لما قدم الشام سألوه ان يؤذن لهم فاذن لهم كما ذكر عنهم ، فقال له مالك ما ادرى ما اذان يوم وما صلاة يوم هذا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده من بعـــده يؤذنون فى حياته وعند قبره وبحضـــرة الخلفـــاء الراشدين من بعده ـ فأشار مالك الى ان ما جـــرى عليه العمل وثبت مستمرا أثبت فى الاتباع واولى ان يرجع اليه ـ وقد بين فى العتبية اصلا لهذا المعنى عظيما يجل موقعه عند من نظر الى مغزاه ـ وذلك انه سئل عن الرجل ياتي اليه الامر يحبه فيسجد للـــه شكرا فقال لا يفعل ، ليس مما مضى من أمر الناس قيل له ان أبا بكر الصديق فيما يذكرون سجد يـــوم اليمامة شكرا أفسمعت ذلك قال ما سمعت ذلك وارى ان كذبوا على أبي بكر وهذا من الضلال ان يسمـــع المرء الشيء فيقول هذا شيء لم نسمع له خلافا ، ثم قال قد فتح على رسول الله صلى الله عليه وسلـــم وعلى المسلمين بعده أفسمعت ان أحدا منهم سجد ـ اذا جاءك مثل هذا مما كان فى الناس وجـــرى على ايديهم لا يسمع عنهم فيه شيء فعليك بذلك ، فانه لو كان لذكر لانه من امر الناس الذي قد كان فيهـــم ـ فهل سمعت ان أحدا منهم سجد فهذا اجمـــاع اذا جاءك الامر لا تعرفه فدعه ، هذا ما قال وهو واضـــح فى ان العمل العام هو المعتمد على اي وجه كان وفى اي محل وقع ولا يلتفت الى قلائل ما نقـــل ولا نوادر الافعال اذا عارضها الامر العام والكثير ـ وسجـــود الشكر ان فرضنا ثبوته عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يداوم عليه مع كثرة البشائر التي توالت والنعـــم التي افرغت عليه ، فلم ينقل عنه مواظبة على ذلك ولا جاء عن عامة الصحابة منه شيء الا فى الندوة مثـــل كعب بن مالك اذ نزلت توبته فكان العمل على وفقـــه تركا للعمل على وفق العامة منهم ـ ومن ذلك حديث الصيام عن الميت فانه لم ينقل استمرار عمل به ولا كثرة ، فان غالب الرواية فيه دائرة على عائشة وابن عباس رضي الله عنهم وهما اول من خالفاه فروى عن عائشة انها سئلت عن امراة وعليها صـــوم فقالـــت اطعموا عنها ـ وعن ابن عباس انه قال لا يصوم احد عـــن أحـــد .

قال مالك ولم أسمع ان احدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن التابعين بالمدينة ـ امروا أحدا ان يصوم عن احد ولا يصلي احد عن احد وانما يفعل ذلك كل احد عن نفســه ـ فهذا اخبـــار بترك العمل دائما فى معظم الصحابة ومن يليهم وهو الذي عول عليه فى المسالة ـ وقد سئل عن سجود القرءان فى المفصل وقيل له أتسجد أنت فيه فقال لا وقيل له انما ذكرنا هذا لك لحديث عمر بن عبـــد العزيز فقال أحب الاحاديث الي ما اجتمع عليه الناس وهذا مما لم يجتمع الناس عليه وانما هو حديث من حديـــث النـــاس .

واعظم من ذلك القرءان ـ يقـــول الله تعالى : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب واخر متشابهات » فالقرءان أعظم خطرا وفيه الناسخ والمنسوخ فكيف بالاحاديث ، وهذا ظاهر فى ان العمل بأحد المتعارضين دليل على انه الناسخ للآخر اذ كانوا انما ياخـــذون بالاحدث فالاحدث من امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عن ابن شهاب الزهري انه قال اعيـــا الفقهاء واعجزهم ان يعرفوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسخه ومنسوخه وهذا صحيح ـ ولما اخذ مالك بما عليه الناس وطرح ما سواه انضبط له الناسخ من المنسوخ على يسر والحمد لله ـ وبسبب ذلك ينبغي للعامل ان يتحرى العمل على وفق الاولين فلا يسامح نفسه فى العمل بالقليل الا عند الحاجـــة ومس الضرورة .

اما لو عمل بالقليل دائما للزمه امور :

1) المخالفة للاولين فى تركهم الدوام عليه وفى مخالفة السلف الصالح ما فيها من الضرر .

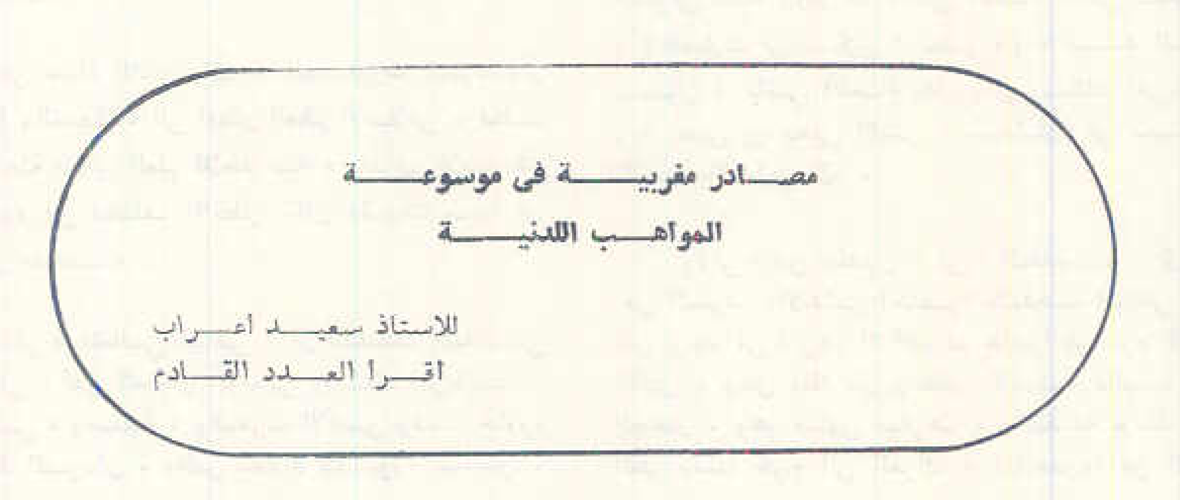
2) واستلزام ترك ما داوموا عليه اذ المفروض انهم داوموا على خلاف هذه الاثار بادامة العمل على موافقة ما لم يداوموا عليه مخالفة لما داوموا عليه .

3) وكون ذلك ذريعة الى اندراس اعلام ما داوموا عليه واشتهاروا ما خالفه والاقتداء بالافعال ابلغ من الاقتداء بالاقوال فالحذر الحذر من مخالفة الاولين فلو كان ثم فضل ما لكان الاولون احق به ، والله المستعان اهـ .

ومن جراء ذلك لم يسمع أهل السنة دعوى الرافضة ان النبي صلى الله عليه وسلم نص على علي رضي الله عنه انه الخليفة بعده لان عمل كافة الصحابة على خلافه دليل على بطلانه او عدم اعتباره — ولان الصحابة لا تجتمع على خطأ وضلال — وكثيرا ما تجد اهل البدع يستدلون بالكتاب والسنة يحملونهما مذاهبهم ويغبرون بمشتبهاتهما في وجوه العامة ويظنون انهم على شيء فما يعمل المتأخرون من هذا الجنس مخالف لاجماع الاولين وكل من خالف اجماع الاولين فهو مخطيء وضال .

وبعد فما ابتناه في هذه الكلمة المتواضعة والموضوعة في تحقيق أصل من أصول المذهب المالكي كاف ان شاء الله في رد الاقاويل وشبه التأويل — ودال على ان مالكا رحمه الله قد الهم السداد وتصرف تصرف الرشاد ، وان ذلك ليس بدعا منه ولا خاصا به وانما هو السنة القائمة ، والعمل الدائم المستمر ، والقول الصادر المتكرر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباعهم، وان ذلك داخل في نطاق الناسخ والمنسوخ — وان الاجماع اكبر من كل شيء ومن اجماع اهل المدينة وذلك هو وجه الحق وعين الصواب والى الله سبحانه المرجع والمآب .

واخيرا نسال الله العلي الاعلى أن تنير هذه الذكرى المالكية معالم الطريق وان يكون لها نجاح ملحوظ واثر محفوظ حتى يقوم الناس لله مثنى وفرادى ثم يتطهروا من الاهواء والافاعيل ويتناصروا اذا هجمت الاهوال والاباطيل ، وشكرا للعلماء واكبارا للعلم الذي ارانا سعادة الدنيا وسعادة الاخرى كما ارانا عجائب الحياة في خلايا الكائنات ودعاء لصاحب الجلالة والمهابة بالنصر والتأييد ولولي عهده بالحفاظ والتسديد .



ابن أبي زيد القيرواني ورسالته

للأستاذ أحمد سحنون

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآلـه وصحبـه أجمعين

مدخـل موضوعـي :

قبل الحديث عن ابن أبي زيد القيرواني ورسالته يجمل بنا ونحن في ندوة للامام مالك أن نشير باختصار الى المذهب المالكي واستقراره بالمغـرب وأهـم مصـادره :

فى حياة الامام مالك ، تجـاوزت شهرته دار الهجرة والحجاز ، الى اقطار العالم الاسلامي ، فكانت اليه رحلة طلاب العلم للاخذ عنه ، وتفرق تلاميـذه ومريدوه فى مختلف الاقطار فكان ذلـك سببا فى انتشار مذهبـه .

ذكر « القاضي عياض » ان المذهب المالكـي غلب على : اهل الحجاز ، ومصر وبـلاد افريقيـا ، والاندلس ، وصقلية ، والمغرب الاقصى ومـا جاوره من بلاد السودان ، وظهر ببغداد ظهـورا كبيـرا ، وضعف بها بعد أربعمائة سنة ، وضعف بالبصرة بعد خمسمائة سنة ، وغلب فى خراسان على قزويـن ، وظهر بنيسابور وكان له بها وبغيرها اتباع وأئمـة ومدرسون ، وكان ببلاد فارس ، وانتشر ببلاد اليمن ، وكثر فى بلاد الشام (1) .

واجتمع للمالكية قضاء عواصـم الاسلام فى القرن الثالث ، فكان « اسماعيـل بن اسحـاق » المتوفى سنة 282 هـ قاضي القضاء الاعلى ببغداد ، و « الحارث بن مسكين » بمصر ، و « عبـد السلام سحنون » قاضي القضاة بالقيروان وممالك افريقيا ، و « يحيى بن يحيى الليثي » مستشارا فى تعييـن القضاة بالاندلس (2) .

وذكر « ابن خلدون » فى (المقدمـة) (3) ان اهل المغرب والاندلس اختصوا بالمذهب المالكي وان كان يوجد فى غيرهم الا انهم لم يقلدوا غيـره الا فى القليل ، وعلل ذلك بأن رحلتهم كانـت غالبـا الى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ، فاقتصروا عن الاخذ

(1) المـدارك 1 / 67 .
(2) الفكـر السامـي 3 / 105 .
(3) ص : 449 .

على علماء المدينة ، وشيخهم وامامهم مالك وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده ، فرجع اليه اهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم طريقتـه .

كما علل ذلك بعلة اخرى ، وهي أن اهل المغرب والاندلس كانت غالبة عليهم البداوة ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق ، فكانوا الى اهل الحجاز اميل لمناسبة البداوة)) .

ثم ضعف مركز المالكيين في عدد من الاقطار الاسلامية ، حيث لقي من المنافسة والمحاربة الشيء الكثير ، وساند الولاة والمسؤولون مذاهب أخرى وركزوها ، ولكنه احتفظ بقوته ونفوذه في المغرب الى اليوم ، ولم تؤثر فيه حملات الفاتحين وما حملوه من مذاهب ، منذ ان ادخله الى المغرب والى فاس « المحدث الفقيه دراس بن اسماعيل » المتوفى سنة 357 هـ (4) .

واختفى بذلك المذهب الحنفي الذي ظهر بفاس قبل ذلك كما نبه عليه القاضي عياض (5) .

ونشير الى أن المذهب المالكي مر في المغرب بفترات عصيبة ، واعتراه فتور في آخر القرن الرابع بسبب جماعة من الشيعة ظهروا بالمغرب والقيروان ، وحملوا الناس على ترك مذهب مالك والسنة ، واصاب العلماء منهم بلاء عظيم .

ثم ما كان من قطيعة الموحدين الذين صرفوا الناس عن كتب المالكية واحرقوها والزموهم بمذهب الظاهرية كما يدل على ذلك كلام المراكشي في المعجب (6) . وسموا ذلك اجتهادا ورجوعا الى الكتاب والسنة ، الى أن اعاد له ولرجاله النفوذ ايام بني مرين ، وانتعش من جديد ، واستمر عمدة القضاة والمفتيين ، الى اليوم .

* * *

تلقى المغرب المصادر الامهات للفقه المالكي ، فوعاها رواية وحفظا ، ثم اتقنها دراية وفقها .

واول هذه المصادر :

(الموطـأ)

وهو اول تدوين في الحديث والفقه ـ فيما نعلم ، والله اعلم . وقد توخى فيه الامام مالك القوى من اهل الحجاز ، ومزجه باقوال الصحابة وفتاوي التابعين ، وبوبه على ابواب الفقه فأحسن التبويب ، واودعه اصول الاحكام من الصحيح المتفق عليه . واستغرق تاليفه وتهذيبه نحو اربعين سنة ، ولم يخرجه حتى عرضه على سبعين عالما من علماء المدينة كلهم وافقوه عليه .

والغى كل ما تعلق به طعن في المتن او السند ، وما لم يقع به عمل الائمة . وتجنب رخص ابن عباس، وتشديدات ابن عمر ، وشواذ ابن مسعود .

وذكر القاضي عياض نقلا عن سليمان بن بلال ان مالكا وضع الموطأ وفيه اربعة آلاف حديث او اكثر ، فمات وهي الف حديث ونيف ، يخلصها عاما عاما بقدر ما يرى انه اصلح للمسلمين وأمثل في الدين . (7) وذكر غيره انه اختاره من اكثر من ذلك (8) .

واقبل الناس عليه لتحريه في النقل ، وانتقاء احاديثه ورجاله ، وحسن نسقه وتبويبه واعترفوا

(4) انظر ترجمته في الفكر السامي 3 / 115 .
(5) المدارك 1 / 65 .
(6) المعجب في اخبار المغرب ص 278 . فقد ذكر المراكشي انه شاهد بنفسه ايام ابي يوسف يعقوب المنصور الموحدي احمالا من امهات المذهب المالكي يؤتي بها وتطلق فيها النار .
(7) المدارك 2 / 73 .
(8) انظر الزرقاني على الموطا 1 / 8 .

لمؤلفه بالامامة فى الحديث والصدق فى الروايـــة . ورحل اليه علماء الاقطار الاسلامية لياخذوه عنـــه . ووصل الموطأ تواترا الى الآفاق فى حياة مؤلفـــه ، وقيل انه أصح كتاب بعد كتاب الله .

قال الشافعي : « ما فى الارض كتاب فى العلم اكثر صوابا من كتاب مالك ، وقال : ما على الارض كتاب أصح من كتاب مالك ، وما كتب الناس بعـــد القرءان شيئا هو انفع من موطأ مالك ، واذا جاء الاثر فى كتاب مالك فهو فى الثريا » (9) .

وطلب اليه أحد خلفاء بني العباس ان يعلـــق كتابه فى الكعبة ، ويفرقه فى الآفاق ويحمل الناس على العمل به ، فلم يوافق على ذلـــك ، واعتـــل بأن الصحابة تفرقوا فى الامصار ورووا احاديث غيـــر احاديث اهل الحجاز التي اعتمدها . وآثر ان يترك للناس حريتهم ، ولم يشأ أن يجعل للسياسة دخلا فى نشر كتابه . وذاعت له مع ذلك شهرة كبيرة ، وكان سببا فى انتشار مذهبه ، واعتنى الناس به شرقـــا وغربا ، كما لعلهم لم يعتنوا بكتاب من كتب الحديث والعلم الاولى ، فقد عد القاضي عيـــاض فى المدارك نحو تسعين رجلا تكلموا عليه وشرحـــوه وعلقـــوا عليـــــه (10) .

واشهر روايات (الموطأ) رواية يحيى بن يحيى الليثي ، وهي نسخة الافارقة والاندلسيين .

وامـــا (المدونـــــة)

فكان لها دور هام فى انتشار المذهب المالكي، واليها كان المرجع فى القضاء والافتاء على المذهب .

واصل المدونة سماعات « أسد بن الفرات » ، المتوفى سنة 213 هـ . واسئلة فقهية مجردة اتـــى بها من العراق ، وذهب بها الى ابن القاسم ـ وكان اعلم الناس بعلم مالك وآمنهم عليه ـ فتلقـــى عنـــه احكامها على مذهب مالك أو مذهبه هو ، وسمع من أشهـــب وغيـــره .

ثم رجع بها الى القيروان ونشرها وكان قاضيا هناك ، واخذت المدونة اذ ذاك اسم (الاسديـــة) نسبة اليه ، ثم اخذها عنه « سحنون » ، وذهب الى مصر سنة 188 هـ واتصل بابن القاسم ، فقرأ عليه مدونة أسد وصححها ، ورجع ابن القاسم عن اشياء منها ، واصلح فيها مسائل ، ثم رجع بها سحنون الى القيروان سنة 191 هـ ، وطلب من أسد ان يصلـــح نسخته ويغيرها وفق ما أتى به . فامتنع من ذلك . وكان هذا ـ على ما قيل ـ سببا فى ترك مدونتـــه (الاسدية) واقبال الناس على (مدونة سحنون) (11).

قال ابن يونس فى جامعه : « ورحل سحنـــون الى ابن القاسم حتى هذب هذه المدونة والمختلطـــة وحصلت أصل علم المالكيين ، وتقدمت على سائـــر الدواوين بعد موطأ الامام مالك رحمه الله ».

* * *

كانت (مدونة سحنون) فى التاليف على مـــا جمعه أسد أولا ، غير مرتبة المسائل ، ولا مرسومة التراجم ، فرتب سحنون اكثرها ، وشرح آراءها ، واحتج لبعض مسائلها بالآثار من روايته من موطأ ابن وهب وغيره . وضم عددا كبيرا من المسائل زيادة على ما كانت عليه الاسدية التي جمعت ستة وثلاثين الف مسألة على ما ذكره ابن فرحون فى ترجمة ابـــن عبد الحكـــم (12) .

واخذت اسم المختلطة أيضا لاختلاط المسائل فى الابواب (13) .

وتيسيرا لتداول (مدونة سحنون) وتقريبـــا للرجوع اليها ، اختصرها « ابن أبي زيد القيرواني » فى كتابه (المختصر) ثم أتى دور « أبي سعيد خلف

(9) انظر شهادات العلماء فى الموطأ . المدارك : 2 / 70 وما بعدهـــا .
(10) المـــــــدارك : 2 / 80 .
(11) انظر معالم الايمان فى ترجمة سحنون : 2 / 49 ـ ومقدمة ابن خلدون ص : 450 .
(12) الديبـــاج ص : 134 .
(13) مقدمـــة ابن خلـــدون ص : 450 .

ابن ابي القاسم الازدي المعروف بالبرادعي » ـ اكبر تلامذة ابن ابي زيد ـ فاعاد ترتيب المختصر على نسق المدونة ، وحذف زيادات ابن ابي زيد ، وهذب مسائله ، فحظي كتابه (التهذيب) بالقبول ، وتوارد عليه الشراح والدارسون من ائمة المالكية بالاندلس والمغرب . وآثروه بالعناية فكان اقرب مرجع في المذهب قبل ظهور مختصر ابن الحاجب الفرعي (14) .

* * *

والى جانب موطأ الامام ، ومدونة سحنون ـ ومختصرها ، وتهذيب البرادعي ـ انتشرت كتب اخرى لتلاميذ ابن القاسم ، عدت من مصادر الفقه المالكي ، واخص بالذكر منها :

(كتاب الواضحة) : لابن حبيب

و (الموازية) : لمحمد بن المواز

و (العتبية) : لمحمد العتبي ، وغيرها من الامهات .

* * *

ورسوخ المذهب المالكي في المغرب ، لم يكن مجرد حمل لامهات مصادره رواية ودراية ، بل تتابع العلماء المغاربة على خدمة المذهب والتصنيف في فقهه ورجاله . وبرز منهم في هذا المجال أعلام كبار ، مشهود لهم بالامامة ، في طليعتهم : الشيخ الامام ابن ابي زيد القيرواني .

عصر ابن ابي زيد :

مع سقوط الدولة الاموية بالشام وقيام الدولة العباسية في العراق ، بدا ظهور دويلات في أقطار المغرب الاسلامي ، مستقلة عن دولة الخلافة ببغداد.

اولاها ، دولة بني أمية بالاندلس سنة 132 هـ.

ودولة الادارسة بالمغرب سنة 172 هـ .

ثم دولة الاغالبة في القيروان سنة 184 هـ وهي التي تتصل بموضوعنا .

قبل الاغالبة ، شهدت القيروان وافريقية عدة حركات ثورية للانفصال عن الدولة العباسية بالمشرق. ثم لما قامت دولة الاغالبة ، عرفت البلاد على عهدهم تقدما علميا ونهضة حضارية ، لكنها لم تنعم بالاستقرار السياسي ، بل عانت من محاولات تمرد على الولاة بعد قرن وبضع عشرة سنة .

وقامت دولة الفاطميين سنة 297 هـ ليبدا صراع مذهبي عنيف بينها وبين الافارقة بعامة والقيروانيين بخاصة ، اذ كانوا اهل سنة يتبعون المذهب المالكي الذي رسخ قواعده فيهم ، امامهم « سحنون » صاحب (المدونة) .

وكان من الطبيعي ان يدخل الفقهاء في صميم ذلك الصراع المذهبي بين الحكام الشيعيين والرعايا السنيين المالكيين ، وأن يأخذوا اماكنهم في قيادة كتائب المجاهدين في سبيل السنة ، المتمردين على الاكراه المذهبي ، فيكون لاولئك الفقهاء حساب خطير في موازين القوى ، يحمل الحكام على مطاردتهم والتنكيل بهم .

ونركز على الحقبة التي عاش فيها فقيه القيروان « ابن ابي زيد » فنقرا في ترجمة شيخه « ابي الفضل عباس الممسي » بمدارك عياض ما ملخصه : ان شيوخ القيروان اتفقوا على الخروج على ملوك اهل الشيعة بني عبيد وقتالهم ، منهم : ابو اسحاق السبائي ، وابو الحسن علي بن سعيد الخراط، وابو العرب محمد التميمي ، وابو الفضل عباس الممسي ، وربيع القطان ، ومروان العابد ، وابراهيم المشني . وقد جندوا الجنود والبنود ثم خرجوا الى

(14) الفكر السامي 4 / 45 ـ وذكر الحجوي انه وقف على نسخة عتيقة من التهذيب ، ذكر البرادعي اولها انه روى المدونة عن ابي بكر محمد بن ابي عقبة عن جبلة بن حمود عن سحنون ، وانه فرغ من تاليفه سنة 372 .
وانظر ابن خلدون في التطورات التي مرت بها المدونة ، وتهذيب البرادعي ، ومختصر ابن الحاجب في المقدمة ص : 450 .

المهدية ، وكانت الهزيمة عليهم ، فاستشهد عالم كثير، فمن الائمة والعباد خمس وثمانون ، منهم : ربيع القطان ، وابو الفضل الممسي . ومن سلم من القتل من العلماء سجن او ضرب : ابو العرب التميمي يسجن مع ولده ويقيدان معا وينكل بهما ، وابو بكر بن اللباد اكبر شيوخ ابن ابي زيد يسجن بدوره ويضرب ويلاقي من المحن الشيء الكثير فى سبيل عقيدته ، وبعد خروجه من السجن يلازم بيته فياتيه تلاميذه ـ ومنهم ابن ابي زيد ـ خفية ويجعلون الكتب فى اوساطهم حتى تبتل بعرقهم .

وغير هؤلاء من العلماء كثير ممن امتحن على يد الفاطميين ، ومع ذلك فلم تنل لهم قناة ، ولم يتخلوا عن عقيدتهم السنية ومذهبهم المالكي ، بل احتملوا تكاليف الجهاد مستبسلين الى أن خرج العبيديون الى مصر ، وخلفتهم فى القيروان وافريقيا ، الدولة الزيرية سنة 362 هـ .

* * *

فى هذه الحقبة التاريخية القاسية ، وعلى هذه الارضية المهتزة بجولات الصراع العنيف بين العقيدة السنية والمذهب الشيعي ، عاش « ابن ابي زيد » وشهد مصرع كثير من شيوخه وامتحان بعضهم بالسجن والتعذيب .

اثرت هذه الاحداث فى حياته ، وفى مؤلفاته التي لم تخرج عن الدفاع عن السنة والذب عن مذهب مالك ، الا أن الروايات لم تذكر شيئا عن دور كان له فى هذا الصراع وهل اصابه شيء من اذى العبيديين، وامتحن كما امتحن غيره من شيوخه ؟

ولعل ذلك يرجع الى انه كان وقت حدة هذا الصراع ما زال فى مرحلة الصبا والشباب ، مشتغلا بالدرس والتحصيل ، فلم يشارك علانية فى حربهم .

نسبه ونشاته :

ابو محمد عبد الله بن ابي زيد عبد الرحمن القيرواني . وقد شك بروكلمان فى تسميته عبد الله، او عبيد الله ، وانما هو عبد الله بن عبد الرحمن ، وقيل فى اسم والده ، بلال بن عبد الرحمن بن اسحاق . ويلقب بالنفزي نسبة الى اسرة من « نفزة » من اعمال الاندلس . وفى هذه النسبة ، ذكر « التتائي » فى (مقدمة شرح الرسالة) انه من نفزاوة قبيلة من قبائل افريقية . وهو ما اخذ به بروكلمان .

وقال الشيخ زروق : (15) واصل نسبته الاصلية وهو النفزاوي لانه من نفزى من بلاد الجريد.

والذي اكده المؤرخ التونسي عثمان الكعاك انه من نفزة الاندلس . وهو ما اخذت به دائرة المعارف الاسلامية .

* * *

ولد بالقيروان سنة 310 هـ على ما ذكر ابن ناجي فى معالم الايمان ، وابن فرحون فى الديباج ، ومخلوف فى شجرة النور الزكية ، حيث نصوا على وفاته سنة 386 هـ عن 76 سنة،وهو ما اخذ به الزركلي فى الاعلام ، (16) ودائرة المعارف الاسلامية (17) ، ورضا كحالة فى معجم المؤلفين (18) .

وذكر الشيخ زروق انه ولد سنة 316 هـ ، فاذا قابلناه على اجماع مؤرخيه بانه صنف رسالته فى الفقه سنة 327 هـ ، كان عمره يومئذ ، على قول زروق ، احدى عشرة سنة ، وهذا بعيد .

وبالقيروان نشا وتربى ودرس ، ولم تذكر لنا المصادر شيئا عن اسرته ولا عن ماضي حياته الاولى، وكيف تلقى دراسته الاولية الا ما هو معروف من طريقة التعليم فى عصره وبيئته ، فحصل القرءان

---

(15) فى مقدمة شرح الرسالة 1 / 5 .
(16) ج 4 ص : 230 .
(17) ج 1 ص : 80 .
(18) ج 6 ص : 73 .

الكريم اولا فى الكتاب ، وكان مؤدبه الشيخ محرز بن خلف ، ثم انتقل الى دراسة علوم الاسلام والعربية . وظهر نبوغه مبكرا حيث تذكر المصادر انه ألف الرسالة سنة 327 هـ وهو اذ ذاك ابن سبع عشرة سنة .

ومعروف ان الرسالة تلخيص للمذهب المالكي ، وفيها اربعة آلاف مسالة واربعمائة حديث ، مما يشهد له بالتفوق العلمي والرسوخ فى فقه المذهب فى هذه السن المبكرة .

شيوخه :

ومثل ذلك النبوغ المبكر فى الفقه ، لا يكون الا عن موهبة نادرة واستعداد فطري ، انضجها جده فى الدرس والتحصيل والنظر ، وتلمذته العلمية لشيوخ من ائمة عصره ، نخص بالذكر منهم من تلقى عنهم وكان لهم أثر واضح فى شخصيته وفقهه .

1 ـ ابو بكر محمد بن محمد بن وشاح المعروف بابن اللباد القيرواني المتوفى سنة 333 هـ (19) وسبق ان اشرت فى الكلام على عصر ابن ابي زيد الى انه من جملة من امتحنوا على يد العبيديين فى سبيل عقيدتهم السنية ومذهبهم المالكي .

ورثاه تلميذه ابن أبي زيد بقصيدة جاء فيها :

يا طول شوقي الى من غاب منظره
وذكره فى جوى الاحشاء قد سكنا

لهفي على ميت ماتت به سبل
قد كان احيا رسوم الدين والسننا

كم محنة طرقته فى الاله فلم
يحزن لذلك اذ فى ربه امتحنا

حتى استنار به الاسلام فى بلد
لولاه مات به الاسلام واندفنا

الفقه حلته والعلم حليته
والدين زينته والله شاهدنا

اب لاصغرنا كفل لاكبرنا
وفى النوازل ملجانا ومفزعنا

2 ـ ابو الفضل العباس بن عيسى الممسي القيرواني قتل فى حرب العبيديين ، قرب المهدية فى رجب سنة 333 هـ ورثاه جماعة من العلماء بقصائد منهم ، ابن ابي زيد (20) .

3 ـ الفقيه ابو عبد الله محمد بن مسرور العسال المتوفى سنة 346 هـ عن 96 سنة (21) .

4 ـ ابو محمد عبد الله بن أبي هاشم بن مسرور التجيبي المعروف بابن الحجام ، توفي محروقا سنة 346 هـ عن 87 سنة (22) .

5 ـ ابو العرب محمد بن احمد بن تميم بن تمام التميمي العالم المؤرخ الاديب ، امتحن فيمن امتحن من العلماء على يد العبيديين وسجن مع ولده مدة . توفي فى ذي القعدة سنة 333 هـ عن ثلاث وثمانين سنة (23) .

6 ـ ابو عثمان سعودن بن احمد الخولاني المتوفى سنة 324 هـ وهو ابن مائة سنة ، صحيح العقل والبصر (24) .

7 ـ الفقيه الاديب ابو القاسم حبيب بن الربيع المتوفى سنة 339 هـ وهو ان نيف وثمانين سنة (25) .

---

(19) ترجم له عياض فى المدارك 5 / 286 ، وابن ناجي فى معالم الايمان 3 / 23 ، وابن فرحون فى الديباج ص : 249 . ومخلوف فى الشجرة الزكية ص 84 . والحجوي فى الفكر السامي 111/3 .

(20) المدارك 5 / 297 . معالم الايمان 3 / 31 ، شجرة النور ص :83 .

(21) معالم الايمان 3 / 73 ، شجرة النور ص: 84 .

(22) المدارك 5 / 330 ، معالم الايمان 3 / 7 ، الديباج 135 ، شجرة النور ص : 85 .

(23) المدارك 5 / 323 ، معالم الايمان 3 / 42 ، الديباج 250 ، شجرة النور ص : 83 ـ 84 .

(24) شجرة النور ص : 82 .

(25) المدارك 5 / 334 ، الديباج ص : 106 .

8 ـ العالم الزاهد ابو الحسن حسن بن محمد ابن حسن الخولاني الكانشي . المتوفى سنة 347 هـ وهو ابن مائة وثمان سنين (26) .

9 ـ ابو العباس عبد الله بن احمد بن ابراهيم ابن اسحاق التونسي المعروف بالابياني . عالم افريقية في وقته ، من حفاظ المذهب المالكي مع ميل الى مذهب الشافعي ، توفي سنة 352 هـ وقد قارب عمره مائة سنة (27) .

10 ـ ابو ميمونة دراس بن اسماعيل الجروي الفاسي اول من ادخل مدونة سحنون الى فاس ، وعنه انتشر المذهب المالكي بالمغرب . توفي سنة 357 هـ ودفن في خارج باب الفتوح بفاس وقبره معروف يزار (28) .

* * *

ومع هؤلاء الشيوخ الذين اتصل بهم واخذ عنهم بالسماع ، جماعة من علماء المشرق اتصل بهم بالمكاتبة ، واجازوه ، منهم :

1 ـ الامام ابو بكر محمد بن عبد الله الابهري المتوفى سنة 395 هـ (29) .

2 ـ ابو اسحاق محمد بن القاسم بن شعبان المصري ، شيخ فقهاء المالكية بمصر في وقته ، توفي في جمادى الاولى سنة 355 هـ وقد جاوز ثمانين سنة (30) .

3 ـ ابو بكر محمد بن احمد بن الجهم المروزي، المتوفى سنة 329 هـ (31) .

* * *

تلاميذه :

مكانة ابن ابي زيد العلمية مع شهرته الواسعة جعلته مقصد طلاب العلم ممن لا يكاد يحصيهم عد . واليه كانت رحلتهم من اقطار المغرب بخاصة ، ومنهم من بلغوا رتبة المشيخة فتفقه بهم جيل من طلاب العلم .

فمن تلاميذه القروانيين :

1 ـ ابو بكر احمد بن عبد الرحمن الخولاني القيرواني شيخ فقهاء القيروان في وقته ، المتوفى سنة 432 هـ (32) .

2 ـ ابو سعيد وابو القاسم خلف بن أبي القاسم الازدي المعروف بالبرادعي (33) ، من حفاظ المذهب المالكي ومن كبار اصحاب ابن ابي زيد وهو صاحب كتاب (التهذيب) .

3 ـ ابو القاسم عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المعروف باللبيدي القيرواني المتوفى سنة 440 هـ (34) .

---

(26) الديباج ص : 104 . شجرة النور ص : 85 .
(27) الديباج ص : 136 . شجرة النور ص : 85 .
(28) ترجم له احمد بابا في النيل ص : 146 ومخلوف في الشجرة ص : 103 ، والحجوي في الفكر السامي 3 / 115 .
(29) ترجم له ابن فرحون في الديباج ص : 255 ، والشيرازي في الطبقات ص : 167 ، ومخلوف في الشجرة ص : 91 ، والحجوي في الفكر السامي 3 / 122 .
(30) ترجم له ابن فرحون في الديباج ص : 248 ،ومخلوف في الشجرة ص : 80
(31) ترجم له ابن فرحون في الديباج ص : 243 ، ومخلوف في الشجرة ص : 78 .
(32) انظر ترجمته في طبقات الفقهاء ص : 161 ، وشجرة النور ص : 107 .
(33) انظر ترجمته في الديباج ص : 112 ، وشجرة النور ص : 105 ، والفكر السامي 4 / 44 .
(34) انظر ترجمته في الديباج ص 152 ، والشجرة ص : 109 ، والفكر السامي 4 / 44 .

4 ـ ابو عبد الله الحسين بن ابي العباس بن عبد الرحمن الاجدابي المتوفى سنة 432 هـ (35) .

5 ـ ابو محمد مكي بن ابي طالب القيسي القيرواني الفقيه المقرىء المتوفى بقرطبة سنة 437 هـ او 39 (36) .

6 ـ ابو عبد الله محمد بن العباس الخواص ، المتوفى بعد عام 426 هـ (37) .

ومن الاندلسيين :

1 ـ ابو بكر محمد بن وهب التجيبي القرطبي المعروف بالمقري . المتوفى بقرطبة سنة 406هـ(38). له شرح على رسالة شيخه ابن ابي زيد .

2 ـ القاضي ابو عبد الله محمد بن يحيى بن احمد بن محمد بن الحذاء التميمي ، المتوفى سنة 410 هـ عن 63 سنة (39) . من مؤلفاته : شرح الموطأ فى ثمانين جزء أسماه (الاستنباط لمعاني السنن والاحكام من احاديث الموطأ) .

3 ـ ابو المطرف عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن القنازعي القرطبي ، المتوفى سنة 415هـ، عن اثنتين وسبعين سنة (40) .

4 ـ الفقيه المفتي ابو عمر احمد بن محمد بن سعدي الاشبيلي المهدوي كان حيا سنة 410 هـ(41).

5 ـ ابو عبد الله محمد بن غالب الهمداني ، المتوفى سنة 434 هـ (42) .

ومن اهل المغرب :

1 ـ ابو عبد الرحمن عبد الرحيم بن احمد ابن العجوز السبتي الفاسي ، المتوفى سنة 413 هـ عن ثلاث وسبعين سنة (43) .

2 ـ ابو بكر خلف بن احمد بن خلف الرهوني الفقيه الطليطلي (44) . لم اقف على وفاته .

ومع ما كان لابن أبي زيد رحمه الله من مكانة علمية ، ورسوخ فى المذهب ، كان مشهودا له بالورع والتقوى ، ونبل السجايا ، مع الزهد وانفاق المال فى البر والاحسان ، فقد ذكروا انه لم تجب عليه زكاة قط رغم ثروته الوافرة لكثرة بذله وعطائه ، وسجلوا له امثلة رائعة فى هذا المجال .

من ذلك انه بعث الى القاضي عبد الوهاب حين بلغه اقلاله بألف دينار ذهبا . وبعث الى الفقيه ابي القاسم ابن شبلون حين كان مريضا بخمسين دينارا ذهبا ، ووصل يحيى بن عبد الله المغربي حين قدم القيروان بمائة وخمسين دينارا ، وجهز ابنة الشيخ ابي الحسن القابسي باربعمائة دينار ، الى غير ذلك من مكارمه ومزاياه (45) .

* * *

وفاته :

توفى رحمه الله زوال يوم الاثنين 30 شعبان عام 386 هـ على ما ذكره القاضي عياض فى المدارك ،

---

(35) معالم الايمان 3 / 212 ، شجرة النور ص : 98 .
(36) معالم الايمان 3 / 213 ، شجرة النور ص : 107 .
(37) معالم الايمان 3 / 212 .
(38) انظر ترجمته فى الديباج 271 ، وشجرة النور 111 ، وسماه فيها : التميمي .
(39) انظر ترجمته فى الديباج 272 ، وشجرة النور 112 ، وفيه انه توفي سنة 416 هـ .
(40) انظر ترجمته فى الديباج 152 ، وشجرة النور 111 .
(41) انظر ترجمته فى شجرة النور ص : 106 .
(42) انظر ترجمته فى شجرة النور ص : 114 .
(43) الديباج ص : 153 . شجرة النور ص : 115.
(44) الديباج ص : 113 .
(45) انظر معالم الايمان فقد ذكر عدة قصص من جوده وكرمه ج 3 ص : 141 .

وابن ناجي في معالم الايمان . وكانت وفاته بالقيروان خلافا لما ادعاه بروكلمان من انه توفي بمدينة فاس .

وشيعت جنازته يوم الثلاثاء الموالي ليوم وفاته في محفل رهيب حضره اعيان البلد ووجهاؤها وعامة الناس في خلق لا يحصون . وصلى عليه الشيخ أبو الحسن القابسي بالريحانة ، ودفن بداره وقبره معروف الى الآن بداره يزوره الناس .

ورثاه كثير من أدباء عصره بمراث كثيرة منها قصيدة لابن الخواص قال فيها :

هذا لعمر الله اول مصرع
ترزا به الدنيا وآخر مصرع

كادت تميد الأرض خاشعة الربى
وتمور أفلاك النجوم الطلع

ومنها قصيدة لابي زكرياء يحيى بن علي الفقيه الشقراطي جاء فيها :

خطب الم فعم السهل والجبلا
وحادث حل انسى الحادث الجللا ؟

ناع نعى ابن أبي زيد فقلت له
اشمسنا كسفت أم بدرنا افلا ؟

أم مادت الارض وارتجت بساكنها
أم الحمام بعبد الله قد نزلا ؟

فان يكن صدرنا حام الحمام به
فالصدر صاد ومن نار الاسى شعلا ؟

رزية عظمت اتراحها افلا
ابكى وهل سلوة والبدر قد افلا ؟

ومنها قصيدة لابي علي بن سفيان قال فيها :

غصت فجاج الارض حتى ما ترى
أرض ولا علم ولا بطحاء

ما زلت تقدم جمعهم هديا لهم
في موكب حفت بن النجباء

مكانتــه وتراثــه :

يعتد في وزن الرجال وتقدير مكانتهم العلمية ، بشهادة العلماء لهم وآرائهم فيهم مما جعل نقد الرجال ، وبخاصة في رواية الحديث والفقه ، علما له شأنه الخطير في تاريخ الاسلام العلمي ، وله رجاله المتخصصون الخبراء ، وكتبه المعتمدة . وانقل من شهادات العلماء لفقهاء القيروان :

— قول الشيخ ابي الحسن القابسي : « كان ابو محمد اماما مؤيدا موثوقا به في دراسته وروايته » (46) .

— وقال أبو الحسن علي بن عبد الله القطان: «ما قلدت ابا محمد حتى رايت السبائي يقلده» (47).

— وقال القاضي عياض : « كان امام المالكية في وقته ، وقدوتهم ، وجامع مذهب مالك وشارح اقواله ، وكان واسع العلم والحفظ والرواية ، كتبه تشهد له بذلك ، فصيح اللسان ذا بيان ومعرفة بما يقوله ، ذابا عن مذهب مالك ، قائما بالحجة عليه ، بصيرا بالرد على أهل الاهواء ، يقول الشعر ويجيده ، ويجمع الى ذلك صلاحا تاما وورعا وعفة . وحاز رياسة الدين والدنيا ، وهو الذي لخص المذهب وضم نشره وذب عنه وملات البلاد تواليفه ، عارض كثير من الناس اكثرها فلم يبلغوا مداه مع فضل السبق وصعوبة المبدأ ، وعرف قدره الاكابر» (48) .

— وقال الشيخ الدباغ : « كان من أهل العلم والعبادة والورع والفضل والاحسان بالمحل الاعلى ، انتشرت امامته في العلم شرقا وغربا ، وظهرت فضائله وفواضله بعدا وقربا ، واحد الزمان جلالة وعلما ، فريد العصر عقلا وفهما » (49) .

---

(46) معالم الايمان 1 / 136 ، والديباج ص : 136.
(47) نفس المصادر السالفة .
(48) المدارك .
(49) معالم الايمان 3 / 136 .

ــــ وقال الحجوي : يعتبر من الطبقة العالية من المؤلفين ، وعندي أنه احق من يصـــدق عليـــه حديث : « يبعث الله لهذه الامة على راس كل مائـــة سنة من يجدد لها أمر دينها » (50) .

ويقال : لـــولا الشيخـــان ، والمحمـــدان ، والقاضيان ، لذهب المذهب . فالشيخـــان : أبـــو محمد بن أبي زيد ، وابو بكر الابهري . والمحمدان : محمد بن سحنون ، ومحمد بن المواز . والقاضيان : ابو محمد عبد الوهاب ، وابو الحسن بن القصار » .

هذا بعض من كثير مما قيل فى الثناء عليه ، وفى التعريف بشخصيته وسجاياه ومكانته العلمية ، ومعها شهادة تراثه العلمي السخي المبارك ، الـــذي بلـــغ ــ فيما راجعت من مصادر ــ حوالي اربعين مصنفا اكثرها فى الفقه ، وان اتسع مجال نشاطه فالف فى اصول التوحيد والقرءان ، وفى الرد على المارقين ، وعلى المخالفين للسنة ، وفى المواعظ وغيرها .

ومن اسف ان اكثر هذا التراث الجـــم قـــد ضاع ، لم يبق منه ــ فيما راجعت من مظان ــ سوى ثمانية كتب ، المطبوع منها واحد فحسب ، والباقي ما يزال مدفونا فى خزائن المخطوطات بالمغـــرب ، واوروبا وتركيـــا .

ــــ المطبـــوع هو (الرسالة) .

ــــ والمخطوطات ، اثنان منهـــا ذكرتهمـــا (دائرة المعارف الاسلامية) (51) وقالت انه لم يبق من مؤلفاته الثلاثين التي تنسبها اليه كتاب سيرته الا (الرسالة) وهذان المخطوطان :

1 ــ مجموعة احاديـــث توجـــد بالمتحـــف البريطاني اول 888 . رقم 8 ولعلها جزء من كتـــاب الجامع فى السنن والآداب لان بروكلمان سماها : السنـــن .

2 ــ قصيدة فى مدح النبي صلى الله عليـــه وسلم . وتوجد بنفس المتحف تحت عدد : 1617 . اضاف اليهما بروكلمان : (52)

3 ــ العقيدة ، وهي رسالة فى الكلام مـــع شرح لها لاحمد بن عيسى البرنسي ، توجد بمكتبـــة يني تحت رقم 744 . ولعلها جزء مـــن شرح زروق للرسالة لان له شرحين عليها طبع أحدهما مع شرح ابن ناجي ، ولم يذكر مترجموه أن له شرحا مستقلا على توحيد الرسالة .

4 ــ الجامع فى السنن والآداب فى الســـرق ، وجد بخزانة القرويين بفاس تحت رقم : 1154 .

5 ــ كتاب النوادر ، توجد منـــه نسختـــان بخزانة القرويين بفاس ، الاول تحت رقـــم : 841 ، اوله ما يجوز فى المساقاة ، والثاني تحت رقم : 901، اوله كتـــاب الايمـــان .

6 ــ جملة مختصرة من واجب امور الديانة ، اورد ذكره المستشرق الاسباني كازيرى (ج 78/1). والغالب ان هذه قطعة من الرسالة لانها هي التي تكلم فيها على جملة مختصرة من أمور الديانات .

7 ــ احكام المعلمين والمتعلمين ، ذكره ابن خلدون فى المقدمة (53) ، ونقل عنه فى الفصـــل المتعلق بالنهي عن الشدة فى تعليم المتعلمين .

واضيف الى ما ذكره بروكلمـــان ما جـــاء فى برنامج مكتبة القرويين من وجود أجزاء اخرى مـــن كتاب النوادر وهـــي :

1 ــ نسخة رقم : 886 اولها : فى الحالـــف ان لا ياكـــل .

2 ــ نسخة رقم : 787 اولها : ذكر ما يجوز فيه البذل بالطعـــام .

---

(50) الفكـــر السامـــي 3 / 120 .
(51) ج 1 ص : 80 .
(52) فى كتابه تاريخ الادب العربي 3 / 289 .
(53) ص : 540 ، ومن خلال الفقرات التي نقلها ابن خلدون عنه ، نتعرف على نظريـــة ابن ابي زيـــد فى ميدان التربيـــة والتعليـــم .

3 ـ نسخة رقم : 788 اولها : امان العبد والمراة والصبي .

4 ـ نسخة رقم : 789 اولها : كتاب الولاء .

كما توجد قطعة فريدة من (كتاب النوادر) في موضوع الاقرار ، وقع الفراغ من مقابلتها بنسخة المؤلف سنة 383 هـ . وهي من الذخائر العريقة في الاصالة والقدم ، كتب في حياة مؤلفها ، وتعتبر من نوادر المخطوطات بمكتبة القرويين .

ووقفت بالخزانة العامة بالرباط على ثلاثة اجزاء منه تحت الارقام الآتية : 1731 د ـ 425 ق ـ 695 ق .وبالخزانة الملكية على جزء تحت رقم :5050.

8 ـ كما وقفت بالخزانة العامة على نسخة من (الكتاب الجامع في السنن والآداب والحكم والمغازي والتاريخ) رقمه : 1781 د .

وهو كتاب اضافه الى (مختصر المدونة) واقتبسه من السماعات عن مالك ومن الموطأ وغيره من الكتب .

* * *

وفيما عدا هذه الكتب التي بقيت من تراث « ابن ابي زيد » لا ادري عن مصنفاته الضائعة الا ما قرات من اسمائها في الفهارس وكتب الطبقات .

وهذه هي :

1) كتاب تهذيب العتبية .
2) كتاب الاقتداء باهل المدينة .
3) كتاب عن مذهب مالك .
4) كتاب تفسير أوقات الصلاة .
5) كتاب في فضل قيام رمضان والاعتكاف .
6) رسالة اعطاء القرابة من الزكاة .
7) كتاب المناسك .
8) مسالة الحبس على اولاد الاعيان .
9) كتاب التنبيه على القول في أولاد المرتدين
10) كتاب رد السائل .
11) رسالة في اصول التوحيد .
12) كتاب الثقة بالله والتوكل على الله .
13) كتاب المعرفة واليقين .
14) كتاب المضمون من الرزق .
15) كتاب البيان في اعجاز القرءان .
16) رسالة الى اهل سجلماسة في تلاوة القرءان .
17) رسالة فيمن تأخذه عند تلاوة القرءان والذكر حركة .
18) رسالة في النهي عن الجدل .
19) كتاب حماية عرض المومن .
20) كتاب رد الخاطر من الوسواس .
21) كتاب الاستظهار في الرد على الفكرية .
22) كتاب كشف التلبيس في مثله .
23) رسالة في الرد على القدرية ومناقضة رسالة البغدادي المعتزلي .
24) رسالة في الرد على ابي ميسرة المارق.
25) رسالة طلب العلم .
26) رسالة الموعظة والنصيحة .
27) رسالة الموعظة الحسنة لاهل الصدق .
28) رسالة وعظ ، وعظ بها محمد بن الطاهر القائد .
29) كتاب التبويب المستخرج .

ومما يلاحظ ان في المخطوطات التي وجدت له والمشار اليها سابقا ما ليس مذكورا هنا ، كأحكام المعلمين والمتعلمين الذي ذكره ابن خلدون .

وجملة مختصرة من واجب امور الديانات التي ذكرها المستشرق الاسباني كازيرى ، والعقيدة التي شرحها احمد زروق ، وذكر بروكلمان وجودها بمكتبة ينى .

وبذلك تكون مؤلفاته قاربت الاربعين لا ثلاثين كما في دائرة المعارف الاسلامية .

* * *

واهم مؤلفاته على الاطلاق هو كتاب النوادر والزيادات على المدونة وضعه في مائة جزء وقيل فيه : انه اجمع كتاب في المذهب ، لانه اشتمل على جميع اقوال المذاهب وفرع الامهات كلها في هذا

الكتاب كما قال ابن خلدون ، (54) ونقل ابن يونس معظمه فى كتابه « الجامع » على المدونة وعليه كان المعول فى التفقه ، الا انه لم تبق من اجزائه المائة الا نسخ متفرقة هنا وهناك كما راينا .

واما المختصر ــ وهو من أهم مؤلفاته أيضا ،لانه يحتوي على خمسين مسالة كما قال ابن النديم ــ (55) فلم يبق منه الا القطعة المشتملة على كتاب الجامع فى السنن والادب التي أشرت اليها .

ــ الرسالة ــ

ان يكن أكثر التراث العلمي لابن ابي زيد قد ضاع فى غيابة الزمن ، والذي سلم منه من الضياع ما يزال معطلا فى خزائن المخطوطات بالشرق والغرب ، فان كتابه الفرد الذي طبع ، كان حسبه عطاء ومثوبة وأجرا . فما اعلم كتابا فى الفقه المالكي بعد (الموطأ ، والمدونة) حظي بمثل ما حظيت به (رسالة ابن ابي زيد) من قبول وعناية وشهرة وانتشار فى الآفاق ، وعمق أثره فى خدمة فقه المذهب ونفع الاجيال من طلابه على امتداد الزمان والمكان .

كتب الشيخ الفقيه أبو العباس القلشاني المتوفى سنة 863 هـ فى مقدمة شرحه لها :

« اشتهرت اشتهار النهار ، وشاعت فى جميع الاقطار ، وتلقاها الناس بالقبول فى سائر الاعصار ، وظهرت بركتها ويمنها على من اشتغل بها من الكبار والصغار ، ولهذا يقال : ان من حفظها واعتنى بها وهبه الله تعالى ثلاثا أو واحدة من الثلاث : العلم ، والصلاح ، والمال الطيب ، لم تسمح القرائح بمثالها ، ولم ينسج ناسج على منوالها ، وكثرت بذلك الاوضاع عليها » .

وقال الشيخ الدباغ فى (معالم الايمان) :

« اشتهرت (الرسالة) فى سائر بلاد المسلمين حتى بلغت العراق واليمن والحجاز ، والشام ، ومصر وبلاد النوبة ، وصقلية وجميع بلاد افريقيا والاندلس والمغرب وبلاد السودان ، وتنافس الناس فى اقتنائها حتى كتبت بالذهب ، واول نسخة منها بيعت ببغداد فى حلقة ابي بكر الابهري بعشرين دينارا ذهبا » (56) .

* * *

ومقدمة « ابن ابي زيد » لرسالته ، تكفي هنا للتعريف العام بأبوابها ومقاصدها ، قال : « أما بعد : من شرائعه فانك سالتني ان أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانات مما تنطق به الالسن ، اعاننا الله واياك على رعاية ودائعه ، وحفظ ما أودعنا وتعتقده الافئدة ، وتعمله الجوارح ، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها ، وشيء من الآداب منها ، وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الامام مالك بن أنس وطريقته مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين ، وبيان المتفقهين لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرءان ليسبق الى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته، وتحمد لهم عاقبته ، فأجبتك الى ذلك لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علم دين الله او دعا اليه » .

واختلف فيمن ساله ذلك ، فقيل : الشيخ ابو اسحاق السبائي . وقيل : الشيخ المؤلف محرز بن خلف . وهو ما صح عند ابن ناجي ، قال : « وهذا هو الصحيح عندي لان قول الشيخ ابي محمد : كما تعلمهم حروف القرءان يدل على ذلك لانني لا اعلم احدا من تعرض الى مناقب ابي اسحاق السبائي ، ذكر انه كان مؤدبا ، ولا يقال : لا مانع ان يكون سالاه معا واسعفهما لان افراد الضمير فى قوله : « واياك» بابـاه » (57) .

وفى كل حال ، فالمقدمة صريحة الدلالة على أن ابن ابي زيد لم يتجه الى تصنيف الرسالة من تلقاء نفسه ، بل ساله احد شيوخه ان يفعل . وسبقت الاشارة الى ما اجمعت عليه المصادر من ان ابي زيد

(54) المقدمة ص : 450 .
(55) فهرست ابن النديم ص : 297 .
(56) معالم الايمان 3 / 137 .
(57) معالم الايمان 3 / 138 .

كتب رسالته سنة 327 هـ ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، على ادنى القولين في تاريـخ مولـده . فسؤال شيخه ــ وهو اعرف بتلاميذه ــ شاهد على ان ابن ابي زيد كان في صباه الغض ، موضع الثقـة والرجاء من شيخه ، واهلا لان يندب لهـذا العمـل الجليل الذي لا عهد لتاريخ الفقه ــ واتحرج من القول: لتاريخ العلم ــ بأن ينهض بمثله شاب لم يتم العقـد الثاني من عمره .

ولم تكد الرسالة تخرج الى النـاس ، حتـى تلقاها فقهاء وقته بالرضى والتقدير . فشهد ذلـك بأن الشاب كان عند حسن راي شيخه فيه ، وانـه نهض بما ندب له ، بكفاية واقتدار .

ذكر ابن ناجي انه لما فرغ من تاليفها كتب منها نسختين وبعث بواحدة الى ابي بكر الابهري ببغداد فاظهر الفرح بها واشاع خبرها بين الناس واثنى عليها وعلى مؤلفها ، وامر ببيعها ليحسن بثمنها الى الواصل بها ، فبيعت بمائتي دينار دراهم . فقال : لا تباع الا وزنا بوزن ، فجاء وزنها ثلاثمائة دينار ونيفا . وبعث بالثانية الى ابي بكر بن ابي زرب بقرطبة فاخفاها واخذ في تاليف (كتاب الخصال) عوضها ثم اظهرها بعد ذلـــك .

وكتب ابن ابي زيد الى ابي بكر الابهري يخبره بما فعل ابن زرب فراجعه الابهري بابيات يقول فيها :

اعجب ما في الامـور عنـدي
اظهـار ما تدعـي القلـوب

تـابـى نـفـوس قـــوم
ومـا لهـم عنـدهـم ذنـوب

وتصافـي انـفـس نفـوسا
وما لهم عندهـم عيـوب (58)

مـا ذاك الا المضمـرات
يعلمهـا الشاهـد الرقيـب

ثم تعاقبت عصور ، وهذه (الرسالة) موضع التقدير والاهتمام ، واعتنى بشرحها والتعليق عليها عدد كبير من العلماء في الشرق والغرب . فكانت هذه العناية البالغة ، تزكية لراى الشيخ في الفقيه الشاب، وتاييدا لشهادة فقهاء وقته لها .

من هؤلاء العلماء الذين عنوا بشرحها والتعليق عليهـا :

1) تلميذه ابو بكر محمد بن موهب القرطبي المعروف بالمقيري ، المتوفى سنة 406 هـ (59) ، له شرح على رسالة شيخه ذكره مترجمـوه ولـم اقـف عليـه .

2) القاضي ابو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المتوفى سنة 422 هـ (60) .

ذكر القلشاني في مقدمة شرحه ان القاضي عبد الوهاب اول شارح للرسالة . وذكر ابن ناجـي في (معالم الايمان) ان شرح القاضي عبد الوهاب يقع في نحو الف ورقـة ، واول نسخـة مـن هـذا الشرح بيعت بمائة مثقال ذهبا (61) الا اني لم اقف عليه ولم يذكره بروكلمان فيما ذكـره مـن شروح الرسالـــة .

وقد مدح القاضي عبد الوهاب الرسالـة في ابيات قال فيهـا :

رسالة علم صافها العلم النهـد
قد اجتمعت فيها الفرائض والزهد

اصول اضاءت بالهدى فكانمـا
بدا لعيون الناظرين بها الرشـد

وفي صدرها علم الديانة واضـح
وآداب خير الخلق ليس لها نـد

لقد ام بانيهـا السداد فذكـره
بها خالد ما حج واعتمر الوفـد

(58) كذا في معالم الايمان ، وفي المدارك : وما لها عندهـا نصيـب .
(59) سبـق التعريـف بـه .
(60) الديباج : 159 ، الفكر السامي : 4 / 39 ، شجـرة النـور : 103 .
(61) معالـم الايمان : 3 / 140 .

3) القاضي ابو الحسن علي بن محمد عبد الحق الزرويلي المعروف بالصغير المتوفى سنة 719 هـ (62) .

قيدت عنه تقاييد على الرسالة قيدها عنه تلاميذه وابرزها تاليفا .

4) ابو زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي المتوفى سنة 741 هـ (63) له تقاييد على الرسالة جمعها بعض تلاميذه . توجد نسخ منها بخزانة القرويين ، وذكر بروكلمان وجود نسخ منها بميونيخ، والمتحف البريطاني ، والجزائر .

5) ابو سالم ابراهيم بن عبد الرحمن بن ابي بكر المتولي من أهل تيزى ، ويعرف بابن ابي يحيى .

توفي سنة 748 هـ له شرح على الرسالة عظيم الفائدة كما قال ابن فرحون (64). لم يذكره بروكلمان.

6) ابو الحجاج يوسف بن عمر الانفاسي المتوفى سنة 761 هـ (65) . توجد نسخ من شرحه بخزانة جامعة القرويين احداها وقع الفراغ من نسخها سنة 947 هـ .

كما توجد نسخة منه بميونيخ برقم 347 ، في فهارس المخطوطات العربية بخزانتها ، والمتحف البريطاني برقم : 164 ، والاسكوريال برقم : 1059 حسبما ذكره بروكلمان .

7) علي بن يوسف البلوي الشبيبي المتوفى سنة 782 هـ . ذكر بروكلمان أنه توجد نسخة من شرحه بمكتبة جامع الزيتونة بتونس . وبالاسكندرية.

8) ابو الفضل قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي القيرواني (66) المتوفى سنة 838 هـ له شرح على الرسالة مطبوع (67) متداول .

وانقل هنا عبارة لابن ناجي ، تشهد بمدى حرصه على انجاز شرحه على الرسالة قبل أن يحين اجله . وذلك في ظروف صعبة ومحنة قاسية ، يشغل مثلها عن درس وشرح وتاليف . قال في (معالم الايمان) : « وكنت نويت في صغرى ان كان مني شيء أن أصنع على الرسالة تأليفا فوفقني الله الى ذلك فألفته وانا بتونس في حال القراءة بها ، وفرغت منه في زمن قريب خشية حضور أجلي اذ الفته في زمن الوباء ، ووصل الموت وانا اؤلف منه ثلاثمائة كل يوم ، فاذا وجدت في هذا التاليف بعض تقصير مني في حفظ المذهب فطالعه في شرح التهذيب تجده على أكمل وجه » (68) .

9) ابو العباس احمد بن محمد بن عبد الله القلشاني (69) المتوفى سنة 863 هـ له شرح سماه « تحرير المقالة في شرح الرسالة » . توجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط في جزئين تحت رقم : 841 د و 152 د ، فرغ من تأليفه في 29 صفر سنة 821 هـ .

كما توجد نسخة في جزئين بمكتبة تطوان تحت رقم : 15 ـ 16 ، وهاتان النسختان لم يشر اليهما بروكلمان وانما أشار الى وجود نسخ بمكتبة القرويين بفاس ، ومكتبة جامع الزيتونة بتونس ، وخزانة الفاتكان ، والاسكوريال والجزائر .

10) ابو محمد سعيد بن سليمان الكرامي السملالي الجزولي المتوفى سنة 862 هـ سمى

(62) الديباج : 212 ، شجرة النور : 215 ، الفكر السامي : 4 / 71 .
(63) نيل الابتهاج : 165 ، شجرة النور : 218 .
(64) الديباج : 89 ـ 90 .
(65) نيل الابتهاج : 352 ، شجرة النور : 233 .
(66) نيل الابتهاج : 223 ، شجرة النور : 244 ، الفكر السامي : 4 / 90 .
(67) طبع بمصر سنة 1332 هـ ـ 1914 م .
(68) معالم الايمان : 3 / 149 .
(69) انظر ترجمته في شجرة النور ص : 258 .

شرحه (مرشد المبتدئين الى معرفة الفاظ الرسالة) توجد نسخة منه بمكتبة تطوان تحت عدد : 35 في جزء واحد .

11) ابو الحسن علي بن محمد البسطي القرشي الشهير بالقلصادي المتوفى سنة 891 هـ (70). له شرح على الرسالة ذكره احمد بابا في نيل الابتهاج، والشيخ مخلوف في شجرة النور وغيرهما ، لم اقف عليه ، ولم يذكره بروكلمان . .

12) ابو العباس احمد بن احمد بن احمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق المتوفى سنة 899 هـ (71) .

له شرحان على الرسالة : احدهما مطبوع مع شرح ابن ناجي . اما الشرح الثاني ، فذكره مترجموه، ولم اقف عليه .

13) داود بن علي بن محمد القلتاوي الازهري (72) المتوفى سنة 902 هـ ، له شرح سماه : « توضيح المسالك » .

قال صاحب النيل : « استمر ذكره في الآفاق وعم النفع به » ، ذكره بروكلمان واشار الى وجوده بمكتبة جامع الزيتونة بتونس تحت رقم : 2426 .

14) ابو الحسن علي بن محمد بن محمد بن محمد بن يخلف المنوفي المصري الشاذلي المتوفى سنة 939 هـ (73) . له ستة شروح على الرسالة:

— غاية الاماني .
— تحقيق المباني
— توضيح الالفاظ والمعاني
— تلخيص التحقيق
— الفيض الرحماني
— كفاية الطالب الرباني .

وهذا الاخير مطبوع متداول ، عم النفع به كثيرا ، وهو المعروف عند الطلبة بشرح أبي الحسن. وعليه كان الاعتماد في تدريس الرسالة بجامع القرويين .

وقد وضع عليه الشيخ علي بن احمد الصعيدي العدوي (74) المتوفى سنة 1189 هـ حاشية مهمة لتوضيح مشاكله ، وتفسير غامضه ، وهي مطبوعة مع الشرح عم النفع بها ايضا .

كما جمع الشيخ ابو عبد الله محمد بن عبادة المتوفى سنة 1193 هـ تقريرات شيخه الصعيدي علي أبي الحسن ، اضافها الى الحاشية المذكورة ، وزاد عليها نكتا مفيدة . وقفت عليها بمكتبة تطوان برقم : 209 .

اما بقية الشروح فهي مخطوطة ، ذكرها بروكلمان واشار الى وجود نسخ منها في بعض المكتبات العالمية (75) .

15) عبد الله بن احمد الفاكهاني المتوفى سنة 972 هـ ، ذكر بروكلمان انه توجد نسخة من شرحه برامبور برقم : 228 .

وبالاضافة الى الشروح المتقدمة التي اهتمت بالناحية الفقهية فان كثيرا من العلماء اهتموا بشرح الفاظ الرسالة وجعلوا عليها شبه المعاجم اللغوية والاصطلاحية .

16) ابو عبد الله شمس الدين محمد بن ابراهيم التتائي (76) المتوفى سنة 942 هـ وضع

(70) له ترجمة في النيل ص : 261 ، وشجرة النور ص : 261 .
(71) له ترجمة في النيل ص : 84 ، وشجرة النور ص : 276 ، والفكر السامي : 4 / 98 .
(72) له ترجمة في النيل ص : 116 ، وفي الشجرة ص : 258 .
(73) انظر ترجمته في الابتهاج ص : 212 ، وشجرة النور ص : 272 .
(74) انظر ترجمته في شجرة النور ص : 341 .
(75) انظر بروكلمان : 3 / 288 .
(76) انظر ترجمته في شجرة النور ص : 303 — 304 .

شرحا لالفاظ الرسالة سماه « تنوير المقالة فى حل الفاظ الرسالة » توجد نسخة منه بمكتبة تطوان تحت رقم : 358 .

وقد وضع ابو الارشاد نور الدين علي بن زين العابدين الاجهوري المتوفى سنة 1066 هـ حاشية على التتائي توجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط.

ذكره بروكلمان واشار الى وجود نسخ من الشرح والحاشية فى ميونيخ ، وباريز وتونس ، والقاهرة (77) .

17) تعليقات لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب المتوفى سنة 993 هـ جمعها ولده يحيى من طرره على نسخته من الرسالة واخرج منها تاليفا ذكر فى مقدمته انه ليس له فيه الا الجمع والترتيب. توجد نسخة منه بمكتبة تطوان تحت رقم : 14 .

18) ابو عبد الله محمد بن منصور بن حمامة الزناتي ، له شرح غريب الرسالة سماه : « غرر المقالة فى شرح غريب الرسالة » . توجد نسخة منه بمكتبة تطوان تحت رقم : 852 وقفت عليه . ذكره بروكلمان واشار الى وجوده بباريز ، الا انه سماه : « حل المقالة » .

19) ابو العباس احمد بن غنيم بن سالم النفراوي (78) المتوفى سنة 1125 هـ ، له شرح على الرسالة سماه : « الفواكه الدواني على رسالة ابن ابي زيد القيرواني » مطبوع فى جزاين (79) متداول .

20) ابو عبد الله محمد بن قاسم جسوس (80) المتوفى سنة 1182 هـ ، له شرح الفاظ الرسالة مطبوع على الحجر بفاس فى اربعة اسفار ، متداول ، ويعتبر من الشروح المهمة .

نظم الرسالة :

لم يقتصر العلماء على شرح الرسالة والتعليق عليها ، منهم من نظمها كلا أو بعضا تيسيرا لحفظها .

وممن نظمها : عبد الله بن احمد بن الحاج الغلاوي الشنجيطي .

ومما جاء فى مقدمة نظمه :

هذا ولما كانت الرسالة
لعلم دين الله كالحبالة

تقتنص الوحشي والانسيا
وتجمع البرى والبحرى

ولم يكن سبيل الشروح يستقى
حتى يعم جدرها للسبقى

فانبتت جواب كل سائل
وآتت اكلها من المسائل

لكن لعسر حفظها المدارك
منها خفية فكل تارك

مثلثها فى كفتي ميزان
درا وما الخبر كالعيان

لكي ينال حفظها بالنظر
فى شعرها المرغب المنفر

وقفت على قطعة منها فى حوالي ستمائة بيت بمكتبة تطوان تحت رقم : 3 / 458 ضمن مجموع وصل الناظم فيها الى الزكاة . واخبرني الاستاذ الكبير العلوي بأن هذا النظم يوجد كاملا بموريطانيا .

كما نظم مشكلاتها الفقيه ابو عبد الله محمد بن غازي المكناسي المتوفى سنة 919 هـ ، وشرح هذه المشكلات الفقيه ابو عبد الله محمد الحطاب المتوفى

---

(77) انظر بروكلمان : 3 / 288 .
(78) انظر ترجمته فى شجرة النور ص : 318 . وقد وقع له خطا فى وفاته حيث ذكر انه توفى سنة 1225 .
(79) طبع بمصر سنة 1355 .
(80) انظر ترجمته فى شجرة النور ص : 355 .

سنة 958 هـ فى شرح سماه : (تحرير المقالة فى شرح نظائر الرسالة) .

رسالة ابن ابي زيد فى الغرب الاوروبي :

لم يقف انتشار الرسالة عند حدود العالم الاسلامي على اتساع ارجائه **وتعدد اقطاره ، بل عبرت** الى ما وراءها من آفاق ، نكانت من ذخائر تراثنا الفقهي الذي عني به المستشرقون وحرصوا على جمعه ونقله ، وعكفوا على ترجمته ودراسته .

اذكر من ذلك ، أن الرسالة نشرت فى نصها العربي بلندن سنة 1906 م مع ترجمة انجليزية لها بعناية المستشرق ا. درسل ، وعبد الله المامون السهروردي .

ثم ترجمها الى الفرنسية المستشرق فانيان ونشرت الترجمة بباريز سنة 1914 م .

وذكر الاستاذ الكعاك (81) أن السيد برشي المترجم بدواوين الدولة التونسية بعد ترجمة أخرى للرسالة اعتمادا على ترجمة « فانيان » .

* * *

وبعد ، فلعلي اكون قد وفقت فى ابراز شخصية هذا العالم الفذ الذي حمل لواء المذهب المالكي ، وخدم اصوله وفروعه فلقب بمالك الصغير ،

كما ارجو أن اكون قد ساهمت فى القاء بعض الاضواء على تراثه العلمي الغزير الذي ضاع معظمه — مع الاسف الشديد — او بقي مجهولا لدى الدارسين والباحثين .

وعسى الله ان يوفق العاملين المخلصين فى ميدان البحث العلمي والمهتمين بشؤون الثقافة الى التعاون على نشر هذه الذخائر التي بقيت معطلة من تراث ابن أبي زيد .

والبحث عما يمكن أن يعثر عليه من مؤلفاته المجهولة ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

« فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » صدق الله العظيم .

الرباط : احمد سحنون



(81) فى بحث عن ابن ابي زيد نشره بمجلة الثريا بتونس .

فتاوى النوازل في القضاء المالكي المغربي

للأستاذ رضى الله إبراهيم الالغي

من المعلوم ان الاسلام أقر في بداية أمره كثيرا مما كان عليه العرب من حياة اجتماعية ومعاملات وعادات ما دامت لا تتنافى مع ما جاء به الاسلام من اركان وقواعد وسنن واخلاق ... فكان الذين دخلوا في دين الله يتوقفون في بعض الامور ويسارعون الى الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم يسالونه حكم الله فيها ليسيروا على هداه ويتخذوا شريعة الله منهجا في الحياة .. فكان (ص) يجيبهم في معظم الاحوال بالوحي الحاسم من الله اما اقرارا لما كانوا عليه أو تغييرا له وتبديلا ، مصداقا لقوله تعالى : « وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون .. » فكانت الاسئلة تتوالى والآيات تنزل بالجواب الشافي .

— يسالونك ماذا أحل لهم . قل أحل لكم الطيبات .. الآية .

— يسالونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير .. الآية .

— يسالونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس .. واثمهما اكبر من نفعهما .. الآية .

— ويسالونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير .. الآية .

— ويسالونك عن المحيض قل هو أذى .. الآية .

واحيانا تأتي كلمة الاستفتاء اشعارا بأهمية السؤال : وورد ذلك في آيتين :

— يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة .. الآية .

— ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ..

وكان صلى الله عليه وسلم يجيب أصحابه عما لا وحي فيه .. واحيانا يبين لهم ان الله قد بين لهم اشياء .. وسكت عن أشياء رحمة بهم غير نسيان ..

— سالوه عن ميتة البحر فقال الطهور ماؤه والحل ميتته .

— وسالوه عن مقدار ما يوصون به من اموالهم فقال الثلث والثلث كثير ..

— وسالوه عن التسعير في الاسواق فقال الله هو المسعر ..

— وسألوه عن تأبير النخل فقال انتم ادرى بدنياكم الى غير ذلك من أجوبة الرسول وفتاويه التي حاول بعضهم ان يحصيها ويؤلف فيها .

وهكذا كان السؤال والاستفتاء في غاية اليسر ايام رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يوم كان المجتمع الاسلامي محدود الجوانب ، وكانت النزعات والمشاكل نادرة الوقوع وسريعة الحل بكلمة واحدة من الوحي او من الرسول الاكرم صلوات الله وسلامه عليه ـ « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما .. »

ولكن لما فتحت الامصار واتسعت رقعة الاسلام وتلاطمت أمواج العمران ودخلت أمم ذات حضارات في دين الله واستظلت بظله الوارف ولاذت بكنفه الارحب وشريعته الغراء..وتبع ذلك افراق الصحابة الاجلاء ورواة الحديث والقراء وهم حملة الشريعة وحفظة الوحي ورواة الاحاديث .. نتج عن ذلك كله حدوث مشاكل عويصة في البيئات الجديدة ، والمجتمعات المتحضرة .. فكان على حملة الوحي من قراء ورواة أن يواجهوا ما نجم عن عادات ومعاملات لا عهد لهم بها وان يستنبطوا لها من اصول الشريعة الحلول الملائمة .. جاعلين نصب أعينهم ان لا يخرجوا عن الكتاب والسنة وأن لا يحيدوا ولو قيد انملة عن روح الاسلام ومقاصده السامية .. الا أن اختلاف المصالح المرعية واختلاف البلدان الشرقية والغربية أدى الى اختلاف في الاحكام والفتاوي .. تبعا لاختلاف البيئات والعادات والتقاليد .. فظهرت اجتهادات وانتشرت آراء تتقارب أحيانا وتتباعد اخرى . مما ادى الى ظهور مجتهدين كثيرين يفتي كل واحد منهم في بلده بخلاف ما أفتى به زميله في بلد آخر .. بل أن الاختلاف يقع في بعض الاحيان في البلد الواحد وفي المسألة الواحدة وذلك اما لاختلاف الانظار او لكون أحدهم يروي من الاحاديث والآثار ما لا يرويه الآخر .. وهذا في حد ذاته ليس عيبا في استخراج الاحكام ما دام له وجه او سند شرعي .. فلقد كان عمر يقضي في نازلة بحكم ثم يقضي في نازلة مماثلة بحكم مغاير ويقول : ذلك على ما قضينا وهذا على ما نقضي .. ويقول في رسالته المشهورة : لا يمنعك قضاء قضيته اليوم ان ترجع فيه لرشدك ولكن العيب ان يكون في الامر فوضى وتعم البلوى بتضارب الاحكام ويتبع الهوى ويسود الفساد .. ولعل هذا هو ما خشيه أهل الغيرة والدين يوم أن رأوا الامصار ومراكز السلطة والخلافة تعج بالمفتين وتكتظ بذوي النحل واصحاب الآراء الشاذة ويشيعون في الناس أسباب الفتنة والتفرقة ويبثون أفكار وتأويلات بعيدة كل البعد عن منهج السنة وجادة الصواب .. ويمكن ان يكون هذا هو ما حمل ابن المقفع الى كتابة رسالته المشهورة الى المنصور العباسي يطلب منه ان يضع نظاما للقضاء والفتوى ليرفع كثرة الخلاف وتضارب الآراء والاحكام قائلا ان ما يحرم بالكوفة يكون جائزا بالحيرة وان الاحكام والفتاوي تتضارب في سائر الامصار وربما كان هذا هو ما جعل المنصور يهم ان يجمع الناس على كتاب الموطأ للامام مالك ليستمدوا منه الفتاوي والاحكام .. اولا ان مالكا عارضه في ذلك وأبى أن يفرض كتابه على جميع الناس .. قائلا للخليفة ان الصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين تفرقوا في البلاد ولكل اتباع .. ولكل روايات واحاديث .. وكان عمر بن عبد العزيز قبل ذلك حاول ان يجمع الناس على أمره بتدوينه من احاديث .. ولم ينجح هو ايضا ..

فاتضح ان رأي مالك هو الصواب على ما فيه من بقاء باب الخلاف مفتوحا .. ولكن يظهر ان شقة الخلاف اخذت تضيق وتتقارب اطرافها بظهور طبقات المجتهدين الكبار .. وخاصة ابا حنيفة وأصحابه ومالكا وأصحابه .. وبقية رؤساء المذاهب الاخرى.

وذلك ان ابا حنيفة استطاع في ناحيته ـ ناحية الكوفة وبغداد وما اليهما من اقاليم .. أن يجمع الناس او اكثرهم على مذهبه المبني على اتساع في الرأي بعد كتاب الله وما صح عنده من سنة رسول الله .. كما استطاع مالك في ناحيته ـ ناحية المدينة المنورة ومكة المكرمة وما اليهما من اقطار ان يجمع الناس على اصول مذهبه المبني على اتساع في رواية الاحاديث والسنن بعد كتاب الله وما تواتر عليه أهل المدينة من اعمال كانوا عليها منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك ما وجد عليه مشايخ

التابعين الآخذين عن الصحابة الكرام معتمداً في نفس الوقت على ما رآه مستحسنا من أمور الناس وما تركه الشارع من مصالح مرسلا ولم يقيده بنص صريح .. والحق ان هذين المذهبين المتقاربين في اصولهما وقواعدهما والمتباعدين شيئا ما في بيئاتهما واسباب قيامهما بيئة العراق المتفتحة وبيئة الحجاز المتحفظة .. هما اللذان وضعا اللبنة الاولى والثانية في صرح البناء الشامخ الذي قامت عليه سائر المذاهب الاخرى وما تفرعت عنه بقية الاجتهادات وخير دليل على ذلك هو ما نعرفه جميعا من ان محمد ابن الحسن الشيباني تلميذ ابي حنيفة لم تكتمل له اسباب الافتاء والتأليف الا بعد ان شد الرحيل الى المدينة وتلمذ لمالك واخذ عنه كتاب الموطأ .. وكذلك محمد ابن دريس الشافعي فانه تلمذ للامام مالك أولا ثم لاصحاب ابي حنيفة فكان مذهبه الجديد خلاصة المذهبين مع اضافات .. وفي ظني ان من نتائج تبحر الشافعي في المذهبين المالكي والحنفي ان تفتق ذهنه عن رسالته العجيبة المعدودة كأعظم ابتكار من ابتكاراته الكثيرة حيث اسس بها من غير مثال سابق علم اصول الفقه الاسلامي كاملا مستوفي ومرتضي من جميع المذاهب .

وفي مجال الفتوى نرى المالكية والحنفية يتسابقان ويكمل بعضهما بعضا او ان احدهما يسير على خطى الآخر اذ ان الحنفية بحكم تقدم زمانهم التاريخي ولكون أوائلهم احتلوا مناصب رفيعة كانوا اول من وضع قواعد الفتيا وانتهج طريقة وضع الاسئلة المستمدة من الوقائع والاحداث القائمة بالفعل أو التي ينتظر وقوعها ويفترض حدوثها نظريا .. اذ كانت بيئتهم العمرانية تمدهم بسيل من مسائل واقعية او مفترضة .. تتطلب البت السريع والجواب الحاسم ولا سيما ان معظمهم كانوا فيمراكز السلطة والارادة ؛ وفي أيديهم مناصب القضاء ودار الشرطة وتحصيل الاموال وجباية الخراج والاعشار .. فكانت مؤلفاتهم في معظمها تعالج هذه القضايا في صورة اسئلة مطروحة يقرنونها بأجوبة فقهية محررة بنصوصها وتخريجاتها مستندين فيها الى اصول المذهب المقرر من كتاب وسنة واجماع وقياس والى الاقوال المروية عن ابي حنيفة وعن اصحابه ..

لذلك كان فقه الاحناف الاوائل مبنيا على ما سموه مسائل الاصول ومسائل النوادر ومسائل الواقعات ، فالاولى مروية عن الامام ابي حنيفة واصحابه يوسف ومحمد بن الحسن والحقوا بهم زفر والحسن بن زياد وغيرهم .. وهذه المسائل الاولى تضمنتها كتب محمد بن الحسن الستة وهي المبسوط والزيادات والجامع الصغير والجامع الكبير والتسيير الكبير والتسيير الصغير .. وسميت هذه بظاهر الرواية لثبوتها بروايات ثابتة ظاهرة .. والحقوا بها كتاب الكافي للحاكم الشهيد المشروح بكتاب المبسوط للسرخسي .. واما مسائل النوادر فهي كذلك مروية عن اهل الطبقة الاولى الا انها في غير الكتب الستة الآنفة كالكتب المعروفة بالكيسانيات والهارونيات والجرجانيات المسماة بغير ظاهر الرواية لانها لم ترو بروايات ثابتة .. وتليها مسائل الواقعات وهي مسائل استنبطها مجتهدو الاحناف المتأخرون لما سئلوا عنها ولم يجدوا لها رواية عن الاولين .. وبجانب ذلك كانت هناك مجاميع تتضمن فتاوي الاحناف ونوازلهم منها نوازل ابي الليث السمرقندي ومجاميع اخرى جمعها السرخسي في كتاب المحيط الذي جمع فيه مسائل الاصول والنوادر وسائر الفتاوي .. ومع ذلك قال العلماء ان مذهب الاحناف لم ينقح وان مسائله عسيرة المنال :

ذكرنا عمل الاحناف في مقام الفتوى والنوازل لنرتب عليه عمل المالكية الذين قلنا انهم حذوا الاحناف في بناء فقههم على طرح المسائل الواقعية او المتوقعة .

ذلك ان تلامذة مالك رضي الله عنه كانوا يحملون اليه مسائل على النمط المذكور ويطرحونها في مجلسه فكان يجيب عنها بما ثبت عنده وصح من الروايات واذا لم يحضره شيء تحاشى ان يجيب واكتفى بقوله « لا أدري » حسب ما افاده غير واحد من تلاميذته اذ كان رضي الله عنه يكره لاصحابه ان يشغلوا انفسهم بالمسائل النظرية او التي يتوقف الجواب عنها على الامعان في اعمال النظر واللجوء الى الراي المجرد عن الروايات الصحيحة ..

الا ان اسد بن الفرات من اصحاب مالك استطاع ان يضع كتابه المعروف « بالاسدية » ويضمنه اسئلة واجوبة استخلصها من اقوال مالك واقوال بعض

اصحابه ، فكان تلامذة مالك يتداولون كتاب الاسدية بالبحث والتمحيص وكان سحنون من الذين نقدوه وراموا النيل منه اذ كان يحمله الى ابي القاسم تلميذ مالك البارز وادرى الناس بمذهبه فكان يراجعه معه مسألة يقر منها ابو القاسم البعض ويمحو البعض ويدون هو وسحنون ما وافق المذهب فى كتاب المدونة ويعدلان عما سواه .. فحلت المدونة محل الاسدية عند الشيوخ المالكية رغم عدم اذعان ابن الفرات لهذا التعديل .. ومنذ ذلك الحين صارت المدونة مرجع المالكية فى مسائل المذهب وفى الفتاوي وفقه النوازل .. وبجانبها ظهرت كتب اخرى على منوالها كالواضحة لعبد الملك بن حبيب والعتبية للعتبي وسواهما .. الا ان مسائل سحنون حازت قصب السبق ونالت رضا معظم الفقهاء .. وكان ابن ابي زيد القيرواني من جملة الذين خدموها واختصروها فى كتابه المسمى بالمختصر وكذلك البرادعي فى كتابه « التهذيب » وكذلك فعل ابن يونس واللخمي وغيرهم .. ثم جمع ابن ابي زيد كل ذلك فى كتابه « النوادر » .. كما ان الاندلسيين هجروا الواضحة الآنفة الذكر واقبلوا على العتبية التي كان ابن رشد من جملة شراحها ..

ونشير بهذا الصدد الى ان للمالكية ترتيبا واصطلاحا فى العمل بالاقوال المأثورة عن ائمة المذهب فقالوا : يفتي بقول مالك فى الموطا فان لم يوجد فبقوله فى المدونة فان لم يوجد فبقول ابن القاسم فيها والا فبقوله فى غيرها والا فبقول غيره فى المدونة ثم باقوال اصحاب المذهب على ما بينهم من تفاوت فى الرواية والترتيب .. وعللوا ذلك بان مالكا هو امام المذهب وان ابن القاسم اعلم بالمذهب وان ما فى المدونة يقدم على ما فى غيرها لما هي عليه من الصحة والاعتماد ، وعن بعض الشيوخ ان الناس اذا اختلفوا عن مالك فالقول ما قاله ابن القاسم .. وقال الباجي : لا يخرج عن قول ابن القاسم مهما وجد ..

كما نصوا على الكتب التي يجب ان يعتمدها المفتي فى فتواه وهي الموطا والمنتقى والمدونة وابن يونس والمقدمات والبيان والنوادر ..

ونصوا على الشروط التي يجب ان تتوفر فى المفتي والحاكم وهي ان يكون مجتهدا فى اصول الشريعة عارفا بمآخذ الاحكام وهو المجتهد المطلق فان عجز عن ذلك فليكن مجتهدا فى مذهبه وهو مجتهد المذهب وان عجز فله ان يفتي بما تحقق عنده من اقوال اصحاب المذهب .. وهو المقلد .

والفرق بين المفتي المجتهد والمقلد هو ان الاول – كما عند الشاطبي – يستنبط الاحكام من اصولها نيابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم وان المقلد ناقل فروع الشريعة ويبلغها نيابة عن امامه ويضعها فى موضع التطبيق .

كما عرفوا المفتي بانه المخبر عن حكم الشرع فى المسألة المعروضة عليه لا على وجه الالزام وان القاضي مخبر عن نفس الحكم لكن على وجه الالزام بقوة السلطان .

وبينوا ان اللجوء الى الاستفتاء واجب على من يجهل حكم الله فى النازلة او من لا يهتدي اليه لقوله تعالى : « فاسالوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » وان المفتي يجب عليه ان لا يكتم ما عنده من علم والا كان تحت وطأة وعيد الله فى الآية : « ان الذين يكتمون ما انزلنا ... الى قوله : اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » ...

والشورى فى الاحكام واجبة على من يخشى الوقوع فى الخطأ والزلل لقوله تعالى « وشاورهم فى الامر .. وامرهم شورى بينهم .. » وقد كان ذلك سنة متبعة عند السلف منذ عهد الخلفاء الراشدين اذ كان عمر وغيره يستشيرون قبل ان يحكموا ويامرون الولاة والقضاة بها فى سائر الاقطار . وكانت لهم طرائق شتى فى هذه الاستشارات القضائية .. منهم من يطلب الشورى وهو فى مجلسه ومنهم من يلتمسها خارج منزله .. وثبت ان الامويين فى الاندلس كانوا قد اتخذوا دارا للشورى بقرطبة خلال القرن الثالث الهجري وكان اعضاؤها يعينون من جلة العلماء ويحمل كل واحد منهم لقب المشاور ومهمتهم على ما يظهر النظر فى الاحكام المسترابة وتقديم المشورة اللازمة فى القضايا الكبرى التي ترفع اليهم

من قبل الولاة والقضاة فينظرون فيها بمقتضى قواعد المذهب المالكي وقد يخالفون مالكا ويأخذون بقول ابن القاسم .. وقال الباحثون ان اعمال هذه الدار لم تتضح الى الآن على وجه الدقة اذ كانت فريدة فى بابها .. وبقي لقب المشاور مستعملا فى الاندلس الى أواخر عهدها .. وقال علماء الاحناف لا باس ان يجلس اهل الفقه مع القاضي فى مجلسه اذا كان غير بصير بطرق القضاء (لان الحنفية يجيزون عند الضرورة قضاء غير العالم) غير انه لا يستشيرهم علانية فى مجلسه بل يخلو بهم .. وقال فقهاؤنا : اذا لم يجد القاضي من يستفتي فى بلده بعث الى فقهاء آخرين ويؤخر الحكم الى ان يقف على فتواهم وهذه احدى الحالات التي يجوز فيها تأخير صدور الحكم ..

ومن ذلك ما روى عن الامير علي بن يوسف ابن تاشفين من انه عهد الى قضاته ان لا يبتوا فى حكومة كبيرها وصغيرها الا بمحضر اربعة فقهاء واذا اراد مشورتهم خلا بهم فى غرفة المشورة ولا يشركهم فى الحكم .. وكان علي بن يوسف نفسه لا يقضي امرا الا بمحضر عدد معين من الفقهاء .. لذلك سميت دولة المرابطين بدولة الفقهاء ..

وبالجملة فان الاستشارات القضائية لم تنقطع فى الاسلام وانما كانت تاخذ صورا متعددة .. اعلاها ان يحضر ذوو العلم مجلس القاضي ويقدموا له المشورة اللازمة فى جلسة خاصة .. وادناها مذكرات الافتاء التي يقدمها الخصوم او وكلاؤهم ..

وكان المفتون يراعون فى فتاويهم ان لا يحيدوا عن السنن المرسومة للقضاء وان لا يخرجوا عما به الفتوى وبه القضاء من القول الراجح فى المذهب او المشهورة او المعمول به قضاء .. لذلك كان الفقهاء يضعون علامة للمفتي وللقاضي عند كل قول مسطور فى الكتب المعتمدة فى المذهب كان يقول : وبه الفتوى ، او عليه العمل – او المشهور او الراجح او الاصح والاظهر .. والمختار ..

وبعد فان الفقه الاسلامي المدون فى الامهات يحتاج عند تطبيقه على الوقائع والاحداث الى اناس مهرة ذوي دربة كافية ومعرفة تامة يقدرون معها على استخراج النصوص من مظانها والاهتداء الى الاقوال الراجحة المتعين الاخذ بها وتطبيقها على النازلة المعروضة .. فاذا كان القاضي هو الباني المؤسس للاحكام فان المفتي هو الذي يمده بمواد البناء .. وهما معا معدودان عند العلماء من جملة القائمين بمهام الخطط الشرعية التي لا بد منها للمجتمع فى النظام الاسلامي وهي خطط معدودة تقل وتكثر وتزداد وتنقص بحسب ما يقتضيه العمران واحوال المجتمع .. وهي احيانا ست خطط واحيانا اكثر واحيانا اقل .. وقد عد اكثر المهتمين بالامر خطة الفتيا من جملتها بجانب خطة القضاء والشرطة والحسبة وغيرها .. من خطط السلطة القائمة فى البلد .

فاذا كانت الفتوى بهذا الاعتبار فانها تحتاج الى اطار خاص من ذوي الكفاءة والاختصاص والى من يقوم عليها ويحوطها بسياج يقيها من المتطفلين والمستغلين ..

والاصل فى الفتوى عند المحققين أن تكون مرسلة بمعنى ان لا تقيد بقيود تنظيمية تمنع من به اهلية من ولوج رحابها الا برخصة او بتعيين من السلطة القائمة .. كما هو الشأن فى معظم بلاد الشرق الاسلامي حيث يعتبر منصب الافتاء وظيفة اميرية لها قوانينها وضوابطها .. واما فى مغربنا هذا فانها بقيت مرسلة منذ كانت يرعاها الولاة ويحوطها الامام بالاشراف عليها من بعيد دون تقييد ولا تحجير .. وكلنا نعرف ما ذا كان يعنى لقب مفتي فاس أو مفتي مراكش اذا اطلق سابقا عندنا على عالم من العلماء الكبار فهو تشريف اكثر مما هو تكليف ..

لذلك ازدهرت الفتيا فى المغرب واقبل عليها كل من آنس من نفسه مقدرة او رآه الناس أهلا لها ويقال انها كانت مزدهرة فى بلاد الشمال الافريقي من اقدم العصور يوم كان الرومان يقولون عن هذه البلاد انها مزرعة المحامين لكثرة من نبغ فيها منهم .. وهذا صحيح يشهد له ما كانت عليه القيروان وفاس وقرطبة ومراكش من كثرة الفقهاء المنكبين على أصول التشريع وفروع المذهب حيث اشبعوها درسا وبحثا وتعليقا واغنوها تاليفا وتدوينا .. وكان لهم شأو لا يدرك فى مضمار الفتوى .. لقد اكثروا فيه من التاليف والمجاميع .. وتفننوا وتنوعوا .. وأسهبوا واطنبوا واكثروا واسرفوا .. حتى ان الباحث يحار

ويقف مشدوها امام هذا التراث الضخم الذي خلده الاسلاف وسجلوه ودونوه فى مئات الاسفار والمجلدات طيلة قرون وقرون .. فكان مما يثير الاعجاب والاكبار انهم خصوا شؤون الفتوى والنوازل بعناية واهتمام تفوق كل وصف وتتجاوز كل تقدير .. حتى ان الفقه المالكي التطبيقي العلمي تجده كله ما زال حيا يرزق بين طيات كتب النوازل .. وعلى السنة واقلام المفتين البارزين مما جاز معه القول بان الفقه المالكي لم يمت ولم يقبر كما يتوهم البعض بل انـه ما زال قلبه ينبض بالحياة ويفور قوة ونشاطا تجده فى الوقائع والنوازل اكثر مما تجده فى الامهات الاخرى .. ان كلمة « سئل ... فأجاب .. » التي تأتي فى صدر الفتاوي لا تعني واقعة بعينها بل تعني ان فقه المسألة هو الواقع بعينه والحارس اليقظ الامين وانه شرع الله الحي السرمدي الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. وان عبارة « وبه العمل » الذي تقترن باقوال فقهاء المذهب لا تعني فقط العمل الوقتي والظرفي بذلك القول الفقهي المحكي فانهـا تعني ايضا وجوب العمل به دواما واستمرارا ابد الدهر ..

ان فقهاءنا الاكرمين ــ القضاة منهم والمفتين ــ عرفواالداء وعرفوا الدواء ووضعوا العهن فى موضع النقب ــ على حد التعبير الادبي .. فانهـم نقلـوا نصوص الفقه النظرية الى مواقع العمل بها .. تطبيقا وتنفيذا .. فى المحاكم وفى الاسواق وفى البيوت وفى الطرقات وبيوت المال والتجـارة والصناعـة والزراعة والملاحة وميادين القتال والجهاد .. الى غير ذلك من مواقع الحياة ومعترك البشر .. فهناك ترى الفقهاء يصولون ويجولون .. واصحاب النوازل يعالجون المشاكل ويقدمون لها الحلول هكذا تشعر وانت تتصفح كتب النوازل انك ترى الفقيه المفتـي يستعرض الاقوال ويحاول ان يستخرج منها عناصر التركيبة التي يقدمها بنفسه للسائل او يقدمها للقاضي علاجا ناجعا للمشاكل وقطعا لدابر الشكوى والفتن وحسما لداء النزاع .

انني تتبعت شخصيا وباستقراء هذه المجاميع الكبرى والصغرى التي تضمنت فتاوي الاقدميـن والمتاخرين ورمت عدها واحصاءها واعطاء فكرة عامة ومجملة عنها وعن محتوياتها فوجدتنـي أمام بحـر متلاطم .. عميق الغور لا يصل البصر الى مداه ..

فارتد بصري حاسرا .. ووقف فكري حائـرا .. ماذا اقدم وماذا أخر ..

فالذي يمكن قوله فى هذه العجالة وفى هـذه الفرصة الثمينة هو أن عندنا فى المغرب ــ والحمد لله ــ ثروة هائلة من كنوز الفقه المالكي لا يجهل أحد من الباحثين قيمتها واهميتها الكبرى .. وان معظمها ما زال مركوما فى الخزائن العامة والخاصة يرقد فى الصناديق وينام على الرفوف .. ينتظر همما عالية وجنودا متطوعين يقتحمون تلك الخزائن ويستخرجون من سراديبها تلك المدخرات وينفضون عنها غبـار الاهمال والنسيان وينقذونها من آفـاق التلاشـي والضياع .. ويعملون على ابرازها ونشرها فى حلة تليق بها حتى تكون فى متناول الجميع وتحت انظـار الباحثين المهتميــن ..

ولقد ساقتني الاقدار يوما على وجه الصدفـة الى النزول فى احد السراديب وأحتفظ الآن بتعيين موقعه ــ فرأيت به من جملة ما رأيت مجلدات ضخمة مصفوفة على رفوف هناك فحرزت عددها بما يفوق الخمسين مجلدا .. وعلمت ممـن كان هناك انهـا تحتوي على نوازل وقضايا .. وان الاحـداث قـد تجاوزتها وان اصحابها القائمين عليها قد انصرفـوا عنها الى مهام اخرى جديدة فركموها هناك على انهـا من مخلفات الماضي .. ولم أملك امام ما رأيت الا ان غصصت بريقي وطويت كشحي .. ومضيت لطياتي كما مضى الآخرون ..

كما ان الاقدار ساقتني الى خزانة عامة وزرت قسم المخطوطات فيها وطلبت من القيم عليهـا ان يمدني بجزازات القسم الفقهي وبالاخـص كتـب النوازل .. وكنت انوي ان اقف على ما اريد فى ذلك الصباح أو مع مسائه ان اقتضى الحال .. ولكننـي قضيت هناك خمسة ايام كاملة مـن صباحهـا الى مسائها وانا اتصفح فقط كتب النوازل الموجودة على الرفوف او المسطورة ضمن فهارس الخزائن الاخرى .. اذ كان من حسن الحظ ان وجدت بتلك الخزانة معظم فهارس الخزائن الاخرى ثم انتهت ايامي الخمسة وانا لم أتمكن من تصفح سائر كتب النوازل التي وقفت عليها هناك .. ولا انني وصلت الى احصاء ما وجدت منها فى الفهارس الاخرى ..

واجدني هنا في غنى عن تقديم كشف شامل لما تحتويه الخزائن المغربية وغيرها من كتب الفتاوي والنوازل المتعلقة بالمذهب المالكي .. اذ ان معظم علمائنا واساتذتنا المهتمين بتراثنا العلمي عموما والفقهي خصوصا لا يحتاجون الى من يقدم لهم احصاء بكتب النوازل التي خلفها الاسلاف ولا انهم يتوقفون على من يدلهم عليها ولا على محتوياتها فكلهم تبارك الله على علم تام بالموضوع .

وانما اشير في الاخير الى المجهود العظيم الذي كان قد بذل في فترة معينة منذ أواخر القرن الماضي وفاتحة هذا القرن .. ذلك المجهود العلمي المشكور الذي تمثل في احداث اول مطبعة حجرية بفاس العامرة - تلك المطبعة المتواضعة والعظيمة في آن واحد التي اخرجت للناس جملة هامة من الكتب القيمة .. وفي مقدمتها طائفة من كتب النوازل .. ولعل اعظمها واهمها كتاب المعيار المشهور والمعروف باسم « المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوي اهل افريقيا والاندلس والمغرب » لصاحبه الشيخ الامام احمد بن يحيى الونشريسي التلمساني الفاسي قرارا المتوفى عام 914 هـ - 1508 م المطبوع على الحجر بفاس في اثني عشر مجلدا . ونوازل سيدي المهدي الوزاني الكبرى المعروفة بالمعيار الجديد - والصغرى المطبوعة في اربعة اجزاء على الحجر بفاس في حياته اذ لم يتوف الا في 1342 هـ 1923 م .

- وكذلك كتاب الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير التي جمعها تلميذه أبو القاسم ابراهيم ابن عبد الرحمن التسولي التازي وذيل عليها أبو سالم ابراهيم بن هلال بن علي الصنهاجي السجلماسي .. المطبوع أيضا على الحجر بفاس .

- والاجوبة الكبرى والصغرى لسيدي عبد القادر بن علي الفاسي المطبوعة على الحجر بفاس .

- واجوبة سيدي محمد بن ناصر الدرعي المعروفة بالاجوبة الناصرية التي جمعها محمد بن أبي القاسم الصنهاجي وطبعت على الحجر بفاس .

- واجوبة الشيخ سيدي محمد بن المدني جنون المستاري الفاسي المطبوعة على الحجر كذلك.

- والاشارات الحسان المرفوعة الى حبر فاس وتلمسان (الونشريسي) لمحمد بن احمد ابن غازي المكناسي المطبوعة ضمن أزهار الرياض للمقري .

- ونوازل العلمي وهو ابو الحسن علي بن عيسى بن علي الحسني العلمي الشفشاوني المتوفى عام 1126 هـ - 1714 م المطبوعة مرارا على الحجر بفاس .

- والاحكام في تمييز الفتاوي من الاحكام وتصرف القاضي والامام لابن العباس أحمد بن ادريس ابن عبد الرحمن القرافي المصري المالكي المطبوعة بمصر والتي تعد مرجعا هاما لدى المغاربة .

- المنهج المنتخب الى أصول المذهب لعلي بن قاسم بن محمد الزقاق الفاسي المتوفى عام 912 هـ - 1506 م وهو ارجوزة في 437 بيتا طبعت على الحجر بفاس .

- شرح المنهج المنتخب الى قواعد المذهب لاحمد بن علي المنجور الفاسي المتوفى عام 912 هـ - 1506 م وهو ارجوزة في 437 بيتا طبعت على الحجر بفاس .

- شرح المنهج المنتخب الى قواعد المذهب لاحمد بن علي المنجور الفاسي المتوفى عام 995 هـ - 1587 م المطبوع على الحجر بفاس .

- جواب على سؤال الامير عبد القادر الجزائري يتعلق بجهاد الفرنسيس المحتلين للجزائر .. لابي الحسن علي بن عبد السلام التسولي وكتبه بأمر من السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام .. وطبع ضمن أجوبة التسولي على الحجر بفاس كما طبع بوجدة ضمن مختصر لكتاب تحفة الزائر ..

- النوازل الهلالية لابي اسحاق ابراهيم ابن هلال الصنهاجي السجلماسي المتوفى عام 903 هـ - 1497 م طبعت على الحجر بفاس ورتبها سيدي علي ابن احمد الجزولي الجلالي .

ـــ نوازل المسناوي وهو محمد بن المهدي المسناوي البكري المتوفى عام 1136 هـ ـ 1724 م مطبوعة على الحجر بفاس فى سفر متوسط .

ـــ نوازل بردلة وهو قاضي الجماعة بفاس أبو عبد العزيز بن احمد بردلة . الاندلسي ثم الفاسي المتوفى عام 1133 هـ جمعها فى حياته أحمد بن احمد الخياطي الدكالي وطبعت على الحجر بفاس فى سفر متوسط .

ـــ نوازل العباسي وهو أبو العباس أحمد ابن محمد بن محمد بن سعيد العباسي السملالي السوسي المتوفى عام 1152 هـ جمعها تلميذه احمد بن ابراهيم ابن يعقوب السملالي وطبعت على الحجر بفاس فى جزئين .

ـــ نوازل الشيخ التاودي ابن سودة طبعت على الحجر بفاس .

ـــ نوازل محمد بن الحسن المجاسي قاضي فاس المتوفى عام 1103 هـ ـ 1691 م طبعت على الحجر بفاس .

ـــ ارجوزة فيما تجب به الفتوى وما يعتمد من الكتب لمحمد النابغة الشنجيطي المتوفى عام 1282 هـ ـ 1865 م طبعت بالمطبعة الملكية بفاس .

ـــ فتاوي الفقيه الرهوني التطواني المطبوع بعضها أخيرا بتطوان .

ـــ معيار التحقيق فى معنى الفتوى والتوثيق للمفتي حمادي جبرو أبو الفضل المطبوع بالدار البيضاء .

ذكرت هذه القائمة بكتب النوازل والفتاوي التي قامت المطبعة الحجرية بفاس وبعض المطابع الاخرى باخراجها ونشرها فى نطاق ضيق وبوسائل جد محدودة .. مما جعل تلك الطبعات الآن فى حكم المخطوطات والنوادر التي يعز وجودها ويتعذر الاستفادة منها .. فكانت بذلك ما زالت تحتاج الى من يطبعها وينشرها من جديد . (1)

وتحت يدي قائمة اخرى تتضمن سائر كتب النوازل التي وقفت عليها وفيها ما يربو على خمسين مؤلفا انتقيتها من نحو مائة مخطوطة بأسمائها وامكنة وجودها احتفظ بها الآن واقدمها فى فرصة أخرى عند الحاجة ..

واذا جاز ان اضيف شيئا فهو ان كتب النوازل ليست ذخيرة فقهية فحسب بل هي سجل شامل لسائر مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والعمرانية وحتى العسكرية والسياسية بحيث يجد كل باحث مبتغاه فيها وتمده بمعلومات قلما يجدها فى غيرها وحتى الغرائب فانه يجدها بين طياتها ..

وعلى المثال والتنظير .. نجد صاحب المعيار اتى بفتوى حول حكم ذبائح اهل الكتاب .. وأخرى عن حكم الايمان باللغات الإعجمية وان الاعتبار بالمعنى لا بالالفاظ .. وعن حكم الذميين اذا حاربوا .. وعن حكم من غلب النصارى على بلده ولم يهاجر ، وعن وقيعة والد الحافظ التادلي مع الشيخ ابي يعزى ، وعن قصة يهود توات من قصور صحراء المغرب فى شان احداثهم بيعة هناك وقد تداول فيها علماء الوقت بما يفيد منعهم لعدم شرط يسمح لهم بذلك ، وعن قضايا الصرف وتبادل العملات وسك النقود .. واورد سؤال ابي الحسن المريني علماء وقته عن حكم اتخاذ ركاب الخيل من خالص الذهب والفضة ؛ وابحاثا فى الحوالة والاحالة والمديان ومسائل فى المياه والمرافق وفيما يسمى الآن بالتلوث وحماية الطبيعة ؛ وتحقيقا فيما يروي من ان الله يبعث كل مائة سنة لهذه الامة من يجدد لها أمر دينها ، وجوابا عمن يحتال فى تضييع المغارم المخزنية ويتملص من اداء واجبات الدولة .. وابحاثا فى التعرض للناس فى الطرقات بالشعوذة وضروب السحر والتداوي وضرب الفال والنظر فى الكف .. وكذلك ما احدثه البعض من الاحتفال بليلة الميلاد وما يفعلونه فى ليلة الحاكوزة .. الى غير ذلك من الوقائع التي ما زالت تشغل بال الناس .

ونجد سيدي المهدي الوزاني يتعرض هو الآخر لكثير من قضايا وقته وهو من المتأخرين او المعاصرين ومنها حكم شرب القهوة والشاي والتبغ

(1) تصدر عن وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية قريبا طبعة جديدة من كتاب المعيار للونشريسي ، وكذلك نوازل العلمي ـ (دعوة الحق) .

وطابة ـ وله تأليف في ذلك .. كما ذكر ان الهلال يثبت بالبارود وبالنار وبالتليفراف مثلما يثبت بالبينة الشرعية وان ما يصل للحلق والمعدة من غير طريق الفم عند الصيام انما فيه القضاء ولو عمدا ، وانه لا شيء على من تبخر بالعود او غيره او شم رائحة في رمضان ، وان طعام اهل الكتاب وذبائحهم حلال طيب ، وان الطلاق باليمين الحرام تلزم منه طلقة واحدة ، وان الطلاق بلفظ الثلاث طلقة واحدة .. واورد سؤالا وجه الى علماء فاس من الحضرة العالية حول جلب طابة لما اراد السلطان يسرح جلبها ، وسؤالا آخر منه حول وسق الماشية والحبوب الى بلاد النصارى .. واورد رسالة ابي علي اليوسي الشهيرة الى المولى اسماعيل ، وكذلك سؤال الامير الى علماء فاس عن حكم صلح تطوان ودفع 20 مليون ريال عن افتدائها فأجاب بالضريح الادريسي مولاي احمد العراقي بعدم الجواز لما فيه من توهين المسلمين .. واورد مسائل من السلطان سيدي محمد بن عبد الله الى العلماء حول املاك مخزنية واخرى حبسية هل يرد بيعها وهل تعوض بقيمتها .. ومسألة من المولى سليمان في شأن مرابطي الوقت يستودعهم العمال الظلمة الاموال المغصوبة .. وفيه ان تبرعات الناس لمن تولى عليهم يجب ردها .. الى آخره ..

وهناك أجوبة في مواضيع معينة كأجوبة الونشريسي واجوبة ابي السعود الفاسي واجوبة الهوزالي واجوبة الرهوني واجوبة السكتاني واجوبة الزياتي ... وكذلك أجوبة في مسائل خاصة كجواب ابي حفص الفاسي في حكم استعانة السلطان بالكفار في امور الجهاد ، وكرسالة صرف الهمة الى تحقيق معنى الذمة للمسناوي ، ورسالة في الحسبة لابن سعيد المزكلدي ، ورسالة في الامامة العظمى لابي السعود الفاسي ورسالة القول الكاشف في حكم الاستنابة في الوظائف للمسناوي وتقييد في الموازين والمكوس لابي زيد الفاسي ، ورسالة تحفة القضاة في بعض مسائل الرعاة لابي العباس الملوي ، ورسالة رفع الالتباس في شركة الخماس لابن رحال .. وغيرها مما يتناول البحث في مناحي الحياة العامة .

هذا واني اذا استرسلت في الموضوع فانني لا اكاد انتهي ...

الرباط : رضا الله ابراهيم الالغي

قصة الجالية الأندلسية في المغرب

-1-

للأستاذ الحسن السائح

كانوا يؤثرون ان يسموا بالاندلسيين ، وكان المؤرخون العرب يسمونهم بالمهاجرين الاندلسيين ، واحيانا يلقبون بالغرباء . أما المسيحيون فكانوا يلقبونهم (بالموريسكوس) واحيانا (بالمدجنين) وهم الذين كانوا موزعين فى اسبانيا قبل سقوط غرناطة وضواحيها ، والذين يعيشون فى كنف الممالك الاسبانية منذ عهد المرابطين ، وكانوا أرقى حضارة من المسيحيين .

وكلمة (الموريسكوس) — Mariscos تصغير لكلمة Moros وهو لقب يطلق على جميع المسلمين الذين كانوا يحكمون الاندلس ثم غلبوا على امرهم فصغر اسمهم تهوينا لهم .

واصل هذه الكلمة بربري من (امور) وتعني المغرب ، ودخلت اللغة اللاتينية فاصبحت كلمة Mauri - Maurus وتعني سكان المغرب ، حيث كان جنوب المغرب يسمى بموريطانيا ، ومنذ القديم اطلق سكان (ليبريا) كلمة (موريطانيا ـ تنزانيا) على المغرب العربي ثم اصبح الوافدون عليهم من هؤلاء يسمون (بالمورس) مختصرا عن موريطانيا ، واخيرا اطلقوا هذا الاسم على كل عربي ومسلم ، لان المغرب باب الوافدين على اسبانيا ، ولهذا فتترجم الى عارب او متعرب .. اما كلمة (الموريسكوس) فتعني المسلمين والعرب (والمدجنين) الذين ظلوا منتشرين فى اسبانيا والبرتغال قبل سقوط غرناطة، واصلها (مور) وهي بربرية الاصل من (امور) وتعني المغرب .

لقد كان أجداد هؤلاء جميعا بناة الحضارة الاسلامية فى أوربا بصفة عامة ... وفى الاندلس بصفة خاصة .. وبعد حروب الاسترجاع المتعصبة اخذت تتداعى العواصم الاسلامية فى الاندلس واحدة بعد اخرى .. واخيرا فقد المسلمون غرناطة وضواحيها العظيمة ، فسلبوا من الاستقلال الذاتي والحرية السياسية ، ونتج عن ذلك الهوان والاستسلام ، والفقر والضعة ، وتحمل شتى أنواع الاضطهاد الاجتماعي ، والاستسلام لطلب لقمة العيش من يد الاعداء المنتصرين .

واذا كان عالمنا المعاصر بما فيه من وسائل الاعلام المتعددة الاتجاهات ، فى كل بلاد ، وبما يتوفر عليه من منظمات سياسية وهيئات متعددة للدفاع عن الانسان وحقوق المواطنين .. اذا كان هذا العالم يرزح تحت نير الظلم والاضطهاد ، ومآسي التجهيز والنفي الجماعي ، فما احرى ان يكون أولئك المنهزمون من فلول الاندلسيين المسلمين الذين سقطوا تحت وطأة الدونية على يد خصوم متعصبين من رجال الكنيسة وبالاخص من رهبانية (الجزويت) والفرق المتعصبة وبالاخص كذلك من الذين لم يكونوا رجال دين مسيحي بقدر ما كانوا حاقدين

متعطشين الى الدماء تحت ستار ديانة الرحمة والمحبة ، والايمان والزهد .. فما احرى ان يلاقي هؤلاء المسلمون من صنوف القتل والتعذيب والضعة والهوان دون ان يتحرك احد لنجدتهم والتشهير باعمال اعدائهم ، وكشف النقاب عما يلاقون من عذاب .

لم يكتف المنتصرون من سلب المنهزمين المسلمين اموالهم وديارهم ومتاعهم وتوزيعهم في البلاد وحرق كتبهم ووثائقهم ، ومن امر بتغيير زيهم وعاداتهم ، ومحو تراثهم وتعطيل اعرافهم .. بل امروهم ان يتخلوا عن معتقداتهم التي كافحوا من اجلها قرونا بل لم يكتفوا بذلك ، فأمروهم باعتناق المسيحية اذ بدت مصلحة في تعميدهم ثم اتهامهم بالصبوة الى دينهم ليعملوا خدما في حقولهم .. واخيرا شق على هؤلاء المنتصرين ان ينظروا الى هؤلاء الذين يحمل وجودهم تاريخا عظيما ، فشردوهم في البلاد ، وقطعوهم في الارض امما ، وقدموا بهم الى البحر ليلاقوا من قرصنتهم ما بقي عليهم ان يلاقوا من المحن بعد ان سلبوهم ما لهم من مال ومتاع ، وقدرة صحة على مواجهة الخطوب .

وما تزال الحفريات الاسبانية تطالعنا من حين لاخر عن كشوف المقابر الجماعية لهؤلاء المعذبين في الارض .. وقد نقلت الينا Le Matin de Paris في شهر يوليوز آخر هذه الكشوف .

لقد سلطت الكنيسة محاكم التفتيش او ديوان التحقيق الذي أعطى صفة القداسة وتأييد العرش الكاتوليكي على هؤلاء ، فعذبتهم سرا وعلانية بما اغدقه الخيال المسيحي على محترفي المسيحية .. فكانت أعظم مأساة عاشها (الانسان المسلم) في بلاد لم يقدم لها الا ثمرة حضارة انسانية سامية .

وتبدا مأساة الموريسكوس ، عندما سقطت غرناطة في يد ايزابيلا وفردیناند ، حيث شعر الشعب المسلم ببداية المأساة رغم الوعود الكاذبة باحترامهم، واخذ كثير من المسلمين يغادرون بلادهم الى المغرب كلما تنكر لهم الدهر ، كما وقع يوم ثورة (الربض) على الحكم الاموي .. ووصف لنا مؤلف (اخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر) المؤلف سنة 947 هـ ــ 1540 م هجرة الاندلسيين بعد سقوط غرناطة حيث كانوا يتركون ديارهم الى بلاد المغرب في (جماعات) تستقر كل واحدة منها بمدينة من المدن المغربية ، بعد ان يبيعوا ما خف من المتاع بابخس الاثمان ، فيؤثرون السكن في المغرب (بالمدن) الصغرى او (القرى) واحيانا المدن المهجورة حتى يستطيعوا ان يكونوا مجتمعا ملائما لحياتهم .. فسكان مالقة اختاروا مدينة (باديس) ، واهل مرية مدينة تلمسان ، واهل الجزيرة مدينة طنجة ، واهل بلش مدينة (سلا) ، واهل طريف مدينة آسفي وازمور .. واستاذن المنظري في تعمير مدينة (مرتيل) وبناء مدينة (تطوان) .

ان هجرة هؤلاء جميعا بعد سقوط غرناطة دليل على شعورهم بما سيلاقون على يد (الكنيسة) المتلهفة الى السفك والتعذيب والايقاع بالمسلمين وسلب ثروتهم ، واستغلال مقدرتهم وعملهم ثم تشريدهم ونفيهم .

لقد كانت الفترة الاولى من سقوط (غرناطة) ، فترة اعتدال سياسي أراد بها (فرديناند وايزابيلا) ان يهضما الى حين (الانتصار الكبير) لينقضا على الفريسة بكل قواهما .. كما كانت فترة اندماج بعض عناصر البرجوازية الغرناطية التي اختارت اعتناق المسيحية والتخلي عن المسلمين ، وهي جماعة من الامراء والوزراء والمترفين .. الذين تنكروا للشعب الغرناطي المسلم واخلصوا بعد ذلك للمسيحية والعرش الاسباني ..

وبعد هذه المرحلة اصبح من السهل ان تدمر (معاهدة السلام) التي اعلناها (فرديناند) و (ايزابيلا) قبل تسليم غرناطة والتي يلتزمان فيها بتأمين المسلمين على انفسهم وامتعتهم واحترام دينهم وشعائرهم .. فقد كانت مجرد عهود كاذبة .. وخداع ليستسلم المسلمون بعد ان عجزت السلطة المسيحية عن مقاومتهم وتفريق كلمتهم ، حتى اذا اطمأن الى ضعفهم سلط عليهم الكردينال خمنيس بتنظيم الارهاب (العقائدي والديني) وقتل (النخبة) ، واحراق الكتب والخزائن ، وتدمير الجماعة الاسلامية بالنفي والتهجير والتعذيب .. بعد استنزاف طاقاتها وقدراتها الفكرية والمالية والادبية .

لقد ادان المؤرخون المسيحيون انفسهم اعمال (خمنيس) الاجرامية .. ولكنها ادانة (لفظية)

فقط ، فما يزال خمنيس يعتبر في تاريخ رجال الكنيسة الاسبانية من الآباء الروحيين ، وهو الذي حاكم (الكتب) الاسلامية كما حاكم المسلمين ، واحرقها كما أحرقهم ، وأباد امجاد ثقافة انسانية ليحل مكانها الاسترقاق والظلم ، والاغتصاب والجهالة والانحراف .

وهكذا ظهر (الموريسكوس) كشعب مسلم يقاوم في السر والعلن مظاهر الابادة الفردية والجماعية في اصرار لا مثيل له . فلجأت الكنيسة والعرش الاسباني الى الاغراء وذلك بالابراء من القيود المفروضة على الموريسكوس على كل من تنصر ، تلك القيود التي تعني (ضريبة الراس) و (الغرامة) المفروضة على كل الموريسكوس .. ومضايقتهم جميعا بالدخول على منازلهم في كل وقت وحين ، وعدم الاعتراف بعقودهم المحررة باللغة العربية ، وفرض الخدمة عليهم وعدم السماح بتنقلهم ، ومنعهم من حمل السلاح ، واقامتهم بحي خاص بهم . وفعلا تنصر سكان حي الموريريا Moreria في غرناطة وبسطة وأهل وادي الكرين ، عساهم ينجون من العذاب . ورغم هذه (المؤامرة) الهادفة الى ابادة الشعب المسلم .. فقد ظل (الموريسكوس) صامدين في وجه الكنيسة والحكم الاسباني .. فقرر ملك اسبانيا سنة 904 هـ اجبار التنصير ..

ولجأ (الموريسكوس) الى مذهب (التقية) الشيعي ، فتظاهروا بالمسيحية واستبطنوا الاسلام ، وكان العالم الاسلامي في صبب الانحدار فلم يستطع استنهاض الهمم لمقاومة (التنصير) ولم يزد الكتاب والحكام من ترديد الآهات على ديار الاسلام !!!

واعلن ملك المسيحيين في اسبانيا ان (الاسلام بها) ولهذا فلا عهد بينه وبين المسلمين ، فمن يشاء أن يتنصر ، ومن شاء فليدخل الى عالم الجحيم .. او يهاجر اذا استطاع او سمح له بالهجرة .

ووجدت الكنيسة الفرصة مواتية لاستعباد (هذا الشعب) ولهذا فقد كان مبدأ (التنصير) يخفي أعظم جريمة عرفها التاريخ ، وهي جريمة ابادة شعب والقضاء على حضارة انقذت أوربا من التخلف الفكري والديني والثقافة البدائية وعصر السحر والكهانة .. ولذلك فقد حرر (ديسا) المحقق العام تشريعا لحرب الابادة وسماه (محكمة التفتيش) او (ديوان التحقيق او التفتيش) يضم لجنة ملكية للتحقيق ، كما هو الشأن في (قرطبة) .. وكانت (محكمة التفتيش) تعني الظلم والافتيات والتآمر ، والاهانة واغتصاب النبلاء والجيش وحتى الرهبان لاعراض المسلمات .. كما كانت وسيلة لاستعباد الناس وعملهم بدون مقابل الا بالاحتقار والاهانة ..

ووجد (الموريسكوس) انفسهم أمام مؤامرة جديدة فقرروا (الثورة) الداخلية .. و (الاستعانة) بتدخل الدول الاسلامية ومؤازرتها ومساعدتها من جهة الشواطىء الاسبانية .

فقد لجأ القاضي ابن الازرق الى تونس ومصر لطلب المعونة من قبل ، ولكن الخلافات بين رؤساء الدول الاسلامية في مصر وتونس ، والخلافة العثمانية حال بين التدخل الفعلي ، ولم يزد الخليفة العثماني عن ارسال وفد يطلب من السلطة المسيحية المتغطرسة بحق الرعاية فكان الرد ببعث وفد لتطمين الملوك المسلمين على مصير (الموريسكوس) المنكوبين ! .

وركب ((الموريسكوس) الطريق الصعب ، واعلنوا الثورة التي ذكرت (المسيحيين) بأمجاد المسلمين الحربية .. فاخمدت الثورة باعلان العفو عن الثوار شرط اعتناق المسيحية في ظرف ثلاثة اشهر ، أو مغادرة اسبانيا متنازلين عن أملاكهم .

وبعد ذلك مارست محاكم التحقيق أبشع صنوف الارهاب والتزوير وتلفيق الحجج وانتزاع الاعترافات بالخديعة والمكر ، وقبول شهادة الاطفال والعبيد والنساء واعداء المتهم اذا كانت عليه علامة بل حتى (الاعترافات) التي يدلي بها المضطهدون سرا (للرهبان) تعتبر تهمة يحقق في شأنها . ومنذ سنة 1242 م ومحاكم التفتيش تطارد المسلمين الاندلسيين ..

و (ديوان التحقيق) يهدف الى سحق (الموريسكوس) حيث يعمل بشرعية تامة وموافقة (البابا) الذي أصدر منشورا باقراره سنة 1478 م، وتابعت الكنيسة الاسبانية تنظيم مجلسه وتنظيم وظيفة المحقق العام .

والعجيب ان (ديوان التحقيق) اصبح اعظم جهاز فى اسبانيا المسيحية ، حيث مزج فكرة القومية بالدين المسيحي ، ووجه السياسة الاسبانية، وملا (الخزانة) بالاموال المسلوبة ..

ولقد تعودت الكنيسة الرومانية ان تحول الاضطهاد العسكري الروماني المالوف الى (اضطهاد فكري) بدعوى المحافظة على صفاء العقيدة ..

واستعملت لذلك كل اساليب الارهاب والتعذيب كما كان فى عصر الوثنية الرومانية تماما ، ثم تكونت محاكم للتفتيش توالي الاشراف عليها الآباء الدومنيكيون والفرنسيسكانيون الذين حولوا الاديرة الى سجون للتعذيب والارهاب حتى يقيدون المتهمين (بالاغلال) الثقيلة فى بيوت مظلمة عفنة ، واحيانا يبنون على (المتهمين) اسوار حجرية ليلاقوا (المصير) فى عذاب الاختناق والجوع والعطش ..

واستفادت الكنيسة من مصادرة الاموال ، ثروة طائلة ، كما استكانت الى الخزعبلات من مقاومة رجال الفكر الاحرار الذين كانوا يلاقون العذاب باسم المروق عن الدين ، واصبح منصب (المحقق العام) اعظم منصب ديني وسياسي ، متوفر على قوة مالية عظيمة مشرعة من الشعب المسلم مع اغتصاب اعراض النساء وسلب الاموال ، والتهديد .

كما أصبح (ديوان التحقيق) يصدر احكامه بالقتل والحرق دون مبرر او تشريع الا بابسط التهم ، وكان توماس (دي تركيمادا) المتوفى سنة 1498 م اكبر قس تولى كبر الظلم والاضطهاد ، بوسائل التعذيب المعروفة فى القرون الوسطى ، كتمزيق الارجل ، وكسر الفك ، وسحق العظام ، وسيل العينين .. ثم يتم الحكم بالحرق الجماعي فى القالب فى حفلات كبرى حيث يسير الضحايا فى موكب الاوتودافي Auto-Dafe يتلى الشعب ورجال الكنيسة (بالحرق الجماعي) .

ورغم جهود ديوان التفتيش لتنصير المسلمين ، فقد ظل هؤلاء مخلصين سرا للاسلام ، يظهرون عندما يعبدون فى الكنيسة ، ولا يعرفون للرهبان بأسرارهم . ولذلك صدرت وثيقة تدين المتنصرين وتحاكمهم من جديد بدعوى الصبوة الى دينهم القديم ، اذ اتهموا انهم قالوا بان المسيح ليس الاها ، وانما هو رسول ، او اذا تنظف او اكل اللحم يوم الجمعة ، او رفض اكل الذبائح المسيحية ، او ختن اولاده ، او انشد اغاني عربية ، او اقام حفل رقص عربية ، او غسل الموتى ، او كفنها .

والواقع ان المتنصرين لم يستسيغوا الديانة المسيحية وقد عبر عن هذا الاغراب الشاعر الموريسكي خوان الفونسو حين قال :

ايها الغراب الاسباني الملعون
يا ناشر الوباء ، ايها السجان البغيض
ها انت واقف بروسك الثلاثة
على ابواب الجحيم ..

وقد امر المعذبون ان ينظموا اللغة الاسبانية القشتالية ، ويعرفون (بالخميادو) اب المستعجمين ، وسمي ادبهم Al Aljamia (بالعجمية) .

وقبل طرد المسلمين بأكثر من ثلاثين سنة ، امر اسقف غرناطة ان يلزم ابناء المسلمين ابتداء من الخامسة من عمرهم الى سن الخامسة عشرة بتعلم الاسبانية وتلقي تعاليم المسيحية ..

لقد عانى (المتنصرون) من صنوف الغدر والتعذيب ما يشيب لهوله الصبيان ، وكان فرديناند هو الذي يتولى كبر سحق الشعب المسلم فى اسبانيا ، وممالاة محاكم التفتيش على اعمالها .. وكفى ان يكون نموذج السياسة الميكافيلية فيمجده ميكيافيل نفسه فى كتابه (الامير) ويتخذه مثالا يحتذى .. فلما توفى سنة 1516 م وجد (المسلمون) الفرصة سواء من العمال أو المزارعين فى الحقول للعودة الى تيه (الاطمئنان) فقدموا (لشارلكان) ملتمس التخفيف وعدم الاعتراف (بالتنصير) بالاكراه ... فكان الجواب بعودة الكنيسة الى الاضطهاد من جديد ، وكانت الثورة فى ضاحية بلنسية التي اخمدت بقوة النار والحديد .

والغريب ان النبلاء والاقطاعيين فى ولاية (الاراجون) تدخلوا لئلا يتنصر المسلمون فى هذه الولاية ابقاء على المزارعين والصناع خدما لا يرقون الى درجة (المسيحية) . ولم تلب الكنيسة مطلبهم

الانتهازي امعانا في سحق الاسلام في الاندلس ! ..
بل حرم على (الموريسكوس استعمال لغتهم ولباس زيهم القومي ، والاستجمام وفتح منازلهم ايام الجمع والا يتسموا باسماء عربية .

ورغم ان (شارلكان) واعد المتنصرين (بالمساواة) مع المسيحيين ، فان هذا الوعد لم يتحقق قط ، بل ظلوا يكونون طبقة مضطهدة مستغلة، بل حرمت الهجرة الى ديار الاسلام لحاجة المسيحيين لليد العاملة .

ولم تنفع (التقية) الدينية التي آمن بها علماء العرب الغرباء المؤمنون من ملاحقة محاكم التفتيش ، ولم تمنع من التنصير الجماعي والفردي ومن المطاردة والمحنة .

وكانت (التقية) توجيه ديني سني للحفاظ على الايمان بالقلب وتاويل القول والتستر في العبادة وتنليمات التشريع الاسلامي ، في العبادة والمعاملات والاحوال الشخصية . كما كان (التنصير) يهدف الى تحقيق مرحلة تغريب العقيدة واللغة والعادات ثم اذابة المسلمين كطبقة مستضعفة في الكيان الاسباني .

ولما عجزت (محاكم التفتيش) عن محو هذا الشعب وابنائه وتفويت حضارته وغسل دماغه وتعطيل شريعته ، استصدرت من السلطة قانون تحريم اللغة العربية والثياب العربية بصفة صارمة قاسية وذلك سنة 1566 م .. واعطى (للموريسكوس) ثلاثة اعوام لتعلم القشتالية ، ثم تمنع كتابة العربية بعد ذلك في العقود والالتزامات والرسائل .. ويحظر على المراة الحجاب والزي الاسلامي .

وحاول (الموريسكوس) ان يستنجدوا بالمغرب الذي كان يعاني ازمة سياسية حادة بعد سقوط دولة بني مرين ، كما حاولوا الاتصال بالاتراك، وامراء تونس وحكام القاهرة .

وكان المغرب مضطربا سياسيا واجتماعيا . بعد انحلال دولة بني مرين وبالاخص عندما تكونت امارة بن عبد الواد في (تلمسان) وبعد استيلاء العثمانيين على الجزائر .

فلما جاء السعديون ، عزم المنصور على تحرير الاندلس بالتعاون التام مع الاندلسيين .. ولكن (المنصور) لم يعمر طويلا ، فدخلت الدولة السعدية بعده مرحلة الانهيار .

وجاء (العلويون) ليجدوا كثيرا من المدن الشاطئية سقطت في يد الاسبان ، والبرتغال ، فلم يستطيعوا الا مؤازرة الاندلسيين في الجهاد البحري. وسعوا الى استيراد الكتب الاسلامية التي سلمت من الحرق . فارسل المولى اسماعيل رسالة الى دون كارلوس الثاني (كما في الاتحاف ج 2 – ص 63) ليبعث اليه بالكتب الاندلسية الموجودة في غرناطة وقرطبة وغيرهما في مقابل تحرير مائة أسير اسباني .

كما توجه الى اسبانيا السفير المغربي الوزير الغساني ، ففك الاسرى المسلمين ، وحمل كثيرا من الكتب الاندلسية .. كما في كتابه (رحلة الوزير في افتكاك الاسير) ، وكان الاسرى في الغالب من (الموريسكوس) الماسورين في الجهاد البحري .

ووجه المولى محمد بن عبد الله رسالة الى (كارلوس الثالث) لفك الاسرى المسلمين ..

وتحدث محمد بن عثمان المكناسي في كتابه (الاكسير في فك الاسير) في القرن الثاني عشر الهجري عن ذلك ، وهكذا لم يبذل المغاربة جهدا في مساعدة (الموريسكوس) نظرا للوضع الحرج الذي كان يعانيه (العالم الاسلامي) بعد خروج أوربا من (العصر الوسيط) ومحاولتها لاستعمار البلاد الافريقية والسيطرة على البحار .

وكان وضع العثمانيين في عهد السلطان احمد الاول (1603 – 1617) حرجا ، بسبب هزائمه البحرية في حروبه مع النمسا ومع فارس .. كما كانت الدولة تعاني ثورات في عدد من الولايات العربية والاوربية .. سيما وقد ظهرت قوة بحرية اسبانية وفرنسية وانجليزية فكان على الدولة العثمانية اعتبار ذلك كما كانت الدولة العثمانية تعمم علاقات طيبة مع هذه الدول حفاظا على مركزها وموقعها الدقيق وعندما قررت اسبانيا تصفية (الموريسكوس) باشراف (الدوك دولرم – Duc De Lerme
و (الكونت سالازار Conte De Salzare

ارتاعت دولة العثمان التي كان يكاتبها الموريسكوس والوسطاء مثل (جارونيموانرفاز Jeronimœnriguez .. ولا شك ان الدولة تدخلت سريا لنقلهم بالاساطيل والسفن البحرية بدليل هجرة بعضهم الى الدول العثمانية ووجود حي خاص بهم باسطمبول ، والمعروف ان السلطان احمد الاول بعث بالاميرال خليل باشا فى مهمة الى المغرب فوصل اليه بتاريخ 2 سبتمبر سنة 1613 كما ورد فى كتاب :

(Chntal de la Veronne « Relation entre le Maroc et la Turquie dans la seconde moitié de 16è siècle et le début de 17è siècle » en Revue de Loudent Musulman de la Méditerranée N° 15-16 Aix en Provence, 2è semestre 1973, P. 398).

ولا شك انها كانت فى موضوع محنة (الموريسكوس) لان الاتصالات السرية كانت مكثفة بين العثمانيين والموريسكوس .

كما سعى السلطان احمد الاول لدى بريطانيا وفرنسا والبندقية لتساعدهم وتسهل لهم الهجرة الى الدولة العثمانية .

وكلف السلطان (ابراهيم انما) بالتوجه الى لندن ، ومقابلة الملك جاك الاول لمساعدة (الموريسكوس) على الانتقال الى اراضي الدولة العثمانية ، ولكن ملك انجلترا نظرا لمعاهدة السلم بينه وبين اسبانيا ، وخوفا من اثارة غضب الكنيسة، لم يستجب رغبته . وارسل كذلك الى ملكة فرنسا ماري دي ميدسيس Marie de Medecis الوصية على ابنها لويس الثالث عشر ، رسالة بطلب مساعدة الموريسكوس المقيمين بجنوب فرنسا وتوفير وسائل نقلهم الى اراضي الدولة العثمانية فلبت الدعوة .

كما راسل دوق البندقية فى مساعدة (الموريسكوس) ، اجتياز الهجرة الى الاراضي العثمانية عن طريق بلاد مع مساعدتهم وعدم التعرض لاحوالهم وذويهم . كل ذلك فى مقابل مصالحة البندقية وتمديد المعاهدة معها .

ولا شك ان الاتصال كان جاريا باستمرار بين (الموريسكوس) و (الدولة العثمانية) بدليل وجود وثيقة محررة بتاريخ جمادى الاولى سنة 1023 تؤكد ان رغبة الموريسكوس فى سبب الهجرة الى الدولة العثمانية برا لا بحرا ، نظرا لان (لصوص البحر) يعترضون طريقهم .

وقد اثار الفقهاء فى المغرب جدلا عن جواز هجرة الموريسكوس الى بلاد الاسلام او المدجنين ، كما كان المغاربة يسمونهم . والف الونشريسي كتابه (اسنى المناجر فى بيان أحكام من غلبه على وطنه النصارى ، ولم يهاجر ، وما يترتب على ذلك من العقوبات والزواجر) .

ومن راي الونشريسي ان الهجرة من ارض الكفر الى ارض الاسلام فريضة الى يوم القيامة ، وكان بعض العلماء يفتي بعدم الهجرة ووجوب المقاومة .

وقد آثر الموريسكوس الاخذ بحديث (ان لا هجرة بعد الفتح) فقد بقي (الموريسكوس) فى الاندلس صامدين ينتظرون الفرصة المناسبة لاعلان الثورة بقيادة فرج بن فرج ، لتكون آخر مقاومة ..

وعمت الثورة انحاء الاندلس ، تحت قيادة (الدون فرناندو) ، وتمركزت بالبشرات (الارض الوعرة) المليئة بالقرى الموريسكوسية ، وهو من سلالة بني امية حيث توج سنة 1568 ، تحت اسم محمد بن امية ، وانتخب ابن فرج وزيرا وابن جوهر قائدا عاما للجيش ، وفشلت الثورة للمقاومة الوحشية التي لقيها الثائرون حيث مثل بابطالها فنزع لحمهم عن عظامهم احياء ، وذبح الاسرى والسجناء ، ذبحا (جماعيا) وشردت الاسر بتفريق الآباء عن أبنائهم ، والامهات عن بناتهم فى البلاد الاسبانية ..

وبعد قتل محمد بن امية خلفه ابن عمه مولاي عبد الله ، فعين فليب الثاني (الدون خوان) لسحق ثورة الموريسكوس . فاستسلم مولاي عبد الله سنة 1570 م ثم عاد للمقاومة اليائسة ، والتحريق والدمار والتشريد ومصادرة مايملكون ، وتوزيعهم على البلاد الاسبانية كلها .. وقتل قائد الثورة على يد بعض الخونة وحمله الى غرناطة لاعدامه (وهو المقتول) بصفة رسمية .

فسحقت (الثورة) ولكن الثقافة الاسلامية ظلت تتاجج فى عقل الشعب المسلم المغلوب على أمره ، فعبروا عن هذه الثقافة بأدب (الخميادو) أي باللغة القشتالية المكتوبة بالحروف العربية .

وتحول (الموريسكوس) الى شعب يعمل باستمرار فى ميدان الاقتصاد والتجارة والفلاحة ، وظلوا متماسكين يحيرون السلطة الاسبانية بذكائهم ودأبهم وتكاثرهم ، بل كانت لهم حملات سرية ، فاتهمتهم السلطة (بتزوير العملة) وتخريب الاقتصاد الاسباني .

ولم يمت هذا الشعب فى (اسبانيا) نفسها ، بل ظل متمايزا بشخصيته وثقافته ، يمارس دينه فى سرية وتكتم ويؤلف فى مختلف فروع المعرفة ، وكانت الثقافة (الالخامية) Aljamia ذات طابع عريق ، وظهر ادبهم (الروماني) كأروع ادب اسباني، كما كتبوا القصة الادبية والملحمة التاريخية ... وظلوا يكونون (جماعة) ذات اتجاه سياسي مشبع بروح الثورة والحرية .

بل الف الموريسكوس (بالالخمادو) (رحلات حجازية) مما يدل على أن بعضهم كان يحج (سرا) الى الديار المقدسة . ومما نعرف من هذه الرحلات، رحلة (حاج بوي منتون) التى قام بها صاحبها من بلده الى بلنسية فتونس فمصر فالحجاز مع وصف لمكة والمدينة .

كما كتبوا قصصا فروسية كحكاية المقداد . وقصة مدينة النحاس والقماقم ، وقصص الصالحين، وقصة يوسف وزليخا ، وقصة ذو القرنين .

كما كتبو قصصا فروسية كحكاية المقداد

ونشر (الموريسكوس) زجلهم الغنائي فى الاندلس وايطاليا وانجلترا وفرنسا ، وكان خوان رويت الموريسكي Juan-Ruiz نائب الاسقف بناحية هيتا من المع الكتاب فى هذه الموضوعات ، ومن امثلة ذلك الرسالة التي وجهها (تروتاكونفيينتوش) الى المراة المغربية ، ومن الالحان والاشعار التي وضعها للراقصات الموريسكيات ، ومن أشهر انتاجه قصيدة (القديسة مارية) .

ومن اشهر الاغاني الموريسكيات ذات التاثير فى الادب الاسباني اغنية العربيات الثلاث ومن عشقت ثلاث فتيات عربيات :

فى جيـــان
عائشـــة وفاطمـــة ومريـــم
ثلاث عربيـــات بالفات الجمـــال
ذهبـــن يجمعـــن الزيتـــون
فوجدتـــه قـــد جمـــع فى جيـــان
قلت لهن من أنتـــن ايتهـــا الفتيـــات
عائشـــة وفاطمـــة ومريـــم

وفى ديوان (كالدرون) حين يعد الموت انشودة باكية يقول فيها :

على الرغـم مـن الاسـر التعـيس
الذي أراده الله لنا بتقدير خفي عـادل
فاننا نبكـي عزلـة الدولـة الافريقية

وظل الموريسكوس على اتصال مستمر بالمسلمين فى افريقيا كما كانوا على اتصال مع هنري الرابع ملك فرنسا ، وانشاوا سفنا جهادية خارج الاندلس لتهاجم المملكة المسيحية الاسبانية ، واعانتهم السفن التركية والمغربية على الانتقام المسيحي ، وحمل الموريسكوس الى ديار الاسلام .

وظهرت حركة التحرير فى البحر بقيادة زعماء الموريسكوس ، مثل بلانكو واحمد أبو علي وغيرهم كثير .

واصبح (الجهاد البحري) ميدانا خصبا يفتح باب الآمال .. وحاول (الموريسكوس) ان يساعدوا المولى زيدان السعدي لغزو الاندلس بعد ان ارتكب اخوة الشيخ المامون خطأ طلب مساعدة فليب الثالث للحملة على اخيه زيدان مقابل تسليمه العرائش ، (كما وقع فى معركة وادي المخازن) .

وفى نفس الوقت عجزت (محاكم التفتيش) عن قتل هذا النفس العظيم ، فقر راي السلطة المسيحية فى اسبانيا ان يتخلصوا نهائيا من الموريسكوس ، الا باغراقهم جميعا فى البحر او حرقهم جميعا او اخذهم للعمل فى السفن ومناجم الهند .

وتمت اصدر مجلس الدولة الاسبانية سنة 1609 م امرا بنفي الموريسكوس جميعا من بلاد اسبانيا الى افريقيا واوربا مع استبقاء ستة فى المائة للعمل فى حقول الارز والسكر وتنظيم الري وصون المنازل ، وهكذا أخذ (الموريسكوس) يشدون امتعتهم وتحملهم السفن الى بلاد افريقيا وجزر الخالدات كما تحمل السفن اليوم الفتاميين

الضائعين في البحر الهادي تتقاذفهم الامواج ليلاقي من نجا منهم الى المراسي الامر بالعودة للموت في اعماق البحار .

وكان معظمهم يسير في قوافل للشواطىء ليهاجروا الى المغرب ، حتى تهاجمهم العصابات ، لتفتك بالاعراض وتقتل الصبيان وتبيع الفتيات والفتيان في سوق النخاسة .

استقبلتهم اوربا في عهد هنري الرابع الذي سمح لهم بالاقامة وراء نهر الجارون . واستقبلت الثغور الايطالية بعضا منهم ، وكانوا يلاقون الاضطهاد من المسيحيين اينما حلوا واين ارتحلوا ..

بل ان جماعات منهم نزلت في وهران فاعتدى عليها الاعراب بالسلب والنهب .

وتجاوز عددهم ثلاثة ملايين حسب بعض الروايات أو تجاوز (المليون) ولكنهم ظلوا يمثلون شعبا عريقا يستحيل تدميره .. وانتشروا في العالم كله ، فقد حملتهم السفن (باسماء) اسبانية مسيحية الى امريكا الجنوبية ، والى جزر الهند الشرقية ، والى جنوب افريقيا .. وكانوا يعيشون (أمراء) البحر الاسباني بتقارير ضافية وخرائط بحرية علمية، فاكتشفت اسبانيا العالم الجديد ، بفضل تقاريرهم ومغامراتهم .. ونسبت تلك الكشوف الى أمراء البحر المشهورين .

ان مسلمي (الفلبين) من هؤلاء وجزيرة (المور) تحمل اسمهم وتؤكد شخصيتهم بوضوح ... كما ان عديدا منهم بالارجنتين والبرازيل وغيرهما من بلاد امريكا الجنوبية .

ونزح بعضهم الى (امريكا الجنوبية) ، بعد اكتشافها أوائل القرن السادس عشر سنة 1516 م، وبالاخص في الارجنتين ، وقد كان هؤلاء هم المخططين لهذه الاكتشافات للبحث عن عالم جديد يأويهم بعد ان ضاقت بهم الحياة في اسبانيا او بعد ان رفضوا الدخول بقلوبهم الى المسيحية ، فوجدوا في هذا العالم متنفسا لعقيدتهم وكان منهم نفر من بني رزين حكام شرق الاندلس . وقد تابعت الكنيسة هؤلاء وضيقت عليهم الخناق وذوبتهم في هذه المجتمعات الثابتة ، وما تزال (الارجنتين) تأوي التقاليد الاسلامية العربية ذات الطابع الاندلسي الى يومنا هذا .

ولست أدري كيف غفل المؤرخون ان يربطوا بين نفي الاندلسيين ، وهزيمة المسيحية في معركة وادي المخازن على ارض المغرب ..

فمعركة وادي المخازن كانت معركة فاصلة بين المسيحية والاسلام .. فمنذ هزيمة البرتغال في هذه المعركة ، تغيرت النظرة الاجتماعية والسياسية الى (الموريسكوس) وشعرت المسيحية بمشروع السعديين بالعودة الى الاندلس ، وخشيت من التعاون بين الاندلسيين في الداخل والمغاربة وتوقعت الهجوم من الخارج بمؤازرة الداخل ، فانظرت قليلا لتتلخص نهائيا من المسلمين .

و (تأخرت اسبانيا) بعد نفي (الموريسكوس) من ارضها ، ويقول (ريشليو) الذي عاصر مأساة نفي الموريسكوس : « ان مأساتهم اشد ما سجلت صحف الانسانية جراة ووحشية » . ويقول أيضا ، « انه اعرق في الجراة والبربرية مما عرفه التاريخ في اى عصر سابق » .

ويقول الدكتور لي : « ان تاريخ الموريسكوس لا يتضمن فقط مأساة تثير ابلغ عطف ، ولكنه أيضا خلاصة لجميع الاخطاء والاهواء التي أعدت لتتحدر باسبانيا في زهاء قرن من عظمتها ايام شارل الخامس الى ذلتها في عصر كارلوس الثاني » .

والحق ان (اسبانيا) باتفاق المؤرخين عانت اعنف الازمات بعد نفي الموريسكوس . حتى ليقول المثل الاسباني (حيث لا عرب لا فائدة) .

لقد ظلت (الحضارة الاسبانية) تسير في نفس الحضارة الاندلسية التي ذبلت بعد نفي (الموريسكوس) وتأخرت الفلاحة والصناعة وضعفت التجارة ، وقلت الموارد المالية وبقيت ملامح الثقافة الاسلامية باهتة متحولة الى ثقافة (فلكلورية) وصفها كل المؤرخين الذين تجولوا في اسبانيا . فقد وصف السفير الغساني (سنة 1691 م) ، عوائد الاندلسيين المسيحيين التي ما تزال به مسحة اسلامية كالذبح بيوم عاشر ذي الحجة ، وتحجب النساء وغير ذلك ، كما ذكر شكيب ارسلان في حاضر العالم الاسلامي ، كثيرا من هذه الحالات بل ظلت بعض القرى الى القرن التاسع عشر تتكلم باللغة العربية .

(يتبع)

الايديولوجية الاجتماعية

عند الشيخ سيدي عبد السلام ابن ريسون

للأستاذ محمد العربي الشاوش

توطئـــــة :

اعتبر نفسي من المحظوظين السعداء الذيـن نالوا شرف التحدث عن السيد الشريف الشيـخ سيدي عبد السلام ابن ريسون (1) فى الذكرى المائوية لالتحاقه بالرفيق الاعلى رضي الله عنه ، وقد ينطبق على الكاتب كلام الامام البوصيري فى همزيته اذ قال:

واذا سخر الالـه اناســـا
لسعيد ، فانهم سعـــداء !

فالكاتب الذي سخره الله للمساهمة فى احياء أمجاد شخصية بارزة شريفة مجيدة كشخصية السيد رضي الله عنه سعيد اذن ، ومغتبط بهذه المناسبة التذكارية الشريفة التي تقيمها الاسرة الريسونيـــة النبيلة ، واصحاب السيد الاوفياء الذين ورثوا هذا الوفاء للبيت الريسوني الشريف ، ولشخصية السيد اللامعة ، من الآباء والاجداد ، الذين قلدوه أمانـة روحية سامية فى اعناق الابناء والاحفاد .

ولست بعيدا عن اسرة السيد رحمه الله ، فانا واحد من الاحفاد الذين كان لآبائهم واجدادهم شرف القرب من السيد وآل بيته ، فقد كان جدنا المجاهد الحاج محمد الشاوش المتوفى سنـــة 1292 هـ ، 1875 م ، يتمتع بعطف السيد ورضاه الشريف ، وقد توج هذا الرضا والعطف بزواج السيد الشريـــف بالسيدة الجليلة فاطمة بنت محمد الشاوش ، فكانت نعم الزوجة لنعم الزوج ، اخلصت له واخلص لها الى ان اختاره الله لجواره سنة 1299 هـ — 1882 م ، وبقيت على العهد والوفاء لبيته واسرته الى ان لحقت به سنة 1307 هـ — 1890 م ، وطبيعي أن يكون هذا الحفيد الكاتب وفيا لجده الراقد بالزاوية الريسونية العامرة ، ووفيا لعمة والده التي كرست حياتها على خدمة السيد زوجها وزاويته حيا وميتا ، ووفيـــا لوالده الذي كان يجد فى الزاوية الريسونية الشريفة خير بيت يلجا اليه كلما شعر بالحاجة الى الراحـــة النفسية والهروب من متاعب الحياة وصخبهـــا الى رحاب الله الفسيحة فى الزاوية الريسونية ، وكأنه بذلك يصل رحما كانت الدوافع النفسية الاصيلـــة

(*) اقيمت فى تطوان حفلة ثقافية كبرى بمناسبة الذكرى المائوية لوفاة المربي الكبير الولـــي الصالـــح الشيخ سيدي عبد السلام ابن ريسون رحمه الله (16 شوال 1299 — 16 شـوال 1399) شارك نخبة من الكتاب والادباء فى ابراز مآثر الشيخ رحمه الله ومناقبـــه . وهـــذا نـــص العـــرض الاجتماعي الذي شارك به الكاتب فى هذه المناسبة التاريخيـــة .

(1) عرف الشيخ سيدي عبد السلام ابن ريسون فى المجتمع التطواني بلقب السيد فى حياته وبعد وفاته.

ترفعه الى وصله ، وكان بذلك رحمه الله يلقن أولاده دروسا ثمينة فى الاخلاص والوفاء وصلة الرحم .

الجانب الاجتماعي للسيد :

ولست انا الذي اخترت الكلام فى هذا الموضوع الموسوم بالجانب الاجتماعي للسيد الشريف رضي الله عنه ، ولكن اللجنة المشرفة على احياء الذكرى المجيدة هي التي اختارت لي هذا الموضوع وعهدت الي بالكتابة فيه ، وهو موضوع لو خيرت فى اختيار غيره من موضوعات المناسبة لاخترت غيره ، لما يتسم به من خطورة وشمولية من حيث هو موضوع اجتماعي ، خصوصا وأن الامر يتعلق بالحديث عن الحياة الاجتماعية لشخصية كبيرة هي شخصية السيد رضي الله عنه .

فالحياة الاجتماعية تعني عدة امور متداخلة يتصل بعضها ببعض كالسلسلة ، كلما اهتزت حلقة منها اهتزت بقية الحلقات ، وذلك ما ذكره الدكتور جميل صليبا فى معجمه الفلسفي نقلا عن ابن سينا فى رسالة الحدود اذ قال : « الاجتماع هو وجود اشياء كثيرة يعمها معنى واحد » (2) ، وكلمة « الاجتماعية » تعني فلسفيا العلاقات الاجتماعية ومجموع الصفات التي يميز بها الشيء الاجتماعي ، وهذه الصفات او الظواهر لا بد لها من أسباب تؤثر فيها وتكون سببا فى ظهورها ، وذلك ما ذهب اليه العلامة ابن خلدون المتوفى سنة 809 هـ ــ 1406م. فى مقدمته . وجاء بعده الكاتب الفرنسي مونتيسكيو المتوفى سنة 1755 م . ليؤكد تعليل ظواهر الحياة الاجتماعية بأسباب طبيعية . ثم جاء الفيلسوف الفرنسي اوغست كونت المتوفى سنة 1857 . ليقرر ان الظواهر الاجتماعية هي موضوع علم الاجتماع .

وهكذا يجد الكاتب نفسه واقفا وجها لوجه فى هذا الموضوع أمام علم الاجتماع أو « السوسيولوجيا» التي تفرض عليه ان يصنف الرجل الكبير الذي يتحدث عنه فى من تميزوا بمذهب اجتماعي خاص فى حياتهم . واصحاب المذاهب الاجتماعية الاسلامية الاصيلة هم صانعو الحضارة الاسلامية ، وهم رواد الفكر الاسلامي بما اشتمل عليه من كلام وتصوف واخلاق وسياسة ، وبما امتازوا به من تذوق حساس للمعاني الاجتماعية ، وتأويل رفيع للنصوص الاسلامية، واحساس رهيف بالاشارات الكونية ، وفهم عميق للتصرفات الانسانية ، ونقد دقيق للاوضاع السياسية، ولعل السيد الشريف حسب ما استفدناه من المصادر والمراجع زاخرة بمثل هذه المواقف الفكرية الفلسفية التي أشرنا اليها ، والتي تجعل منه شخصية اجتماعية نادرة فى القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي ، وهو القرن الذي اخذت فيه الاطماع الاستعمارية تتجه نحو المغرب بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1246 هـ ــ 1830 م . وهو القرن الذي فشت فيه الفوضى الاجتمعية والتصرفات الرجعية التي أدت الى تدهور الاوضاع الداخلية فى البلاد . وفى مثل الظروف العصيبة التي أشرنا اليها، كان رجال التصوف فى المغرب يقومون بأدوار هامة من أجل التوعية الاسلامية والمحافظة على الاصالة والمشروعية بمختلف الاساليب النضالية ، وكان رجل النضال الصوفي فى الفترة التي ذكرناها هو السيد الشيخ سيدي عبد السلام ابن ريسون رضي الله عنه. واذا كنا قد التزمنا للجنة المنظمة للذكرى بالاختصار وعدم التطويل بناء على التماسها ذلك ، مراعاة لتوقيت الحفل ، ولان مثل البحث يتطلب كتابا خاصا لا صفحات معدودات ، فانه لا مناص لنا من القاء الاضواء على بعض الجوانب الاجتماعية التي امتازت بها حياة السيد الشريف قدس الله سره .

الاديولوجية الصوفية للسيد :

ولا مناص لنا من الاشارة قبل كل شيء الى الاديولوجية الصوفية للسيد التي هي بحق الجانب الاساسي فى حياة سيدنا رضي الله عنه .

وعلينا أن نعرف اولا ان التصوف علم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة كما قال ابن خلدون فى مقدمته (3) وزاد قائلا وعضدته « دائرة المعارف الاسلامية » معتمدة على بحثي المستشرق لويس

---

(2) الدكتور جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ج 1 ــ ط. 1971 « مادة اجتماع » .
(3) مقدمة ابن خلدون : « علم التصوف » .

ماسينيون والاستاذ مصطفى عبد الرازق : بان التصوف ظهر في القرن الثاني للهجرة ، ولكن سفيان الثوري المتوفى سنة 161 هـ ـ 777 م . قال بانه عرف قبل الاسلام ، وكان ينسب اليه اهل الفضل والصلاح (4) .

ويرى الفقهاء بان التصوف دخيل في الاسلام ، مقتبس اما من رهبانية النصارى ، او من فلسفة اليونان ، ولكن المستشرق الانجليزي نيكلسون المتوفى سنة 1945 م. يرى ان هذا الكلام غير مقبول ، لان الانظار التي اختص بها الصوفية نشات في قلب الجماعة الاسلامية اثناء عكوف المسلمين على دراسة القرءان والسنة . ويؤكد هذا الكلام ما ذكره الامام ابو القاسم القشيري المتوفى سنة 465 هـ ـ 1072 م عن امام الصوفية وعمدتهم ابي القاسم الجنيد المتوفى سنة 296 هـ ـ 909 م . قال : من لم يحفظ القرءان ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الامر ، لان علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . وقال ايضا : مذهبنا هذا مقيد باصول الكتاب والسنة. وقال ايضا : علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (5) .

ويرى ابن خلدون ان علم الشريعة على صنفين: صنف مختص بالفقهاء ويتعلق بتفسير النصوص لاستخلاص الاحكام العامة في العبادات والمعاملات ، وصنف مختص بتاويل النصوص واستنباط المعاني ومجاهدة النفس ، وهو من اختصاص الصوفية (6). والتاويل يعتمد على رهافة الحس وصفاء النفس ، والتامل في ابعاد واعماق النص لتذوق معانيه ، ولذا قيل انه مشتق من الايالة اي السياسة ، فكان المؤول يسوس الكلام سياسة ليستنتج منه اشياء يصعب على غيره ان يستنتجها ، ومن هنا كانت كلمة تاويل ابلغ من كلمة تفسير التي تعتمد على اللغة والشرح .

وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لسيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنه فقال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التاويل » . ومن هنا نرى ان التاويل بالنسبة للفكر الصوفي يوافق المقصود من كلمة تصوف ، خصوصا وان الصوفي المؤول ، اى الشيخ المربي ، لا بد وان يكون له المام شامل بالعلوم الاسلامية ، وهو ما اكده الجنيد رضي الله عنه في مذهب التصوف .

وقد عرف العلماء التصوف عدة تعاريف ، من ذلك ما قاله ابن خلدون بانه طريقة سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين وغيرهم ، وهو طريقة الحق والهداية ، واصله العكوف على العبادة والانقطاع الى الله ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها . ويقول الجرجاني المعروف بالسيد الشريف المتوفى سنة 816 هـ ـ 1413 م في كتاب « التعريفات » التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ... وقال الجنيد : التصوف هو ترك الاختيار ، والصوفية هم القائمون مع الله تعالى بحيث لا يعلم قيامهم الا الله . وقيل ايضا : التصوف طريقة سلوكية قوامها الزهد والتقشف والتخلي عن الرذائل ، والتحلي بالفضائل ، وهو مسالة نفسية يشعر المرء فيها بانه على اتصال بمبدا اعلى (7) .

والتصوف ـ على الحقيقة ـ وكما قال الاستاذ مصطفى عبد الرازق : مشتق من الصفاء ، صفاء القلوب ورضاها بما يجريه الله عليهم ، فهم مع الله في صفاء لا يشوبه مشاغل ، وهذا يتفق مع قول الجنيد : التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى .

ومنهم من يقول بانه مشتق من الصوف ، او من اهل الصفة (8) وهذا جائز ، ولكن الانسب هو اشتقاقه من الصفاء كما تقدم . وقد قيل بأن اصل

---

(4) دائرة المعارف الاسلامية : ج 5 ، « مادة تصوف » .
(5) رسالة الامام القشيري : ص 20 .
(6) مقدمة ابن خلدون : « علم التصوف » .
(7) جميل صليبا : المعجم الفلسفي ج 1 ـ مادة تصوف .
(8) اهل الصفة : جماعة من الصحابة رضي الله عنهم كانوا يقومون في المسجد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

الاشتقاق من الصفاء هو صفوى ، فاستثقل اللفظ وقلب الى صوفي (9) .

ومنهم من يقول بأن الكلمة مأخوذة من كلمة « صوفي » اليونانية ، ومعناها « الحكمة » فيكون المقصود الصوفي هو الحكيم ، او الفيلسوف ، باعتبار ان كلمة « فلسفة » معربة من كلمتي « فيلوصوفي » اليونانيتين ، ومعناهما محب الحكمة . ومع أن الصوفي حكيم ، أو محب للحكمة حقيقة ، فان اشتقاق الصوفي من الصفاء اقرب الى التأويل الحكيم من غيرها . غير اننا نجد ما يؤيد مقولة احتمال تسمية الصوفي بالحكيم أو الفيلسوف ، وهو ما قاله الامام ابن القيم : اجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على ان التصوف هو الخلق ، وانه مبني على الارادة . وبهذا يكون التصوف عبارة عن نشاة علم الاخلاق الاسلامي . ولا يعزب عن البال ان مبحث الاخلاق ، ومبحث الارادة ، هما من مباحث الفلسفة العامة بمعناها القديم والحديث .

ويقول ابن خلدون بأن كرامات الصوفية واخبارهم بالغيبيات وتصرفهم الروحي ، أمر صحيح غير منكر ، وان قال بعض العلماء بانكارها فليس ذلك من الحق . ولكن الامام الشاذلي المغربي المتوفى سنة 656 هـ ـ 1258 م قال : اذا عارض الكشف الكتاب والسنة ، فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف ، فان العصمة مضمونة فى الكتاب والسنة . وزاد رضي الله عنه قائلا : بأن علماء الصوفية قد اجمعوا على انه لا يبغي العمل بالكشف ولا الالهام ولا المشاهدة الا بعد عرض ذلك على الكتاب والسنة ، فما وافق الكتاب والسنة فهو مقبول ، وما عارض الكتاب والسنة فهو مرفوض (10) ومقولة الامام الشاذلي رحمه الله توافق الحديث الشريف : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح . فقد يتطرق الشك فى كرامة من الكرامات ، لانها وان كانت من خوارق العادة فهي أمور بشرية ، والبشرية غير معصومة . اما الكتاب والسنة فلا يتطرق اليهما الشك بحال من الاحوال .

والواقع ان الكرامة من اكرام الله تعالى لقوم عرفوا الله تعالى واخلصوا له العبادة سرا وعلانية ، فصفت ارواحهم ، واستنارت عقولهم ، وتحرروا من قيد العبودية الا لله تعالى . ويقاس على الكرامة فى وقتنا ما يتنبأ به بعض المفكرين او بعض السياسيين الماهرين ، فيتحقق حدسهم بطريقة او باخرى ، ونسمي ذلك مهارة سياسية ، او صفاء روحيا ، او الهاما فكريا . اما اهل التصوف فيردون الكرامة الى الفيض الالهي ، او الى النور المحمدي ، او الى تألق النور الاعلى فى العقل الفعال ، وهو ما يعرف عندهم بالاشراق ، او بوصول النفس الى موافقة الحق ، وهو ما يعرف عندهم بالوصول . ومن الاقوال الاسلامية المأثورة : ان المومن ينظر بنور الله .

ولعل مفهوم الكرامة يتفق مع مفهوم البشرى فى قوله تعالى فى سورة يونس : « الا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » (سورة يونس : 62 ـ 63 ـ 64) . وقد بين الحافظ ابن كثير فى تفسيره بناء على الاحاديث الشريفة واقوال الصحابة والتابعين ، ان البشرى هي الرؤيا الصالحة فى الدنيا ، والجنة ونعيمها فى الآخرة . ومعلوم ان الرؤيا تكون فى المنام وتكون فى اليقظة ، وذلك مبسوط فى الدراسات النفسية الحديثة . فتكون الكرامة هي البشرى والله أعلم .

ولهم فى التصوف مراتب ، واشهرها مرتبة القطب ، والقطب هو راس العارفين . قال الامام الثعالبي المتوفى سنة 429 هـ ـ 1038 م صاحب كتاب « يتيمة الدهر » فى التعريف بأبي الفتح ابن جنى صاحب كتاب « الخصائص » المتوفى سنة 392 هـ ـ 1002 م « هو القطب فى لسان العرب ، واليه انتهت الرئاسة فى الادب » . اما القطب فى اصطلاح الصوفية فهو كما قال الامام الجنيد رضي الله عنه : من نطق عن سرك وانت ساكت !

ولا ريب ان هذه المقامات الروحية لا تدرك الا بالزهد والنزوع الى الخلوة للتأمل والتعبد ، لان

(9) دائرة المعارف الاسلامية ج 5 ـ تصوف .
(10) الطبقات الكبرى للامام الشعراني ج 2 ، ص : 5 .

الخلوة تكاد تكون أساسية فى حياة الصوفي . ولكن الاب ماسينيون المستشرق الفرنسي المتوفى سنة 1962 م يرد النزوع الى الخلوة فى مذهب التصوف الى ثورة الضمير على ما يصيب الناس من المظالم ، وظلم الانسان لنفسه فى طليعة تلك المظالم . وقد علمنا أن التصوف ظهر فى القرن الثاني للهجرة بعد انتشار المظالم وانحراف الانسان المسلم عن طريق السلف الصالح بانهماكه على ملذات الحياة واقتتاله على الحياة والسلطان ، فجاءت الصوفية لتعبر عن رفض هذا السلوك المنحرف بالعزلة والنزوع الى الخلوة . وقد ورد فى صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « قيل يا رسول الله ، اى الناس افضل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مومن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله . قالوا ثم من ؟ قال : مومن فى شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره » . قال الامام القسطلاني شارح البخاري : وفيه فضل العزلة ، والشعب كناية عن مكان الخلوة .

ولا يعني هذا اهمال المتصوفين لانفسهم شكلا او مضمونا ، ولا يعني هذا عدم تمتع الصوفية بنعم الله وما احل الله لعباده من الزينة والطيبات من الرزق ، فان التمتع بالنعم يقتضي شكر المنعم ، والشكر واجب شرعا فى حق المستفيدين من نعم الله تعالى ، وهو خصلة من خصال التصوف . والنعم التي اسبغها الله على عباده ظاهرة وباطنة هي أساس عمارة الارض ، وحسن استغلالها وتدبيرها هو أساس صلاح المجتمع البشري . ولكن الزهد والخلوة والعزلة وغيرها من المعاني الصوفية يراد بها عدم الاغترار بالدنيا وزينتها ، وتعني ان يعيش المومن فى الدنيا وكأنه غريب أو عابر سبيل كما جاء فى الحديث الشريف ، وتعني أن يملأ المومن الوقت الثالث بالطاعات المؤدية الى الفوز برضا الله تعالى .

ويجدر بنا ان نشير الى ان التصوف انتقل من المشرق الى المغرب فى عصر المرابطين ، اي فى القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي ، ثم ازدهر فى عهد الموحدين ، اي فى القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي على يد الامام ابي الحسن الشاذلي تلميذ العارف بالله تعالى القطب الشهيد سيدي ومولاي عبد السلام ابن مشيش المتوفى سنة 625 هـ — 1227 م . والامام الشاذلي هو عميد اغلب الطرق الصوفية فى المغرب العربي ، وقد سبقت الاشارة اليه اثناء هذا العرض .

وقد وجد التصوف فى المغرب تربة صالحة ، فانشئت الزوايا لتكون رباطات للجهاد وللتوعية الاسلامية . ثم ظهرت كقوى سياسية فى المجتمع المغربي منذ العصر السعدي اي فى القرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر الميلادي ، خاصة فى وقعة وادي المخازن وما بعدها ، حيث صار قوة سياسية لا يستهان بها قامت بأدوار هامة فى الشؤون السياسية والدينية والاجتماعية (11) .

واذا كان بعض المتصوفين قد انحرفوا عن منهاج التصوف الاصيل ، اتباعا لهوى النفس أو مجاراة لظروف سياسية أو اجتماعية ، فان ذلك لم يؤثر فى جوهر التصرف كعلم من العلوم الاسلامية ، وكمبحث من مباحث الفلسفة الاسلامية الاصيلة .

* * *

كان لا بد لنا من الاشارة الى هذه الحقائق لنستخلص منها الخطوط الرئيسية لايديولوجية السيد الصوفية بما اشتملت عليه من صفاء واشراق وكرامات وسلوك ديني اصيل . وهكذا كان رضي الله عنه صوفيا أصيلا جمع فى تصوفه بين الخلوة للعبادة والتأمل ، ولرفض المواقف المنحرفة كذلك ، وبين الجلسات الخاصة والعامة مع مريديه واصحابه للارشاد والتوجيه ، وبين مجالس العلم والفن والحضارة كذلك ، وفى ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن السيد كان ذا اتجاه فلسفي خاص ، مع انه كان سني العقيدة مالكي المذهب (12) ، ويبدو من اطوار حياته رضي الله عنه ان فلسفته كانت تتجه نحو القيم العليا أو ما يسمى فلسفيا بالاكسيولوجيا ، وهو المبحث المتعلق بالحق والخير والاخلاق والجمال .

(11) محمد خير فارس : المسألة المغربية ، ص : 29 — ط . 1961 .
(12) محمد داود : تاريخ تطوان — القسم 1 من المجلد 7 — ص : 106 .

وكان الى جانب ذلك مهتما بدراسة العلـوم الاسلامية فى مجالسه الخاصة التي كان يحضرهـا علماء وقته ، وكان يعبر عن رايه بالطرق التي يراها مناسبة ، فحينما اعترض احد العلماء على الامـام السيوطي صاحب كتاب « الاتقان فى علوم القرءان » اثناء مجلس من المجالس المخصصة لدراسة هـذا الكتاب ، غادر السيد المجلس واعتزل اسبوعيـن كاملين (13) وهي طريقة واضحة للتعبير عن رفضه للاعتراض على عالم ضليع خدم الثقافة الاسلاميـة خدمة جليلة كجلال الدين السيوطي رحمه الله . وهذا واحد من المواقف التي تدل على ان الاحتجاب والخلوة انما هي تعبير عن الرفض بطريقة فنية سلبية ، رفض الظلم ، رفض سوء الادب ، رفض المواقف الارتجالية الهوجاء . فللنقد أصوله وطرقه ، وللحوار أصولـه وادبه ، اما التهجم والارتجال فهو مما لا تقبله العقول السليمة كعقل السيد رضي الله عنه .

وظاهرة اخرى فى صوفية السيد ، وهي انهـا كانت صوفية ارستقراطية تتجلى فيهـا المظاهـر الحضارية التي كانت تحيط به سواء فى بيته أو فى زاويته . وهذا لا يتنافى مع اديولوجيته رضـي الله عنه . ويمكن القول بأن الطريقة التي سلكها هي طريقة صوفية بشيء من التجلوز كما قال الاستاذ محمـد داود مؤرخ تطوان حفظه الله (14) :

بيـت الامـة :

اما بيت السيد فقد كان بحق بيت الامـة فى وقته . يقصده العلماء والوجهاء والاشراف وابنـاء الشعب ، يجد فيه كل واحد ما يصبو اليه من عطف واحسان وضيافة وعلاج وبركة . ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان السيد رجلا اجتماعيا من الطراز الرفيع ، كما كان شيخ المدينة وسيدها ورائدها بدون منازع ، ولم ينازعه أحد فى هذه المرتبة طيلة حياته رضـي الله عنه ، وقد حدثتني خالتي السيـدة الفاضلـة الحاجة خدوجة بنت العربي اللبادي حفظها الله عن زوجها الشريف المرحوم سيدي محمد بن الحسني البقالي المتوفى سنة 1358 هـ ـ 1939 م وهو من اقرب المقربين الى بيت الامة وتلميذ السيـد فى الطب ، ان السيد الشيخ كان حسن الهندام ، يختار ملابسه من أجود الثياب وانفسها ، وأن بيته كان بيتا نبيلا فى المظهر والمخبر . وكان السيد يقابل الناس ويقضي حوائج المسلمين وينفعهم بما تيسر له مـن علم أو نصيحة او ارشاد أو علاج أو مساعدة . وهذا العمل الانساني الكبير يتفق مع الحديث الشريف : « من نفس عن مومن كربة من كرب الدنيا نفس اللـه عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ... » رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا .

واذا قيل بأن كل عظيم وراءه امراة ، فقد كانت السيدة فاطمة بنت محمد الشاوش الزوجة الاخيرة للسيد الشريف هي المراة التي ساهمت فى اعطـاء بيت السيد ما يليق به كبيت ارستقراطـي مجيد ، ووفرت للسيد زوجها الراحة والنظام والوقت اللازم لخلواته ومجالسه ، بسهرها على تدبير شؤون بيتها تدبيرا يتفق مع تربيتها النبيلة وحضارتها العريقة . وقد وصفها الاستاذ محمد داود فى تاريخه بأنها كانت فريدة فى جمالها وحسن اخلاقها (15) . وقد أخبرنا والدنا المرحوم الفقيه سيدي احمد بن عبد السلام الشاوش المتوفى سنة 1370 هـ ـ 1950 م بانطباعاته عن بيت السيد حيث كان يزور عمته وهو طفل ، فيجد عمته عمته كأميرة فى بيت أمير . وكانت تنفحه بعلب من الحلويات الممتازة التي لم تكن معروفة فى تطوان .

ولم يكن السيد يفكر فى تخليد أثر من مآثـره العديدة اكثر مما كان يفكر فى استمرار قيام زاويـة اسلافه واستمرارهـا فى اداء واجبهـا الدينـي والاجتماعي حتى بعد وفاته ، وذلك ما دفعـه الى تحبيس جميع ممتلكاته على الزاوية المذكورة ، وهذه ظاهرة اجتماعية امتاز بها السيد رضي الله عنه (16)

---

(13) نـفس المرجـع ـ ص : 109 .
(14) تاريخ تطوان : ق 1 ـ م 7 ـ ص : 104 .
(15) نـفس المرجـع ص : 156 .
(16) تاريـخ تطوان : ق 1 . م 7 . ص : 157 .

وساهمت ارملته السيدة فاطمة فى هذه الميـــزة ، فأوصت للزاوية الريسونية فى تطوان بثلث متاعهـــا « من قليل الاشياء وكثيرها بما فى ذلك ربع غرسة كيتان التي آلت اليها من زوجها الصالح ، الكوكب الواضح ، المتبرك به حيا وميتا ، سيدي ومـــولاي عبد السلام ابن ريسون الحسني العلمي التطوانـــي افاض الله علينا من بركاته وبركات اسلافه الكرام.. » كما هو مبين ومفصل فى وثيقة الوصية المذكـــورة المؤرخة فى 23 ربيع الثاني سنـــة 1300 هـ . اى بعد ستة أشهر من وفاة السيد زوجها رضـــي الله عنه . وهذا منتهى الوفاء فى حياة زوجين كريمين صنعا على تقوى من الله ورضوان حياة اجتماعيـــة فاضلـــة .

واذا كان السيد يفكر فى استمرار قيام الزاوية الريسونية ، فلانها الزاوية التي حملت على عاتقهـــا مسؤولية الدعوة الى الله ، وتهييء النفوس للجهاد فى سبيل الله ، منذ القرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر الميلادي ، وظهـــرت نتائـــج جهودها النضالية فى معركة وادي المخازن ، حيث كان القطب سيدي امحمد بن علي ابن ريسون المتوفى سنة 1018 هـ ـ 1609 م فى طليعة المجاهدين الذين قادوا المعركة التاريخية ضد الاستعمار الصليبـــي الغادر ، فحققوا للاسلام عزته ، واعادوا للمغـــرب مجده وصولته . وسارت الزاوية الريسونية المباركة بشيوخها ومريديها منذ ذلك العهد فى الطريق التي اختطها مؤسسها سيدي امحمد بن علي رضي الله عنه، فاعطت عطاء قيما فى التصوف والجهاد ، وفى العلم والحضارة ، الى أن وصلت الامانة الى يد القطـــب سيدي عبد السلام الذي كان جوهرة لامعة فى قبـــة هذه الزاوية العظيمة ، وكان السر المكنـــون الذي أعطى للزاوية الريسونية الاشراق والبهاء ، كما كان الضمانة النورانية لترسيخ هذه الزاوية فى حياتـــه واستمرارها بعد وفاته استمرارا ناطقا بالمجد والاصالة نابضا بالطهارة والايمان .

الزاويـــة فى خدمة العرش :

وكانت علاقات اقطاب الزاوية الريسونية مـــع العرش العلوي المجيد تتسم بالولاء والطاعة والاخلاص، كما كان ملوك هذه الدولة الشريفة منذ عهد السلطان المقدس مولاي اسماعيل رحمه الله يقابلون وفـــاء الزاوية الريسونية بعطف بالغ وتقدير كبير ، حيث كانت مواقفها السياسية والوطنيـــة تتسم بالنبـــل والذكاء مع الطاعة والولاء (17) .

وقد ورث القطب سيدي عبـــد السلام ابـــن ريسون هذا السر المقدس فيما ورثه عـــن آبائـــه واجداده ، فكان رضي الله عنه يناضل من اجل وحدة البلاد وجمع كلمة الامة على امام واحد هـــو أميـــر المومنين . وكان فى كل مناسبة يحض اصحابهمن ذوي الوظائف المخزنية على محبة السلطان والنصح له فى السر والعلانية ، مع الصدق والنزاهة فى خدمـــة الراعي والرعية . وقد روى مؤرخ تطوان الاستـــاذ داود حفظه الله عن معاصره الوزير النقيب المرحوم سيدي محمد بن المكي الريسوني بلفظه عن الخيـــرة الدينة السيدة فاطمة بنت محمد الشاوش رحمها الله ان السيد زوجها كان مواظبا على الدعاء لملك الوقت بالتوفيق والتأييد فى أوقات الاجابة ، خصوصا فى وقـــت السحر (18) .

وقد سارت السيدة فاطمة على نهج زوجها بعد وفاته ، وحظيت برعاية السلطان المقدس مـــولاي الحسن الاول وعطفه الكريم . وكانت بينه وبينهـــا مراسلات هامة فى شؤون اجتماعية مختلفة توجت بالاستقبال الخاص الذي شرفها به بمحضر نجلـــه الامير عبد العزيز ، أثناء زيارته التاريخية لتطوان فى شهر المحرم سنة 1307 هـ ـ 1889 م . حيث جدد لها التعازي فى السيد زوجها جدد الله عليه الرحمات، واعرب لها عن عواطفه المولوية الكريمة نحوها ونحو الاسرة .. واخبرنا الوالد رحمه الله بأن الامير مولاي عبد العزيز كان وقتئذ فى حدود العاشرة من عمره . وقد تألقت شخصية السيدة فاطمة فى تلك المناسبة التاريخية حيث اعطت من ثقافتها وسلوكها نموذجا

---

(17) احمد بن الامين الريسوني : حقائق تاريخية عن زاوية تازروت ، ص : 22 .

(18) تاريخ تطوان : ق 1 . م 7 . ص : 120 .

حيا لوعي المراة التطوانية وديبلوماسيتها فى القرن التاسع عشر الميلادي .

مدرسة السيد السياسية :

كل ما اشرنا اليه يعطينا نظرة واضحة عن اثر مدرسة السيد التي تخرج منها زيادة على اسرته واهل بيته شخصيات بارزة من خواصه الذين قاموا بمهمات سامية فى الحكومة المغربية بتزكية السيد او باقتراح منه ، ويمكن القول بأن هؤلاء الخواص كانوا بمثابة الديوان السياسي للسيد ، وبواسطتهم كان السيد حاضرا فى أهم المواقف السياسية والديبلوماسية حتى ان نجاح السفير المرحوم الحاج عبد الكريم بريشة المتوفى سنة 1315 هـ ـ 1897م فى مواقفه الدبلوماسية وهو من خواص السيد ، يعزي الى « بركة الولي الصالح سيدي عبد السلام ابن ريسون نفعنا الله به » كما ورد فى رسالة الوزير الاول فى حكومة الحسن الاول الى السفير المذكور (19) .

والذي استفدناه من مواقف السيد انه كان رجلا خبيرا فى الشؤون السياسية ، بل ان مواقفه السياسية اثرت كثيرا فى السياسة العامة للبلاد . ولا غرابة فى ذلك ، فالسياسة هي قمة الحياة الاجتماعية .

وعلينا ان نقول بان السياسة تكون شرعية مستمدة من الدين ، وتكون مدنية مستمدة من الحكمة السياسية أو علم السياسة . والسياسة الشرعية لا بد وان تتاثر بالسياسة الحديثة ليصدق التعريف الفلسفي للسياسة وهو : تنظيم المجتمع الانساني ، ورعاية مصالح الامة ، والتخطيط لعمارة الارض . وكما تطلق كلمة السياسة على اساليب الحكم لرعاية المصالح وتدبير الشؤون وعمارة الارض ، كذلك تطلق على سياسة المرء لنفسه وأسرته ومتاعه (20) .

واذا كان التصوف الاصيل قد قام على اساس رفض العبودية الا لله تعالى وحده ، مع السعي فى اصلاح المجتمع بالرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله ، فهو اذن سياسة شرعية تقوم على تذوق المعاني الشرعية تذوقا عميقا تصدر عنه اشارات فى منتهى الدقة والحكمة ، وبهذا يكون الذوق السليم هو القاسم المشترك الاعظم بين التصوف والسياسة . وبذلك يكون الصوفي الاصيل سياسيا أصيلا كذلك ، وهذا هو السر الرباني الذي امتاز به السيد رضي الله عنه .

وقد كانت الحكومة المغربية تقدر مواقف هذا السياسي المتصوف الذي كان ركنا ركينا للدولة فى شمال المغرب . وذلك ما جعلها تنظر اليه كزعيم وطني محرك ومتحرك يتمتع بنفوذ واسع بين انصاره واتباعه الكثيرين . وذلك ما جعلها ايضا تعتمد عليه فى المواقف الكبرى كما حدث عند وفاة السلطان محمد الرابع سنة 1290 هـ ـ 1873 م ومبايعة ولده الحسن الاول فى نفس السنة المذكورة ، حيث بعث اليه رسالة خاصة لاخباره بهذا الحدث التاريخي ليكون من ذلك على بال ويكون عند حسن الظن به كما ورد فى الرسالة المذكورة (21) . وقد استطاع السيد رضي الله عنه بصفاء روحه ونظراته البعيدة ان يكون عمدة وبركة فى نفس الوقت ، وان يكون كذلك بمنزلة مستشار الدولة خاصة فى عهد الحسن الاول .

وكان السيد رحمه الله سياسيا فحتى فى سياحاته الصوفية ، فهو فى رحلته الى زرهون لزيارة مولاي ادريس الاكبر مؤسس الدولة المغربية الاسلامية فى القرن الثاني الهجري الموافق للقرن الثامن الميلادي ، ثم الى فاس لزيارة خلفه ووارث سره مولاي ادريس الازهر رضي الله عنهما ، انما كان يعبر بلسان الحال عن تعلقه بوحدة المملكة المغربية ، وتمجيده لمؤسسي هذه المملكة الاسلامية المجيدة . وهو فى رحلته الى مدينة سبتة الاسيرة ، وصلاته فى ضريح سيدي مبارك السبتي رضي الله عنه ، وترحمه على علماء سبتة ومجاهديها جدد الله عليهم الرحمات ، انما كان يعبر بلسان الحال ايضا

---

(19) علي الريسوني : ابطال صنعوا التاريخ ، ص : 50 .
(20) جميل صليبا : المعجم الفلسفي ج 1 . ص : 679 .
(21) ابطال صنعوا التاريخ ص : 46 .

عن رفضه لاحتلال هذه المدينة المغربية العريقة ، وقد تجلى ذلك بوضوح فى رفضه لمقابلة الوفـد الاسباني ، وكان الرفض كذلك بطريقة سياسية فنية، فهو لما بلغه الخبر بعزم اعيان سبتة من الاسبانيين على المثول بين يديه للسلام عليه والاحتفال بـه ، نادى بالرحيل فى الحين ، فما وقفت القافلة حتى وصلت الى الفنيدق (22) ويمثل هـذا السلوك السياسي الرفيع كان يلقن اصحابه دروسا نافعة فى الوطنية ، والنضال والاخلاص لله والوطن والملك .

موقف السيد فى حرب تطوان :

ولكن السيد رضي الله عنه حينما يصبح التراب الوطني مهددا من طرف الاعداء ينقلب الى مقـاوم بطل صامد ، يعلن الجهاد ويستنفر القبائل ، ويضع نفسه واتباعه تحت تصرف السلطة المركزية كمجاهد فى سبيل الله لاعلاء كلمة الاسلام والدفاع عن حوزة البلاد . وذلك ما وقع حينما هاجمـت الجيـوش الاسبانية مدينة تطوان بقيادة الجنرال أودنييـل فى الحرب المعروفة بحرب الستيـن . (1860 م — 1276 هـ) فقد كان السيـد شخصيـا على راس المجاهدين من قبيلتي انجرة والحوز ، كما نادى فى القبائل الجبلية المجاورة بالتعبئة العامة للدفاع عن التراب الوطني المهدد بالاحتلال .

وخلاصة هذه الحرب ان الاسبانييـن اعلنـوا الحرب على المغرب فى 22 اكتوبر 1859 م من أجل ارغامه على قبول توسيع حـدود سبتـة ومليليـة المحتلتين ، وتسليم ما سموه بسنتاكروس الصغرى على شاطىء الصحراء المغربية الغربية ليكون مركزا للصيد البحري الاسباني . وفى فاتح ينايـر 1860 وقع الزحف نحو تطوان ، ورغم الجهود المبذولة فى الدفاع والمقاومة الصامدة ، فقد وقعـت النكسـة التاريخية المؤسفة ووقع احتلال المدينة فى 6 فبراير 1860 م موافق 13 رجب 1276 هـ . ثم توصـل الجانبان الى اتفاقية وقف اطلاق النار وعقـد معـا هدنة الصلح بين الامير مولاي العباس عن المغرب ، والجنرال أودونييل عن اسبانيا ، بمحضر النائـب محمد ابن الحاج عبد الله الخطيب التطواني وهو من خواص أصحاب السيـد ، وذلك فى 25 مارس 1860 وقد رضخ المغرب تحت وطاة الاحتلال والتهديـد للمطالب الاسبانية التعسفية مع غرامة مالية فادحة . ويجدر بنا ان نشير الى انه من نقطة « سانتاكروس » المتفق عليها فى معاهدة الصلح أخذت اسبانيا تبسط نفوذها بالحديد والنار على مجموع صحرائنا المغربية الغربية المعروفة بالساقية الحمراء ووادي الذهـب والتي عرفت منذ اوائل القرن العشرين فى الاصطلاح الاسباني بالصحراء الاسبانية . وقد استعاد المغرب اقليم الساقية الحمراء بعد انطلاقة المسيرة الخضراء فى 6 نونبر سنة 1975 وطبقـا لاتفاقيـة مدريـد المؤرخة فى 14 نونبر 1975 ثم استرجع اقليم وادي الذهب فى 14 غشت 1979 وقيـل الحمد لله رب العالمين . ونعود الى حرب الستين لنقول بان معاهدة الصلح قد امضيت فى تطوان يوم 26 ابريل 1860 . وتم الجلاء عن المدينة فى 10 مايو 1862 موافق 11 ذي القعدة 1278 هـ .

وعلينا ان نقول بان النكسة المؤلمة التي وقعت للمغرب فى حرب تطوان ترجع الى سببين اثنين :

1) ان المغرب كان ضعيفا امام دولة استعمارية قوية وذلك ما دفعها الى التحرش به وفرض ارادتها عليه . مع العلم بان القوى لم تكن متكافئة لا مـن ناحية العدد ولا من ناحية العتاد . فالسلاح المغربي والانسان المغربي لم يكونا فى مستوى تلـك الحرب الضارية . وقد بلغنا ان الجد المجاهد سيدي محمد الشاوش رحمـه الله وكان خبيـرا فى الشؤون العسكرية وممن شاركوا فى مقاومة الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 م قرر ان يرابط فى برج القصبة يشارك فى الدفاع عن المدينة ، بعد ان ارسل اسرته مع المهاجرين الى شفشاون . ولكن فوجىء فى برج القصبة بعدم التجهيز الضروري والصالح للدفاع . فسال : اين المدافع ؟ . فقيل له : هذا ما كاين ! . . فتاسف واجاب على الفور : اذا ما كاين مدافـع ، باش غادي ندافع ! . . ومع ذلك واصل رباطه مـع ثلة من الطبجية الى ان وقعـت النكسة ، وتفـرق المجاهدون متسللين فى احياء المدينة بعد أن حالت ظروف الاحتلال بينهم وبين الهجرة . ثم ماذا يفعل قائد نبيل كالفقيه الامير مولاي العباس مع جنود لم يتعودوا الطاعة والنظام ، وتنعدم بينهـم الـروح

(22) تاريخ تطوان ق 1 م 7 . ص : 138 . والفنيدق قرية خارج حدود سبتة المحتلـة .

العسكرية ، فيتخاذلون ويقولون : اهل تطوان يقاتلون عن تطوانهم ، وأما نحن فحتى يصل الينا فى عبدة أو دكالة (23) . هذا ما ذكره صاحب الاستقصا وزاد قائلا : والحاصل أن جيش المغرب (وقتئذ) اذا حضروا القتال ، فانما يقاتلون هداية من الله لهم وحياء من الامير وقليل ما هم (24) . وبهذه الروح الانهزامية بدأ الانسحاب من وجه العدو الذي اغتنم فرصة التخاذل والانسحاب ليصل الى ابواب تطوان، بعد ان استماتت التطوانيون فى المقاومة الصامدة وان كان يعوزهم السلاح ، وينقصهم النظام والقيادة الحازمة .

وكان من نتائج هذه النكسة ان قرر السلطان محمد الرابع رحمه الله انشاء جيش نظامي حديث ، وأكمل السلطان الحسن الاول رحمه الله هذه المحاولة، وزود الجيش المغربي باسلحة حديثة (25) وبدا هذا الجيش النظامي الناشيء يحتل المكانة اللائقة به رويدا رويدا حتى صار فى طليعة الجيوش المصرية بعد الاستقلال روحا وقوة ونظاما وبطولة ، ممثلا فى القوات الملكية المسلحة التي حققت للمغرب الجديد امجاده التاريخية ورفعت راسه عاليا بين الدول الناهضة المتقدمة منذ قيامه سنة 1956 . وكانت الحركة الوطنية المغربية قبل ذلك قد وحدت الامة المغربية الناهضة فكرا وشعورا وبعثت فيها روح التضحية والفداء من البوغاز الى الصحراء ، تلك الروح العالية التي قادت مسيرة التحرير الوطني اولا ، ثم قادت المسيرة الخضراء بكل ايمان واقدام وشجاعة ، وستقود كل مسيرة مغربية من اجل العزة والكرامة واستكمال وحدة التراب المغربي .

2) اما السبب الثاني لنكسة حرب الستين : فكان لعدم الاخذ بوجهة نظر السيد رضي الله عنه حيث كان يرى ترحيل النساء والعجزة عن المدينة ومواصلة الجهاد وعدم الاستسلام . ولكنه لم يجد آذانا صاغية لتوجيهاته السديدة ، لان نكسة الجيش امام القوات المعتدية اذهلت الراي العام ، وأحدثت بلبلة فى صفوف المجاهدين المتطوعين ، كما ساعدت على ظهور جماعة من الانهزاميين الذين بيتوا فكرة الاستسلام ، وعارضوا الراي الوطني الحازم الذي اشار به سيدي عبد السلام ابن ريسون . فلما يئس السيد من الاستجابة لرايه ، واصبح العدو على قاب قوسين او ادنى من المدينة ، خرج مهاجرا الى تازروت مقر آبائه واجداده (26) . وكان هذا الخروج تعبيرا صريحا عن رفض السيد لوجهة نظر الانهزاميين والمستسلمين . ولولا حكمة السلطان محمد الرابع فى معالجة قضية هذا الاحتلال ، لكانت وضعية تطوان اشبه بوضعية سبتة الاسيرة .

وقد حققت الايام راى السيد . فقد كان الاستسلام وبالاعلى المستسلمين حيث عمت الفوضى المدينة قبل دخول الجيوش الاسبانية المحتلة ، وساءت الاحوال كما قال صاحب الاستقصا حتى كانت الدروب تخرب ، والحوانيت تنهب ، والبيوت تسلب ، والقوي يأكل الضعيف ... وبعد ما عبث المحتلون والغوغاء بالدماء والاحوال والاعراض والمقدسات ، وحولت بعض المساجد الى كنائس واصطبلات . وعند ذلك ادرك الناس صواب راي السيد وبعد نظره ، الشيء الذي دفع الامير مولاي العباس الى المبادرة بالاعتذار للسيد عن مخالفة أمره واساءة الادب معه ، مع طلب العفو منه والتماس عودته الى المدينة ليفرج عنها ما نزل بها من الطامة الكبرى، كما ورد فى رسالته المؤرخة فى 30 شعبان سنة 1276 هـ . ولكن السيد بقي معتصما فى تازروت ، واجاب الامير برسالة قال فيها : بأنه لم ينعزل تكثنا للمحبة والمودة . وانما راى القوم لا تنفع فيهم النصيحة ، فانحرف الى هذه الهيئة التي تنتظر الفرج (27) .

(23) احمد بن خالد الناصري : الاستقصا ج 9 . ص : 88 — طبعة 1956 .
(24) الاستقصا : ج 9 . ص : 97 .
(25) المسألة المغربية ص : 46 — 47 .
(26) حقائق عن زاوية تازروت ص 30 — 31 . وأبطال صنعوا التاريخ ص 40 . وقارن بكتاب المرحوم عبد الرحيم جبور : حياة الصوفي التطواني سيدي عبد السلام ابن ريسون وكراماته .
(27) حقائق تاريخية عن زاوية تازروت ، ص : 32 — 33 .

ثم بعد جلاء جيوش الاحتلال الاسبان عن تطوان ، بادر المغفور له السلطان محمد الرابع بالكتابة الى السيد يطلب منه ان يعود الى محله فى تطوان ، فان أهل هذا الثغر السعيد بخير ما دام اهله مثل سيدي عبد السلام ابن ريسون بين ظهرانيهم كما ورد فى الرسالة الملكية المؤرخة فى 18 ربيع الاول سنة 1279 هـ (28) . وعاد السيد الى تطوان استجابة للامر الملكي الشريف ، وواصل فيها حياته ونشاطه الديني والاجتماعي بما كان عليه من وفاء واخلاص لامير المومنين ، وحب وتقدير ورعاية لابنائه التطوانيين الى ان اختاره الله لجواره يوم 16 شوال 1299 هـ . موافق 31 غشت 1882 م . فعم الحزن على فقده جميع الآفاق ، وبكت لموته جميع الطبقات. وكان يوم دفنه ماتما عظيما وخطبا جسيما كما قال مؤرخ تطوان السابق الشيخ الوزير المرحوم احمد الرهوني المتوفى سنة 1373 هـ ـ 1953 م فى مخطوطه المسمى « عمدة الراوين » . ودفن السيد رضي الله عنه فى زاوية والده القطب سيدي علي بن محمد ابن ريسون بتطوان . افاض الله علينا من بركاتهما وبركات أسلافهما ، ونفعنا بمحبتهما والوفاء لهما ، والاشادة بفضلهما ومناقبهما ، وجعلنا من المشمولين بشفاعة جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم .

محمد العربي الشاوش

---

(28) أبطال صنعوا التاريخ ص 44 .

صورة جيل في ترجمة

سيدي عبد السلام ابن ريسون طبيباً

للأستاذ العربي بنونة

في السادس عشر من شهر شوال الماضي (1399) احتفل في مدينة تطوان بالذكرى المئوية لوفاة احد رجالها الصالحين المصلحين ، المربين المرشدين ، من طبقت شهرته الآفاق وسعى الى رحابه القصاد والرواد من كل صقع ، لطلب دعواته ، والتزود من معلوماته،والاقتباس من أنواره ، الا وهو الشيخ الجليل ، الشريف الحسيب النسيب ، سيدي عبد السلام بن علي ابن ريسون اليونسي الادريسي الحسني الفاطمي ، سليل آمام المرسلين وسيد العالمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد تطرق المتحدثون في ذلك الاحتفال للكلام عن جوانب مختلفة من حياة « السيد » (1) ، فمنهم من تكلم عن الجانب الصوفي، ومنهم من تحدث عن الجانب الاجتماعي والسياسي ، ومنهم من تعرض للجانب الفني الى غير ذلك ...

وكان لي حظ التحدث عن الجانب الطبي لسيدي عبد السلام ابن ريسون (2) .

واستجابة لعدة رغبات ... رأيت أن آنشر على صفحات مجلة « دعوة الحق » ـ تعميما للفائدة ـ عرضا عن هذا الجانب الهام من حياة الشيخ ابن ريسون ، وهو : عنايته بالتطبيب ونظرياته في العلاج .

وقبل ان أخوض الموضوع ، لاباس بان آتي بنبذة ملخصة للتعريف بهذا الشيخ الجليل :

(1) اشتهر سيدي عبد السلام ابن ريسون في الاوساط التطوانية بلقب « السيد » سواء قيد حياته أو بعد وفاته .

(2) جمعت اللجنة التي سهرت على تنظيم الذكرى المئوية لوفاة « السيد » الكلمات التي القيت في حفل الذكرى ، وطبعتها في كتيب محلى بصور مختلفة ، من رسائل ومخلفات وآثار فنية للسيد رحمه الله .

ولد سيدي عبد السلام ابن ريسون « السيد » بمدينة تطوان عام خمسة عشر ومائتين والف (1801 م) في بيت العز والشرف والعلم ، وفي جو قوامه الصلاح والتعبد ، والزهد والتبتل ، فنشأ بين قوم صالحين ، افنوا عمرهم في حب الله ورسوله ، واسهروا جفونهم في قيام ليلهم ، تتجافى جنوبهم عن مضاجعهم ، يرجون رحمة ربهم . فكان زهرة في روضة من رياض الجنة تنتظر الغيث لتتفتح باذن ربها ، وتؤرج الدنيا بشذى عطرها .

و «السيد» سليل اسرة من العلماء والصالحين، ذوي معارف ومواهب ، ولهذا بدأ حياته من أول يوم في نهج صوفي عال ، من توطين النفس على الاقتداء بهؤلاء الآباء . وقد قرأ القرءان الكريم ودرس بتطوان وغيرها العلوم التي كانت تدرس كالنحو والفقه ، والحديث والتفسير ، والسيرة النبوية والتاريخ ، والادب والموسيقى ، والطب والفلك والرياضيات ، حتى كان مشاركا عبقريا يسبي العقول بما يعرض عليها من مختلف الصور والمعاني . وما تكلم في علم من العلوم الا وظن سامعه انه اختصاصي فيه ، وذلك حسب ما شهد له به علماء وأدباء عاصروه واجتمعوا به وتحدثوا اليه .

وبدأ حياته العرفانية بالتطهر والعفاف ، والتنسك والعبادة ، والتطوع والورع . وجعل من الكون مسجدا ، فأضفى على كل مكان حلة قداسة المسجد . وسلك طريق آبائه في انتهاج المحجة البيضاء السالمة ، فجعل حب رسول الله صلى الله عليه وسلم معراجا له يتقرب به الى الله تبارك وتعالى « اذ لا وصول الا من بابه ، ولا فروع ولا أصول الا في ارض عرفانه » كما كان يقول رحمه الله .

وهكذا نشا متميزا بشخصية فذة في وسامة وبهاء ، وجلال ورواء ، محبوبا من جميع من رآه او خالطه .

ونظرا لما حباه الله من ذكاء خارق ، وذهن وقاد ، وموهبة فائقة ، فقد هضم جميع ما درسه ، ونبغ في كل ما تعلمه . وعرف الناس قدره فخطبوا وده ، والتمسوا دعواته ؛ فمن رجل الشارع ، الى الوجيه ، الى الفقيه ، الى الحاكم ، الى الوزير ، الى امير المؤمنين .

وما اجتمع به عالم ولا فقيه ولا أديب ولا فنان ، الا بهره بعلومه ومعارفه وفنونه .

وكان « السيد » بالنسبة لاصحابه ومريديه مربيا ناصحا ، وموجها بصيرا ، يسهر على تقويمهم ، وتصفية نفوسهم ، وترقية أذواقهم ، وتليين عرائكهم، وتعليمهم ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم . يرشدهم بأسلوب الحكيم ، ويهذب اخلاقهم بطريقة العليم ، ويدلهم على الله بالقول والفعل والحال . فكانوا يرون فيه ما لا يراه غيرهم ، ويسمعون منه ما يجعلهم متفانين في حبه متنافسين في طاعته ، متسابقين الى خدمته ، مجتهدين في ارضائه . وكان يعرف منهم ذلك ، فيضفي عليهم من عطفه ما يفوق عطف الوالد على افلاذ كبده .

وكانت مجالسه التعليمية تشمل :

1 - التفقه في الدين بالدرس والمذاكرة حتى يكون أصحابه على بصيرة في اداء واجباتهم الدينية من عقيدة وعبادة واحسان ، وقد كلف بذلك احد افذاذ العلماء من اصحابه .

2 - دراسة السيرة النبوية للتعرف على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان يحضر هذا الدرس ليشارك فيه بما يخطر له من السوانح والواردات ، والرقائق والاستنباطات ، حيث كانت تتدفق معارفه وتشع انواره على أصحابه فتضيء قلوبهم بحب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتخشع وتشتاق ، وتعتريها الاحوال ، وتخفق بالاشواق ، فتتلى الصلوات وتكرر الدعوات .

3 - ترقية الذوق بالفن الجميل المتمثل في الموسيقى والامداح ، والتانق في المظهر والمخبر ، فكانت حضرته تبهر العقول بالجمال الخلاب ، وتأخذ بالالباب فتسطع الانوار وتتدفق الاسرار ، ولا يحضرها من الاصحاب الا المختارون الاخيار من ذوي الذوق الفني الممتاز .

وعلى العموم ، فاننا لا نستطيع ان نأتي بصورة كاملة لحياة « السيد » في صباه وشبابه ، وفي كهولته وشيخوخته ، تصف هذه الحياة بما مر فيها من الوان، وترسم تقدمه في مدارج العرفـان ، الى أن نضـج واكتمل ؛ لان الذين رافقوه وعاشروه ، لم يدونوا لنا ما نقتبس منه الانوار او نستنشق منه اريج تلـك الازهار . وكل ما لدينا من حديث عن تلك الفترة لا يخرج عن نتف سمعناها من الذين سبقونا ، فنقلـوا عمن شاهد وقال ، وهو حديث لا يتصف بالتدقيق ، وانما يعني بالعموميات غير المقيدة بالزمان والتاريخ ولا بالمكـان والتحديـد .

وأهم المراجع التي ورد فيها الحديـث عـن سيدي عبد السلام ابن ريسون هي :

1 ـ كتاب تاريخ تطوان للعلامة الاستاذ السيد الحاج محمد داود حفظه الله .

2 ـ كتاب الفهرسة (مخطـوط) للعلامـة المحقق السيد محمد المرير رحمه الله .

3 ـ كتاب عمدة الراوين في تاريخ تطاويـن (مخطوط) للعلامة السيد الحاج أحمد الرهونـي رحمـه الله .

وقد امتاز الاستـاذ محمد داود في مؤلفـه بالاحاطة بجميع جوانب حياة الشيخ سيـدي عبـد السلام ابن ريسون ، سواء منها الجانب الصوفي او العلمي أو الفني أو الطبي أو الاجتماعي او السياسي .

وبعد هذه المقدمة ، انقل بعض ما جمعته مـن معلومات عن الجانب الطبي في حيـاة « السيـد » رحمـه الله :

ذكر الفقيه الاديب السيد المفضـل افيـلال ـ وهو من خاصة أصحاب السيد ـ : « أنـه درس على سيدي عبد السلام ابن ريسون حركات الافـلاك السبعة ومقابلتها بالانغام السبع (يقصـد اصـوات السلم الموسيقي المعروف في علم النوبـة : دو ، ري ، مي ، فا ، صول ، لا ، سي ،) كما درس عليـه علم الموسيقى ، واخذ عنه مثلث الغزالي ، وعلومـا ومعارف كثيرة في الطب والكيمياء ، وكيفية تحليل العناصر الاربعة ، واستخراجها من المعادن والنباتات والازاهير ، وكيفية ترييب الفواكه والازهار ، وفوائد جمة في علم التوقيت . وقال انه درس عليـه أصول علم التشريح والطب للسيوطي » .

وهكذا عرف عن الشيخ سيدي عبد السلام ابن ريسون انه كان عالما بالطب في وقت ندر فيه الاطباء، بل لم يكن موجودا في تطوان وقتئـذ اي طبيـب اجنبي . كما لم يكن هناك وجود لصيدليات تقـوم بتركيب الادوية او بيعها للعموم .

فكان « السيد » رحمه الله يصف الدواء الناجع لمن قصده او ساله من المرضى ، وكانت الادويـة التي يصنعها او يشير بها مؤلفة من العقاقير والنباتات المعروفة عند الناس باعيانها واسمائهـا . فكانـوا يتناولونها فيجدون مفعولها ويلمسون تأثيرها فيشفيهم الله سبحانه عند استعمالها .

وقد درس كتب الطب القديمة ، وفي مقدمـة الكتب التي كان يعتمد عليها ويستفيد منها : كتـاب القانون لابن سينا ، وكتاب تذكرة أولـي الالبـاب للشيخ داوود الانطاكي .

وكانت له تجارب شخصية ، ظهر اثرها وثبت نفعها لكثير من الناس . وكان صائبـا في افكـاره وارشاداته ونظرياته ، ساعيا لجلب الخير للخاصـة والعامة ، ودفع الضرر عن مختلف طبقات الامة .

ولم يقتصر على ما جاء في الكتـب القديمـة فحسب ، بل كان باحثـا دؤوبا عمـا يتجدد مـن الاكتشافات والابتكارات في الميدان الطبي بأوربـا وغيرها . وذلك بواسطة عدد من اصحابه وخواصه الذين كانوا يحتلون مناصب ساميـة في الحكومـة المغربية ، والذين كانوا يسافرون من حين لآخر الى اوربا وغيرها في مهمات رسمية امثال السيد امحمد الخطيب النائب السلطاني بطنجة المكلـف بالشؤون الخارجية ، والسيد محمد بن عبد الله الصفار رئيس الوزراء ، والسيد الحاج عبد الكريم بريشة واخيـه السيد الحاج العربي بريشة السفيرين الى عدة أقطار اوربية واسيوية ، وغيرهم .

وكان كثير من الناس يخلطون بين الطب وبين الولاية والكرامات ، فينسبون الشفاء للبركة التي يتوفر عليها الشيخ ... لكنه كان يستنكر ذلك ويقول: بل هي علوم وقواعد وتجارب وارشادات ، ولا دخل فيها لما يظنون انه من قبيل الولاية او الكرامات (3) .

واذكر هنا قصة طريفة في الموضوع :

اصابت الحمى شخصا تطوانيا يدعى « الباهي » فقصد الطبيب المعروف السيد محمد بن عبد الوهاب لوقش لمعالجته ، فوصف له دواء مناسبا لمرضه . وبعد ما تناول الباهي ذلك الدواء اشتدت عليه وطأة المرض ، واستفحل داؤه ، فذهب الى سيدي عبد السلام ابن ريسون مشتكيا ضره وملتمسا منه العلاج، فأشار عليه « السيد » بأكل السمك المعروف بالسردين ، فتناوله الباهي وشفاه الله من علته . وبلغ الخبر الطبيب لوقش فقال : « متاع الله لله اسيدي عبد السلام ... » يعني أن « السيد » عالج المريض « بالبركة » أو « الكرامة » التي خص الله بها أولياءه المصطفين من عباده الصالحين ، وأن سمك السردين ليس بدواء ناجع للعلاج من مرض الحمى .

ونميت قولة الطبيب لوقش الى سيدي عبد السلام ابن ريسون ، فتأثر لذلك وتألم لما نسبه اليه لوقش من الكرامة ، وقال لمحدثه : كلا ، انها ليست كرامة ولا بركة ، ، بل هي علم الطب والتداوي ... وان نوع الحمى التي اصابت الباهي يداويها العشب الفلاني الذي يوجد في هذا الفصل في قاع البحر ، فيتغذى به سمك السردين .. ! ثم ارشده الى الكتاب الذي جاء فيه وصف ذلك المرض وذلك العلاج .

ونقل العلامة المرحوم السيد المفضل أفيلال عن « السيد » قوله :

« الحمى كلها نار تشتعل في العفونات ان وقع فيها احتراق ظاهري او باطني . فاذا احست الروح بها وكانت لها قوة ، هربت الى القلب ، وبقي الجسد خاليا منها ، فيبرد ويحصل له الارتعاش ، ثم تراجعه الحمى شيئا فشيئا حتى تشتعل فيه نارها وتقوى الحرارة في البدن ، وان لم تبق للروح قوة يمكن منها الفرار ، فهي المكلفة تأخذ الروح والبدن ، وتقهر الجميع . والذي يزيلها في الحين : النافع والقلبين ـ أي الارنب ـ يستنشق بخاره ويشرب مرقه ويأكل من لحمه ولا يخرج للريح » (4) .

وقال السيد المفضل افيلال ايضا : سأل رجل « السيد » رضي الله عنه عن صبي تورمت احدى قدميه ؟ فقال له « السيد » : ان كانت اليمنى فليضع عليها النخالة مطبوخة مع الخل او ما يقوم مقامه من الاحماض ، وان كانت اليسرى فليضع عليها الحناء مع الصابون . فسألته ـ يقول افيلال ـ عن الفرق بينهما؟ فأجاب : لان اليمنى من ناحية الكبد ، فمادتها حارة. وأما اليسرى فمن ناحية الطحال ، وهو بارد ، فيعالج كل بضده)) .

وذكر افيلال ايضا ان رجلا جاء الى « السيد » يسأله علاجا لانتفاخ في بطنه وتغير في لونه ، فأمره « السيد » ان يدهن بطنه بالعسل ويجعل عليها قرنفلا مسحوقا او سكنجبيرا ، ويضع فوق الكل قطعة من الصوف ويربط على الجميع .

ثم التفت « السيد » الى افيلال شارحا له هذا الداء وقال :

« المعدة تعتريها البرودة من كثرة الشرب ، فتعجز عن الهضم الذي يكون بحرارة الكبد والرئة ، فلا بد من مسخن ، وهذه الامور (أي العسل والقرنفل وسكنجبير) مسخنة . فاذا اشتد العطش معها فيشرب ماء الحليب المصفى بالحامض » .

واضاف قائلا : « ان في البطن عروقا تستمد من المعدة ، تتلذذ بالماء عند الشرب . فاذا شرب الانسان عقب التعب الذي تخرج الحرارة معه للظاهر، تبرد المعدة وتعجز عن هضمه ، وتبقى تلك العروق متشوفة للماء فتأخذه وحدها ، ويكثر جذبها له ، فتتسع افواهها ، فينشأ من ذلك الاستسقاء الذي لا دواء له الا الموت » .

---

(3) تاريخ تطوان للاستاذ محمد داود : المجلد 7 عدد : 19 ص 99 .
(4) تاريخ تطوان ، لداود ـ مجلد 7 عدد 19 ص 141 .

ومن اقوالـــه المأثـــورة :

« شرب العسل حارا يحل ما ينعقد في المعدة ».

« الخفقان يسكنه القرنفل » (5) .

وذكر احد اصحابه وهو الفقيه السيد الحـاج محمد الصفار رحمه الله انه تلقى عن الشيخ سيدي عبد السلام ابن ريسون عدة فوائد طبية ، منها :

1 ــ ان الانسان اذا احس في اذنه شيئـــا ، يعجل لها بدهن زيت البنفسج او غيره من الزيوت . فاذا لم يجد ، فلياخذ زيت العود من القنديل ويدهن به اذنه من داخلها وتحت اذنه من خارجها . وان ذلك يصرف المادة التي تكون حادثة من الراس .

2 ــ شرب الشيبة يفتح الرياح (اى يفســخ الغازات) ويحلل البلغم . واذا اكثر المرء من شربها، وظهرت حرارتها في الحلق ، يكون اصلاحها بالعـــود القماري يشربه مع الشاي بعد ان يضعه في «البراد» او في الكاس . وهو نافع جدا .

3 ــ خاصية في شرب الشاي : اذا كان مزاج المرء معتدلا ، فلا يصلح له الشاي المركز (المجهد) بل يصلح الشاي اللطيف (الخفيف) . واذا كـــان المزاج متغيرا او غلبت عليه السوداء فيليـــق لــه الشـــاي المركـــز .

ولنقرا جوابا « للسيد » على رسالة بعث بها اليه الفقيه محمد ابن تاويت من قبيلة وادراس ، ففيــه ارشادات طبية وحض على الحمية ، وقد جاء فيه :

« ... وقد بلغنا كتابكم الاعز . وما فيه مــن مودتكم ، ومآثر محبتكم وفضلكم ، وما فيه من بــث الشكوى ، فنسال الله العافية والشفــاء لكم ممــا اصابكم في سبيل الله من الامراض والكـلام (بكسر الكاف) ، لما حاربتم العدو بالدعاء والكلام ، ولكــم ان شاء الله اجر المجاهدين ، والجزاء من جـنس العمل ، والحمد لله على كل حال . وما ذكرتم من سبب الامراض الظاهرة من برد وتناول طعام او ماء وكونه مضرا : فهو كذلك . الا انه رحمة ولطف لنيل حظ مما سعيتم فيه ، وفيـــه علامة قبول الدعـــاء ، ان يمســكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وأما مـــا تتخوفه من تعدي الامراض ، فلا بأس عليكم ان شاء الله . واجتناب السبب من اكل وشرب : واجب . لان الحمية راس الدواء . وتناول اضداد المضرات : لازم ، وهو كل بارد ثقيل مثل القطاني والحوامــض والفطير من الطعام ، والغليظ من اللحوم كالبقــر . واما ما يتناول من خارج : فبالاستحمام بـــلا ماء ، ليعرق وتخف المواد . ويحتال على العرق بما أمكن من غطاء او غيره بلا تعب . وان وجدت قنفوذا فاذبحه وحلله ، وارم ما في جوفه من الفضلات ، واعمله في قشعة افرور (6) ، وأدخله في فرن واقلبـــه حتـــى يتجمر ، بحيث حين يبرد يدق كله ويصير غبرة (7) فيلتق (8) بعسل ، ويؤكل منه على الريق قدر فص البيضة . والله الشافي . وان خفت من شرب الماء فاجعل شيئا من خطرة البقر في الماء ، واتركــه يصفى ، واشرب ما صفا ، فانـــه نافـــع ان شـــاء الله » (9) .

وكتب الفقيه السيد المفضل افيلال رسالة الى سيدي عبد السلام ابن ريسون يشكو فيها مرضا الم بيده اليمنى ، ويسأله علاجا لعلته وجاء فيها :

« وبعد ، فان يدي اليمنى لاذت ببركة يمنـــاك ويمنك ، واستمسكت بالعروة الوثقـــى من ودادك ، واعربت عما في ضميرها بخطها ، وحطت رحلها بفناء سيادتك ، راغبة أن تفوز بنظرة منك اليها ، يكـــون فيها علاجها وشفاؤها . وعلى المحبة والسلام » .

وقد سطر « السيد » رحمه الله جوابا لافيلال على نفس رسالته ، جاء فيه :

---

(5) المصـــــدر السابـــق .
(6) انــــاء من الخـــزف .
(7) مسحوقـــــا كالرمـــــاد .
(8) يلتثـــق : يبلــــل .
(9) تاريخ تطـــوان لداود ، مجلـــد 7 عدد : 19 ص 154 .

« الحمد لله وحده . وعلى سيدنـا العلامـة اللبيب ، اللوذعي الاريب ، ازكى السلام ، والرحمة والبركة والانعام . وقد طالعنا الاعز كتابكم اعـلاه ، وما ذكر سيدنا من أن ننظر فى اليد العزيزة علينا ما اصابها ؟ فاعلم — سيدي — اني لما فتحت الكتاب ، ورأيت فيه ضر اليد اليمنى ، نظرت فى يـدي فاذا هي اخت المصابة . وهي كهي ; انكسرت الفكرة من مطالعة امر الدواء ، لاني لم أر ما يصلح لـيدي مـن المباشرة ، فاستحييت من القول بلا ظـن قـوي . ورددت امر اليدين لراحة طبيب الارواح والابدان . لعله ينظر فيهما نظرة الشفاء . فيحصل لنا به الاكتفاء عن طب من لم يحسن معرفة ، واوصاف العجز عليه لائحة بلا خفاء . ثم ان وهب الله لاحدنا ما يحصل به الشفاء ، فلينفع اخاه بما نفعه به الطبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم . وعلى المحبة والسلام . عبد السـلام بن علي » (10) .

من هذا الجواب الواضح الصريح ، يتضح لنا ان « السيد » رحمه الله ، كان يعالج مرضاه بحسب علمه بقواعد الطب ، ومعرفته بانواع الادوية الصالحة للامراض والادواء . وليس كما تدعي العامة من الناس بانه يعالج بالبركة والكرامات ... فلو كان الامر كما يدعون لعالج يده المريضة او يد صديقـه ومريـده العزيز عليه ، والاثير لديه ، السيد المفضل افيلال ، لكنه عندما عجز عن معرفة الدواء ، فوض الامر الى الباري سبحانه الشافي من كل العلل ، ولـم يجرب دواء على سبيل الظن او يستعمل علاجا من قبـيل « البركـة » .

وهذه وصفة دواء آخر ، ذكرها فى رسالة منه الى السيد امحمد الخطيب النائب السلطاني بطنجة ، جاء فيها : « وما ذكرتم من أمر السـيد مصطفـى الدكالي فالظاهر انها مادة دموية ولم تنقض بخدمـة الدمال المذكور ، فتسفل ما بقي منها . فينبغـي اخراج الدم من الاسليم الذي يلي جهة الدمال مـن اليد . وان كان الضعف فيترك اللحم وكل ثقيـل . فان خف من اعلى البدن وبقي الاسفل ، فالعلق من الرجل . وهاك شيئا من الدهن يدهن بـه من حـد الوجع الى اسفل الرجل . والله الشافي . وان وجد سخانة (اي حرارة) فيشرب ماء قشر اللوز او ماء الزعزوف . وهذا ما ظهر ، والله يشفي العلل » الخ . .

ولعل اطرف رسالة — عثرت عليها — متعلقـة بنظريات « السيد » فى الطب ، هي التي وجهها الى صديقه السفير الحاج عبد الكريم بريشة الـذي كان موجودا فى مهمة بلندن ، فاصابه مرض فى خصيته ، واشار عليه الاطباء فى انجلترا باجراء عملية جراحية لاخراج الماء من الخصية . فكتب الى سيدي عبـد السلام ابن ريسون يصف له داءه ويستشيره فى امر اجراء العملية الجراحية . فاجابه « السيد » برسالة مؤرخة فى 16 رجب عام 1278 (وهي من الرسائل القليلة التي أرخها « السيد » اذ لم يكن يهتم بتأريخ رسائله) . ومما جاء فيها قوله :

« وذكرت لنا انه اصابك الم فى بيضة اليمين ، وذكرت ما اراد الطبيب من الضرب على الماء . فاعلم انه يظهر لي ان تفصد من أسليم (11) اليمين ، وهو عرق بين الخنصر والبنصر ، وتجتنب اكل ما فيـه الثقل من البطاطة وما أشبهها ، وتشرب طبخ العود القماري او تعمله فى البراد مع أتاي لانه نافع ويضيق مجاري المادة . وحين ترى الماء الذي مع البيضـة وقف ولم يزد ، فانت حينئذ بالخيار فى الضـرب لاخراجه . واما قبل أن يقف عن نزوله فى المحل ، فانما اخراجه زيادة فى مادته وسرعة هبـوط مادة اخرى . واياك تثقيفه فى وعاء البيضة بماء قاطـع يـد العروق ، فذلك يوجب تحويل المادة لجهـة اخرى عند توفرها . وانما يصلح تثقيفه من فوق مثل ما أشرنا ، ونسأل الله أن يشفيك شفـاء لا يغـادر سقما بفضله ورحمته)) الخ . . .

---

(10) كتاب عمدة الراوين فى تاريخ تطاويـن للعلامة المرحوم احمد الرهوني : الجـزء 4 ص 216 ، (مخطـوط) .

(11) الاسيلم : عرق بين الخنصر والبنصر (المنجد)

أليس هذا كافيا للدلالة على سعة اطلاعه وعمق نظره في أمور الطب والعلاج ؟

وبالاضافة الى ذلك فقد كانت له خبرة بالاماكن التي تمتاز بهوائها الجيد النافع لصحة الابدان وراحة الانفس . وقد كتب العلامة المرحوم السيد محمد المرير في فهرسته حول هذا الموضوع فقال : « قد اخبرني الفاضل المرحوم السيد الحاج العربي بنونة انه (أي الشيخ سيدي عبد السلام ابن ريسون) جاءه ذات يوم المرحوم السيد الحاج احمد ابن موسى – وكان ممن ينتاب مجلس الشيخ – عن طول غيبة عنه ، فقال له : اني كنت مريضا . فقال له الشيخ : « انت عندك جنان في بوجراح (12) ، وانت تمرض ؟ ففهم ابن موسى اشارة الشيخ ، وخرج لجنانه ، واقام به مدة ، فوجد في ذلك عافية جديدة » .

هذه نبذة عن عناية سيدي عبد السلام ابن ريسون بالطب . فقد كان رضي الله عنه طبيبا للارواح والابدان في تطوان خلال القرن الثالث عشر الهجري . وكان يتخذ من مهنة الطب عبادة يتقرب بها الى الله سبحانه ؛ فلم يكن يتقاضى عن ذلك أي اجر . بل كان يقدم في كثير من الاحيان المراهم والادوية التي يركبها الى المرضى والى الفقراء منهم خاصة .

ولا زالت بعض الاسر محتفظة الى الآن بوصفاته لعدد من الادوية لعلاج مختلف الامراض .

وقد توفي هذا السيد الجليل بتطوان في 16 شوال عام 1299 الموافق لـ 31 غشت سنة 1882 . ودفن في زاوية والده سيدي علي ابن ريسون بعد ظهر يوم الجمعة الموالي . رحمه الله واسكنه فسيح الجنان ، وجزاه عما قدم للمسلمين احسن الجزاء .

(12) ناحية في ضواحي تطوان شهيرة بهوائها الصحي واجنتها المزدانة بالاشجار والازهار والرياحين.



ملكٌ فريد

للشاعر الأستاذ عبد الواحد أخريف

العيد عاد وشمل الدار ملتئم	يزغرد النصر فيها وهو مبتسم
والعرش يزهو بذكراه على قمم	من المفاخر لا تنفك تلتحم
تنساق في سيرها ولهى لساحته	وفي جوانحها الاشواق تضطرم
قد اخلصت ودها للعرش من زمن	والصدق تعشقه الاخلاق والقيم
قد أقسمت والبرور المحض شيمتها	ان لا تكون سوى بالعرش تلتئم
أضفى على الشعب من خيراتها حللا	فالمجد بينهما كالحظ مقتسم
تمازج بين راع ليس يشغله	سوى رعيته يزهو بها الشمم
ان الملوك اذا كانوا كسيدهم	تباهت الارض ، وانسابت بها النعم
الحسن في اسم سليل الملك مؤتلق	كالحسن في فعله آياته عمم
فراسة الوالد الجاني ونظرته	قد صدق الحق ما أوحى به الحلم
يا واهب « الحسن الثاني » لامته	وهبها الكنز يحيى الناس كلهم
خلالك الغر تحيا في سجيته	والوارثون بذور المجد قد عظموا
قد قام بالعبء في حزم ومعرفة	هيهات يدركه من في الورى حكموا
كم من عروش على عليائها صور	لا يستقيم لها فكر ولا كلم

وعرشنا الفذ لم ينهض به ملك   الا وكان لديه الحكم والحكم
محبة الشعب أهدته نوابغه   فلم ير الدهر ندا واجدا لهم
وفي طليعتهم نور يجسده   العاهل « الحسن الثاني » الرضى الفهم
ما في اسمه العذب الا الحسن مكتملا   وفعله بجمال القصد يتسم
المنجزات على طول البلاد غدت   معالما للعلا ترسي لها الدعم
العاملون بها في خير عافية   لا يعتري عزمهم هم ولا سقم
وكيف يفتر من كانت عزائمه   بروح عاهله القدسي تحتدم ؟ !
بنى الرجال ، ومن بين الرجال يهب   لشعبه خير ما تشتاقه الامم
« تطوان » في يومها تختال لابسة   من المفاخر ما لا يرسم القلم
عيدان قد رفرفا في افقها جذلا   فكان للفرحة الكبرى صدى عرم
في عيد عرشك قد حققت رغبتها   فقام في ربعها التصنيع يقتحم
هبت تشيد في شوق مصانعها   وصوتها بحديث الشكر مزدحم
غدا ستبلغ من غاياتها أملا   لولاك ما حققت آمالها الهمم
ستنطوي وطأة الحاجات خانعة   ويختفي الشبح المشؤوم والسأم
وينطق الخير بين الآل مبتهجا   ويرقص الرغد الخفاق فوقهم

* * *

يا صانع المجد في انحاء مملكة   سادت به ، وعلا ابطالها البهم
اكسبتها هيبة شماء مانعة   شراذم الغدر ان يغويهم وهم
ما حاولوا الغدر الا صاح صائحهم :   اني على الرمل مطروح ومنهزم
صوارم « الحسن الثاني » تجند لهم   بالعدل ، والظالمون المارقون هم
« صحراؤنا » بنتنا من رملها انطلقت   امجادنا ، واحاطت بالعدا النقم
ان لفها النقع في عهد الدخيل فقد   ولى السراب ، وعاد الحق يحترم
فهل طردنا دخيلا من غضارتها   ليدخل الرجس للصحراء يقتحم ؟ !
عادت ولكنها من بعد عودتها   توحدت برباط ليس ينفصم
العاهل « الحسن الثاني » لها ملك   والخافق الاحمر الزاهي لها علم

مولاي في عيدك الميمون قد صدحت
ما حل ـ والروض طلق في نضارته ـ
« آذار » سندسه المخضر منتشر
عيد الربيع وعيد العرش قد مزجا
مسرة العين في أنوار طلعته
قدم لشعبك نبراسا تنير له
وعاش شبلك في حصن الصلاح له
وآل بيتك في عز وتكرمة

بلابل الشعر نشوى شاقها الكلم
الا وطاب الهوى والشعر والنغم
والعرش شمل الرعاية فيه ملتجم
الله ضمهما للناس لو علموا
والقلب بالعرش قد حفت به النعم
سبل الهدى ليتوخاها ويلتزم
من المعارف والآداب منتظم
والشعب حولك صفا ليس ينقسم

تطوان : عبد الواحد أخريف

تاريخ الموحدين ومذهبهم
من خلال رسائل موحدية

-1-

للأستاذ الحسن الشاهدي

تقديـــم ومنهـــج :

يتضمن البحث دراسة عن مجموع « رسائل موحدية » ، تلك الرسائل التي حققها ليفي بروفنسال سنة 1941 ، وكان قد اقتبسها من مخطوط للمستعرب جورج كولان (1) . ويشتمل المجموع على سبع وثلاثين رسالة رسمية كتبت عن خلفاء الدولة الموحدية ، لذا فان اهميتها لا تنكر – كما يلاحظ بروفنسال – فى المجال التاريخي ، حيث نصادف على حد تعبيره « بيانا مباشرا دقيقا منظما لاهم الحوادث التي وقعت فى أيام الموحدين من تدابير سياسية ، واصلاحات اجتماعية ، وغزوات وانتصارات حربية » (2) وفى المجال الادبي أيضا « ستمكن كل من يدرس تطور الآداب بالديار المغربية الاسلامية من نماذج شتى عن فن الكتابة الرسمية فى العهد الموحدي » (3) كما يرى بروفنسال . وفى الناحية المذهبية تلقي أضواء كثيرة على المبادىء الموحدية كالمهدوية والعصمة وصفة التقديس والبركة ...

وسنحاول لولا التعريف بكتاب هذه الرسائل بالقدر الذي يسمح لنا به المجال وتتيحه المصادر ، ثم نتعرض لمضمون الرسائل التاريخي بأن نحدد اهم الاحداث التاريخية والمناسبات التي تسجلها هذه الرسائل ، ثم نركز على مضمونها المذهبي لمعرفة مدى انعكاس الافكار الموحدية عليها ، مما يجعلنا ملزمين بالبحث عن جذور المهدوية فى نصوص هذه المكاتبات التي لم تحد عنها قيد انملة ، وبعد أن نبحث عن اسس العقيدة الموحدية فى مضمون هذه الرسائل وأفكارها ، نعرج فى الاخير على الناحية الفنية لها محاولين استخلاص الخصائص ورصد الاشكال للطرق الفنية التي صارت تقليدا متبعا لدى كتاب هذا العصر .

التعريـف بكتـاب الرسائـل :

يضم مجموع الرسائل سبعة كتاب وهم على التوالي : ابو جعفر بن عطية ، واخوه ابو عقيل بن عطية ، وابو الحسن عبد الملك بن عياش ، وأبو الحكم ابن محمد المرخي ، وأبو القاسم القالمي ، وابو الفضل جعفر بن محمد بن محشرة ، وأبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش .

---

(1) باستثناء الرسالة العاشرة التي نقلها من صبح الاعشى (ج 6 ص 443) .
(2) رسائل موحدية ، مقدمة المحقق .
(3) نفس المصدر .

فاما ابو جعفر بن عطية (ت 553 هـ) فيعد من الذين عاصروا العهدين المرابطي والموحدي ، حيث كتب لعلي بن يوسف ، ولما تم الامر لعبد المومن الموحدي ، تخفى فى الجيش الموحدي الذاهب الى اقليم سوس ، الى ان احتاج قائد هذا الجيش الى من يكتب عنه رسالة الى الخليفة عبد المومن ليخبره بما تحقق من انتصارات ، فدل على ابي جعفر هـذا الذي كتب رسالة بليغة نالت اعجاب عبد المومن وقربته منه حيث اسند اليه الوزارة التي كانت كما قيل « زينا للوقت وكمالا للدولة » (4) ونـال من الرتبة عند السلطان ما لم ينله احد فى دولته .

ولاسباب متضاربة ، زج بابن عطية فى السجن، ثم قتل من طرف عبد المومن فكانت نهايته المؤلمة ، فى نظر المقري شبيهة بما لقيه لسان الدين بن الخطيب وباختفائه ترك فراغا ادبيا استشعره عبد المومن نفسه حينما قال : « ذهب ابن عطية وذهب الادب معه » ولم يكن مبالغا اذا عرفنا ان الكاتب كان يعد « من ابلغ اهل زمانه » (5) .

واما ابو عقيل بن عطية (ت 553 هـ) فان كل ما يعرف عنه هو انه شارك اخاه الكتابـة للرسائـل الرسمية زمن عبد المومن ، ونعلم انه قتل معـه فى ظروف غامضة كما تقدم ، ولا شك انه كان كذلك كاتبا ممتازا ، حيث كتب فى المواقف الخطيرة الشان ، مثل التي كانت تناط باخيه ابى جعفر ، وهذا يجعلنا نعتقد بانه كان « من ابلغ اهل زمانه » ايضا .

ويتحدث صاحب المعجب عن ابي القاسم بن عبد الرحمن القالمي فيذكر بانه من اهل مدينة بجاية من ضيعة تعرف بقالم . وهو الذي خلف ابن عطية فى الكتابة حينما نكب . كما كتب فى عهد ابى يعقوب يوسف بن عبد المومن ولعله توفي فى عصره كما يفهم مما ورد فى المعجـب .

ونجد ابا الفضل جعفـر بن محمد بن محشرة (ت 598 هـ) عمل كاتبا ليوسف ابن عبد المومـن خلفا للقالمي ، ثم كتب لخلفه يعقوب المنصور الى ان توفي وكان كاتبا مقدما اذ جمع « الى براعة الكتابـة سعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس». (6) ولعل اهم رسائله تلك التي كتبها عن يعقـوب الى طلبـة مراكش يصف انتصاره فى قفصة والتـي كانـت « تعد مثالا للبلاغة فى عصر يعقوب » (7) كاختها التي وصف فيها وقعة الارك ، وهي غيـر مذكـورة فى رسائل موحديـة .

ولقد خلفه فى كتابة يعقوب المنصور ابو عبد الله محمد بن عبد العزيـز ابن عيـاش التجيبـي (ت 619 هـ) الذي ينتمي الى اهـل برشانة مـن اعمال المرية بالاندلس ، كتب ايضا للناصر ثم لابنه المستنصر الموحدي ، بلغ عبد الواحد المراكشي نبا وفاته ، وهو بمصر ، كما يذكر فى المعجـب ، واسلوبه كان طيعا بلغ الذروة فى الابداع ، اصبـح معها يشكل مدرسة نثرية وصاحب طريقة معينة فى الكتابة « جرى الكتاب بعده على اسلوبه ، وسلكـوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة » (8) . واذا علمنا ما كان يوليه المنصور للمثقفين والادباء ، وما ترتب عن ذلك من المنافسة والتباري فى مجلس الخليفة (9) ، ادركنا قيمـة الكاتبيـن الاخيريـن ومقدرتهما الادبية والفنية .

مضمون الرسائل التاريخـي :

ان من يقرا الرسائل الموحدية يجد نفسه امام وثائق هامة تستعرض لنا التاريخ الموحدي والتطورات السياسية والفتوحات ، وتحركات الخلفاء خـلال عهد طويل يشمل العهود التي حكم فيها كل من عبد المومن وابنه يوسف ويعقوب المنصور ثـم الناصر الموحدي . وهي حقبة مهمة من تاريخ الموحدين .

(4) الاستقصا ج 2 ص 131 – 134 ، نفح الطيب ج 5 ص 183 .
(5) نفـح الطيـب ج 5 ص 186 .
(6) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب : لعبد الواحد المراكشي – القاهرة 1949 .
(7) عصر المنصور الموحدي لمؤلفه محمد الرشيد مليـن ص 173 .
(8) المعجـب .
(9) عصـر المنصور ص 172 .

خصوصا وانها تتمثل فى طور التمكين لهذه الدولة الكبيرة وكسب انصارها زمن عبد المومن وخلفائه الثلاثة .

فمن اطلاعنا على رسائل عبد المومن تتعرف على اهم احداث زمن خلافته منها :

1) ثورة اهل سبتة وانتقاضهم على الموحدين سنة 542 هـ ، تلك الثورة التي تورط فيها القاضي عياض والتي تسببت فى قتل عامل الموحدين بسبتة وبيعة ابن غانية بقرطبة . ورسالة عبد المومن اليهم تهدف الى النصح ، وتدعوهم الى الاتعاظ بما يرونه شاهدا على صحة الدعوة المهدوية من الانتصار على المرتدين « فهي الفتوح التي ظهر بها من آيات المهدي ـ رضي الله عنه ـ العجب العجاب ، وفاض فيها من بركاته الفيض المنساب ، ودرت بها الارزاق وانتشر الامن وكرم المآب » (10) .

فما على اهل سبتة الا ان تصدق نيتهم وضمائرهم ويعلنوا توبتهم « وقد آن لكم ايها المذنبون ان تجددوا توبتكم تجديدا وكيدا » (11) .

2) توالي الوفود على حضرة الخلافة الموحدية لتجديد البيعة ، كالوفد الاندلسي الذي قدم فيه ابو بكر بن العربي سنة 542 هـ او كالذي وفد على عبد المومن بسلا سنة 545 هـ والذي خطب فيه ، باسم الوفد ، ابو بكر بن الجد خطبة بليغة ، ويعتبر عبد المومن كل هذا التوفيق ، من بركات المهدي التي « تتزايد على مر الزمان رواحا وغدوا » (12) كما ورد رسالة الى طلبة صنهاجة الا ان عبد المومن ، مع ذلك ، يرسل الى اهل قرطبة معلنا تقبله لبيعتهم واعلان الرضى عنهم بعد ان التزموا بما « أوجبه الله تعالى من شرائطها والقيام بحقوقها » (13) .

3) سلسلة الفتوحات التي خاضها عبد المومن وهي كثيرة فى الاندلس وشرق المغرب ففي الاندلس انتصر جيش الموحدين فى كل من المرية وبياسة ، وابدة ، ونواحي قرطبة ، ولاذ الكفار بالفرار « فاقتفى الموحدون بالقتل آثارهم ، ووصلوا باللحاق المستاصل فرارهم ، ودخلوا عليهم الباب آمنين ، وغنموا من تلك الآلات الحربية . . . » (14) ولا غرابة فى هذا التوفيق فرجال الموحدين هم « جنود الله » فلا ينفع تكتل النصارى ضد المسلمين وتحالف أعداد الموحدين معهم كابن مردنيش فى الاندلس .

واما الفتوحات الشرقية فقد شملت قسنطينة، وسطيف ، وقفصة ، وافريقية ، التي ارغم اهلها على الطاعة وتادية البيعة، ولقد صرف عبد المومن اهتمامه الى المغربين حيث « غزا غزوته الطويلة التي مكث فيها سبع سنين » (15) ويحرص عبد المومن فى رسالته التي وجهها الى طلبة مراكش على وصف حالة الموحدين وحالة اعدائهم الذين « قد قذفتهم الغلبة حينئذ الى صحرائها ونبذتهم الروعة بعرائها . . وعساكر الموحدين حريصون على غزوهم فى عقر مواقفهم » (16) فيحيط بهم الموحدون من كل جانب « كل يغزو ويغنم » (17) رغم انهم لم يأخذوا استعدادهم ويعدوا عدتهم ، بل اعلنت الحرب صدفة فلم « يتقدمها قصد ولا أعمل فيها فكر ولا مهد لها تعويل . . . وان محركها القدر المسعد » (18) ، ولا عجب فى هذا الانتصار العظيم اذا ما علمنا بأن طلبة بجاية والقيروان تسابقوا الى المشاركة فى هذه

(10) رسائل موحدية (الرسالة الاولى) .
(11) نفس المصدر .
(12) رسائل موحدية (الرسالة الثالثة) .
(13) رسائل موحدية (الرسالة السادسة) .
(14) الرسالة الخامسة .
(15) الاستقصا ج 2 ص 135 .
(16) رسائل موحدية (الرسالة التاسعة) .
(17) نفس المرجع .
(18) الرسالة العشرون .

الفتوح التي استعمل فيها المنجنيق ، فتدارك بهـا الله « هذه الجهات بعد ان اشفت على تلفهـا (19) وكانت فاصلة بين الضلال والهدى .

4) تولية عبد المومن لابنائه على الاقاليـم وكتابته بذلك الى الآفاق ، فلقد ذكر الناصـري فى احداث 549 هـ ان عبد المومن بايع لابي عبـد الله محمد بولاية العهد وولاه على افريقية (تونس) ثـم ولى ابا الحسن على فاس ، وابا حفص على تلمسان ، وابا سعيد عثمان على سبتة وطنجة ، وابا محمد عبد الله على بجاية . ولقد اظهر عبد المومن ـ فى رسالتهـ اتفاق الجميع على بيعة ابنه التي هي « تجديد امـر المهدي » (20) كما يذكر الحاحهم ورغبة اقاليمهم فى ارسال ابنائه اليهم بعد أن راوا فى مثل هذا منافـع ومصالح لهم « واتت هذه الامور ـ وفقكم الله ـ امرا بعد امر ، على غير قصد منا ولا ذكر (21) .

ولقد عمل عبد المومن على تعيين كبار الحفاظ والطلبة واعيان الفقهاء والقضاة ونخبة الامناء والثقات وخير الانجاد من الغزاة مع ابنائـه المعينيـن فى الاقاليم لمساعدتهم فى جمع العساكر وتمييز القبائل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتفقيه الناس فى امور دينهـم (22) .

5) ثورة اخوي المهدي بن تومرت ، عبـد العزيز وعيسى ، بمراكش ، ثم قتلهما مع من ساندهما من طرف عبد المومن ، ذلك ان الاخوين المذكورين داخلهما غيظ شديد من استبداد عبد المومن وتعيينه لابنائه بالاقاليم ، واستئثار أسرته بالخلافة ، ففكرا فى الخروج عليه حيث قتلا عامل مراكش من قبـل عبد المومن ، وجمعا حولهما الساخطين على النظام الذي « لا يرون الاحسان احسانا ، ولا يتزيدون مع الرفق بهم ورجاء الخير فيهم الا نفاقا وطغيانا ... ونـار الحقد فى جوانحهم تتأجج ، وسموم الغل تتمشى فى اعضائهم وتتدرج » (23) وتشير الرسالة الى أن عبد المومن كان طيبا فى معاملة الاخوين الثائريـن ، لان وصل الرحم يعتبر من واجبات المهدي ، الا انهمـا لا يعترفان بالجميل حيث خرجا عن أمر المهدي حتى « صارت حرماته منتهكة ، وأماناته مستهلكة ، بيـد الغصب والاعتداء » (24) فتنفيذ الاعدام فيهما اذن وصلبهما كان حكما عادلا .

6) بناء عبد المومن لمدينة بجبل الفتـح ، فبعد الانتصارات المتوالية والاستيلاء على حصـن قفصة ، فكر عبد المومن فى « اختطاط مدينة عتيقة مباركة بجبل طارق مجمع البحرين » (25) حتى تكون صلة وصل بين المغرب والاندلس ، ويستفاد تاريخيا أن المهندسين ابا اسحاق براز بن محمد ، والحـاج يعيش هما اللذان اشتغلا بذلك .

7) تبرز من رسائل عبد المومن ظاهرة حرصه على نشر العقيدة الموحدية ودعوة الناس اليها ، وهذا له اهمية فى التعرف على أهم الافكار التي يريد اقناع الناس بصحتها ، فالمهدي « قد بشر به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غير ما حدث وظهرت علامتـه وآياته فى قديم مزامره ... وقضى بوجوب الائتمار والائتمام والطاعة » (26) لذلك فان من واجب كـل سكان المعمور أن ينصروا الدعوة الموحدية واتبـاع المهدي « فالاعراض عن اجابة دعاته ... نقمة تحرق بصواعقها من يتحرق فى سبيل الغواية ويستعر»(27)

---

(19) نـفس المرجـع .
(20) رسائل موحديـة (الرسالة 13) .
(21) رسائل موحديـة (الرسالة 14) .
(22) نـفس المرجـع .
(23) الرسالـة الحادية عشرة .
(24) نـفس المرجـع .
(25) رسائل موحدية (الرسالة 19) .
(26) الرسالـة الرابعـة .
(27) الرسالـة السابعـة .

فلا عجب اذا كان عبد المومن لا يعلن الحرب الا بعد التوضيح والتعريف بفحوى الدعوة حتى تقوم الحجة « فى تبليغ القول وتوصيله » (28) . وتتضح العقيدة أكثر فى رسالة الفصول التي ارسلها الى طلبة بجاية حيث نرى ان الموحدين « لا يخلطون العمل بالرفض، ولا يبغضون الايمان ، يكون عندهم العلم والعمل متلازمين والباطن والظاهر متطابقين ، والقول والفعل متعارضين ولا متنافيين » (29) وهذه العقيدة لا تتم الا بعمل امور لا تستقيم العقيدة بدونها وهي : العلم بالتوحيد ، وقراءته باللسان الغربي أو العربي ، ثم اقامة الصلاة وايتاء الزكاة ، وعقاب شارب الخمر ، والبحث عن اللصوص وتنفيذ حكم الله فيهم وكذلك آكل الاموال بالباطل .

8) تنظيم الدولة ، فالموحدون بمقتضى خدمتهم للمذهب وتمسكهم به قسموا الى طبقات : (30) الاولى هم السابقون الاولون الذين بايعوا المهدي وصاحبوه وشهدوا البحيرة ، الثانية من دخل فى الحرب بعد البحيرة الى فتح وهران ، والثالثة من انضم اليهم بعد فتح وهران .

ونصادف ثلاث رسائل كتبت عن يوسف بن عبد المومن تظهر ما قام به من حروب لاخماد الفتن وغزو « المرتدين » الذين خرجوا عن طاعته ، حيث ثار مرزدغ الصنهاجي وضرب السكة باسمه فى غمارة « فبعث اليه أمير المومنين يوسف جيشا من الموحدين فقتل وحمل رأسه » (31) وبحروبه هذه استطاع ان يرجع الى الدولة هيبتها من جديد وامكن له أن يدعو ابن مردنيش – من مركز القوة والغلبة – الى الدعوة الموحدية التي « لا ايمان لمن لم يؤمن بها ولا دين لمن لم يدن مصدقا بها » (32) ، وكيف لا يذعن والخليفة متجه اليه بجيوشه الكثيرة التي « تملأ الفيطان والربى » والمتمثلة فى قبائل رياح العربية حيث كانوا من الراغبين فى الجهاد « فتحركت الى ذلك حفائظهم وثارت لنصر الله عزائمهم » (33).

بينما نجد تسع رسائل اخرى لها اهميتها التاريخية ايضا فى التعرف على عصر المنصور الموحدي ، فهناك خبر بيعة يعقوب من طرف الكافة جنودا وعربا ، تمثلت فى بيعة الاعيان ثم من بعدهم من الناس (34) ، لكن الاحداث التي تهيمن على موضوع رسائله هي الفتوحات والحروب التي خاضها فى كل من افريقية والاندلس أيضا :

ففي افريقية قامت الفتن ، واستولى ابن غانية على مناطق كثيرة اطمعته فى المزيد ناقضا عهده للموحدين زمن يوسف ، (35) ظانا بأن الموحدين لا قبل لهم بل مع انهم اخذوا « بواجب الاجتهاد من التاهب والاستعداد » (36) لهذا لم يباغتوه بل لم يعلنوا الحرب الا بعد « تقديم الانذار الى ابن غانية واقامة الحجة عليهم » (37) ذلك لان الانتصار حليفهم دائما بتوفيق الله وعنايته .

وفى الاندلس قام بحروب تبتدىء منذ ان اعلن غزوها سنة 585 هـ (38) وانتصر على العدو فى كثير من المواقع واستولى على كل من شنترين ، وطمار ، وطرشى ، وطلبيرة ، وطليطلة . وانتصار جيشه هنا – فى اعتقاده – يرجع ايضا الى عون الله « عالمين بأن لا عدة ولا عدة ولا قول ولا صول الا بما

(28) الرسالة العاشرة .
(29) الرسالة 23 .
(30) رسائل موحدية (الرسالة 12) .
(31) الرسالة 25 الاستقصا ج 2 ص 147 .
(32) الرسالة 25 .
(33) الرسالة 26 .
(34) الرسالة 27 .
(35) الاستقصا ج 2 ص 156 .
(36) الرسالة 26 .
(37) الرسالة 30 .
(38) الاستقصا ج 2 ص 181 .

يفيض عليهم من خزائن رحمة ربهم العزيز الوهاب » (39) .

اما الرسالتان الاخيرتان فتصوران حركة الجهاد التي نشطت في عهد محمد الناصر الموحدي ، فبعد ان خلف اباه في الحكم سنة 595 هـ وجه جيشه لحرب يحيى ابن اسحاق بن غانية الذي استولى من جديد على مناطق كثيرة ناحية الشرق ، الا ان جنود الناصر استطاعوا التغلب عليه ، فاستولوا على منورقة ، ويابسة ، وميورقة ، « ورفعت اعلام التوحيد في اعالي الجدران » (40) لهذه المدن . كما فتح الجيش كلا من افريقية وقابس حيث اجتمعت الكلمة « على التوحيد الذي نصر (الله) انصاره ... وطهر من كل بهتان وعدوان منابره وامصاره » (41) .

ثم انصرف الناصر بعد ذلك الى الاصلاح والتنظيم حتى يعود الاستقرار والاطمئنان يقول في رسالته : « وجئنا نحن قابس واقمنا بها مدة نصلح من احوال اهلها ما فسد » (42) .

(يتبع)

(39) رسائل موحدية الرسالة 35 .
(40) الرسالة 36 .
(41) الرسالة 37 .
(42) نفس المصدر السابق .

● **النظام الاداري والاقليمي في صدر الاسلام**

بقلم : الدكتور ابراهيم حركات

اقرأ المقال في العدد القادم

في عهد المولى محمد بن عبد الرحمن

تطوان

في كتاب "يوميات شاهد عن حرب أفريقيا"

تأليف : الكاتب الاسباني دي آلاركون
عرض وتقديم وترجمة : الاستاذ رضا الله ابراهيم الألغي

عن دخوله لتطوان (فى 6 فبراير 1860) :

نوالي عرض ما قصدنا لاجله فى هذه الترجمة من ذكر بعض احوال تطوان المدنية والاجتماعية مما استخلصناه من يوميات الكاتب الاسباني دي الاركون المتطوع فى فرقة الخدمات المدنية التابعة للجيش الثالث الذي اتى من اسبانيا على عجل مددا للجيشين الاول والثاني فى الحملة الحربية العظيمة القاصدة احتلال تطوان (1860) انطلاقا من مدينة سبتة المجاورة التي لا تفصلها عن تطوان الا نحو أربعين كيلومترا ومع ذلك استغرق القتال بينهما اكثر من ثلاثة اشهر وقد شاهد صاحبنا الاركون منها قرابة شهرين ابتداء من 11 دجنبر 1859 تاريخ خروجه من مالقة الى 6 فبراير 1860 حين دخوله تطوان مع القائد العام اودونيل .. تلك الفترة القاسية الهائلة التي قاسى فيها الكاتب الامرين ، مرارة الحرب الفظيعة ومرارة فصل الشتاء القارس والامطار المتوالية وتراكم الاوحال والزوابع وانتشار الاوبئة والامراض .. وغير ذلك من الاهوال والمتاعب التي جعلت كاتبنا يستبشر ويطير فرحا لما وجد نفسه على ابواب تطوان حيث كتب ما يلي : « اخيرا وصلنا .. اخيرا استطيع ان أؤرخ هذه الرسائل (لانه كتب يومياته فى صورة رسائل صحافية) من تطوان بعد ما ارختها بعدة نقاط فى الطريق من سبتة ، من السراى، من الفنيدق ، من واد اسمير ، من كابو نيكرو ، من الواد الحلو .. كل هذه الاسماء الملطخة بالدماء التي عنونت بها عدة مرات مذكراتي تبدو لي الآن فى مخيلتي كانها اضغاث احلام .. وكذلك معسكراتنا ومخيماتنا فانها اختفت وتعيش الآن فى طيات التاريخ الذاهب .. كم من ليال مرت تحت خباء تعصف به الرياح او على ضوء نار خافت او على قمم جبال موحشة وفى غابات وسهول وضفاف انهار وفى خنادق واغوار .. وتحت وطاة ذلك الشتاء الطويل الذي عشنا فيه كاننا وحوش مفترشة فى الادغال .. وفى غمار تلك المعارك الضارية التي تصورنا فيها جوعا وكابدنا الاتعاب والحرمان والاهمال .. وصارعنا خلالها الامراض والموت الزؤام .. كل ذلك قد انتهى الآن .. انتهى ابتعادي عن المجتمع وعن العالم كله .. تلك الوحدة الموحشة التي طويت فيها ليلة الميلاد وليلة السنة الجديدة ويوم الملوك الثلاثة .. ايام وليال قضيتها بالم مزدوج وبحسرة وانقباض .. كل ذلك مضى وذهب مع الايام .. الآن انا فى سبيلي الى سقف يظلني والى بيت يؤويني والى مدينة تحتويني .. كل آمالي تحققت .. وانا واحد من المحظوظين الذين يدخلون تطوان ..

ثم اخذ يروي اخبار تطوان الواصلة اليهم ممعنا فى ذكر الحالة السيئة التي كانت عليها المدينة فى الليلة السابقة لدخولهم اياها .. ثم ذكر كيف نظم القائد العام اودونيل موكبه قبل الدخول وكيف رتب

كل شيء قبل المسير اليها .. حيث عين على كل فرقة من جيوشه جنرالا من جنرالاته يدخل على راس فرقته فى الجهة المعينة له .. وسار هو بوصفه القائد العام على راس طابور يتقدم موكبه ومعه أركان حربه قاصدا الباب المعروف بباب المقابر حسب الخطة التي كان قد رسمها وكانت محل اتفاق بينه وبين الوفد الممثل لسكان تطوان وعلى راسهم احمد ابعير .. قال الكاتب : وانا منذ البداية اتخذت قرارا ان لا افارق الجنرال اودونييل فى هذه الساعة المشهودة لاتمكن من مشاهدة سائر المراسم واسجل جميع المشاهد والوقائع الكبرى التي تصحب هذا الحدث العظيم .

الدخـــول :

كانت الساعة التاسعة صباحا يوم 6 فبراير 1860 حين تحرك موكب القائد العام نحو باب المقابر منطلقا من معسكره العام الذي يقع أسفل المدينة على طريق مارتيل .. فاغتنم الاركون الفرصة فصار يصف ما يمر عليه فى طريقه من معالم المدينة وضواحيها ومزارعها وبقايا العمارة ومخلفات الحرب ومنازل مهدمة وسواقي وقناطر وخنادق .. وأشياء اخرى كثيرة جعلته يتذكر بروح شعرية حالة طفولته وكيف كان يلعب ويجري فى مدينته الموريسكية واد آش .. فى بيئة اشبه بما رآه هنا خارج تطوان .. ولم يصرفه عن تأملاته وتخيلاته الا وصول موكب اودونيل الى باب المقابر .. وكان فى حسابه ان يجده مفتوحا وفيه من ينتظره .. ولما وجده مغلقا ولا من ينتظره اصدر أوامره بفتح الباب وأجابه الحراس من الداخل بان ليست عندهم المفاتيح فأمرهم بكسر الاقفال .. وفعلا كسرت الاقفال وفتح الباب .. فدخل القائد العام بمفرده على فرسه آمرا من معه ان لا يدخل معه منهم احد خوفا من مكيدة تدبر لهم .. ولما اطمأن على سلامة المكان عاد اليهم واذن لهم فى الدخول .. وفى نفس الوقت كان قواده الآخرون قد دخلوا المدينة من الابواب المعينة لهم ، ولم يلقوا مقاومة تذكر .. وكانت فرقة تقدمت الى اعالي القصبة المطلة على المدينة ورفعت العلم الاسباني على صاريها وحيته بطلقات مدفعية اهتزت لها المدينة وزرعت الهلع فى النفوس .. وعلى الاثر سارت الفرق العسكرية تحتل احياء المدينة وابراجها وساحاتها واجواقها الموسيقية تصدح باهازيجها واناشدها وهتافاتها .. الا انها لم تجد تجاوبا الا من نزر قليل من السكان المتمثل بل المنحصر فى الاقلية اليهودية ومن على شاكلتهم .. كما يتجلى ذلك واضحا من يوميات الكتاب ..

استطـــلاع :

واما القائد العام فانه قبل ان ينزل الى المدينة راى ان يصعد مترجلا هو ومن معه الى أعالي القصبة حيث يرفرف العلم الاسباني ويلقي من هناك نظرة عامة فاحصة على المدينة وابراجها واحيائها واحوازها ليعلم كيف يرسم خططه ويتصرف ..

ومما كتبه الاركون عن هذا الاستطلاع الاول انهم فى طريقهم اليه اجتازوا على مقابر المسلمين الاولين وظنوها فى أول الامر بقايا منازل قديمة (نظرا الى الطريقة العتيقة التي كان الاندلسيون يبنون بها القبور حيث كانوا يجعلونها على هيئة حوش مغطى بقباب واقواس كما يدل عليه المتبقى منها الى الآن) .. ووصف الاركون بانه لم ير ابهى منها وبأن اقواسها وزخارفها لا يوجد لها مثيل فى أوربا وانها كلها بالآجر والجير وباتقان وبياض باهر وتنبت فيها اشجار الليلاب والخروب وازهار الياسمين والرياحين .. ولكن لا اسماء عليها ولا تواريخ ولا كتابة .. قائلا : ان الموت هنا بليغ وان كان اصم ابكم .. كالذي يوجد فى تصورات الانسان .. واضاف : اننا صعدنا من هذا المكان المقدس بدون مبالاة .. نقفز من قبر الى قبر باقدامنا واحذيتنا وتصطدم اسلحتنا برخام المقابر .. ولا شك ان الاجيال الماضية تضج فى مراقدها الخالدة وتئن من وطأة اقدامنا واسلحتنا .. أولئك النبلاء العرب الذين ولدوا بغرناطة وجاءوا ليموتوا فى هذه الارض .. اولئك الذين لم يجل بخاطرهم انه سياتي يوم تلحق فيه هذه المحنة ابناء النبي .. آه .. لو استيقظوا ورفعوا الرؤوس وراونا بالصليب على الصدور وبالسيوف على الحزام .. ثم استرسل يقول : وبينما افكر على هذه الصورة اذا بنظراتي تتبع سربا من حمامات بيضاء وهي تطير فوق المدينة وتروعها جلبة وضوضاء جنودنا فى الازقة .. ولا تدري اين تتجه .. وفى النهاية التجات الى الملاذ الذي يلجأ اليه كل خائف .. احتمت بمسجد المدينة بصومعة الجامع الكبيـــر ..

ومن هناك ايضا ذكر انه لمح على سطوح المدينة — وهي شبه خالية — اشخاصا لا يدري اهم رجال ام نساء لانهم جميعا يلبسون لباسا متشابها .. (وهو يجهل ان الرجال لا يصعدون عادة الى سطوح المنازل فى عرف المدينة اذ هي خاصة بالنساء) .. كما ذكر انه من هناك ارسل نظرة الى الحدائق والجنات والبساتين المنبثة والمحيطة بالمدينة .. فراى ان تطوان مثل زمردة خضراء او مثل فص ابيض فى خاتم اخضر بين اصبعين (جبلين) ملتفعين بكسوة خضراء .. وان كل شيء رائع وباسم فى هذه الربوع الا سكانها التعساء .. الذين يهرعون منها ويهربون فى افواج .. يا له من مشهد .. ! ذلك المشهد المؤلم الذي يبدو لي من بعيد لاولئك الفارين العائدين من جديد الى بداوتهم الاولى .. النساء يحملن اطفالهن والشباب ياخذون بيد المشايخ والجرحى والعجزة محمولون على الدواب .. والخيل التي كانت تقاتل صارت تحمل الاثقال .. والنبلاء والاثرياء يسيرون راجلين مع الاشقياء والضعفاء .. يذكرني هذا بهجرة الموريسكوس عندما طردوا من اسبانيا .. ان المغاربة يفضلون كل انواع الحرمان والبؤس والشقاء ولا يرضون بذل الاعتراف بهزائمهم .. هذا شيء بطولي وقديم فى الشعوب الباسلة ..

تنظيمــــــات :

ثم تعرض الاركون لبعض الاعمال التنظيمية التي بادر القائد العام أودونيبل بالقيام بها التي منها التحاقه بدار المخزن الكائنة فى ساحة الفدان (السوق) وكيف نجا من انفجار مدبر وقع بها وكيف استعرض جيوشه فى الساحة وكيف رتب شؤون المدينة بأن عين الجنرال ريوس حاكما عاما للمدينة وعين بجانبه حاكما مغربيا (وهو الحاج احمد أبعير) وكلفهما باحصاء المنازل العامرة منها والفارغة وانزال الضباط الكبار بها واختيار اللائق منها للمصالح والمرافق العامة .. الى غير ذلك من الاجراءات المدنية الضرورية .. مشيرا الى ان القائد العام اودونيبل فضل ان يبقى مقيما بمعسكره العام خارج المدينة وكذلك بعض جنرالاته وان كان جعل تحت تصرفهم دورا لائقة بهم فى المدينة .. واما الاركون نفسه فانه ذكر انه كان يقيم اولا فى بيت الاسرائيلي ابراهام من أعيان اليهود وأثريائهم ثم انه انتقل الى دار آل أشعاش الكائنة بالفدان واستقر بها طول مقامه بتطوان مع احتفاظه بخيمته الخاصة به فى المعسكر العام وفى نفس الوقت كان يتردد على بيوت كثيرة يطيب له ان يسهر فيها ويلهو مع أصحابها الضباط كدار الفقيه الشربي التي اشار الى بعض مغامراته فيها (وسياتي بيانها) .

جـــــــولات :

وهو فى ذلك كله لا يترك فرصة تتاح له الا وانتهزها ليبحث وينقب ويتجول ويسجل كل ما سنح له ويصف كل ما عن له من الاشياء كبيرها وصغيرها جليلها وحقيرها ولا سيما ما يمت منها باي صلة الى الشؤون المغربية متخذا معه دليلا من ابناء المدينة يدله على خفاياها ويرشده الى خباياها ويعرفه بعادات اهلها واحوالهم الحاضرة والغابرة .. الا انه كان يمقت هذا الدليل ويهزأ به ويشتمه فى وجهه واحيانا يطرده .. ومع ذلك ظل يلازمه ويمعن فى طاعته وخدمته كلما تعمد صاحبنا فى اهانته واذلاله .. لان ذلك الدليل من الجنس الذليل الذي لا يحس بمهانة ولا يبالي بزراية .. وهذه النعوت تغني عن التصريح باسمه واصله ..

عزة النفس عند المغاربــة :

وكان من استنتاجات الاركون من خلال جولاته واستطلاعاته ان المغاربة وبالاحرى سكان تطوان من عنصر كريم ومحتد اصيل وفى مظهرهم ومخبرهم تبدو امارات النبل وتبرز دلائل العزة والانفة لا يرضون بالضيم والصغار ولا يحنون الراس لاي كان مهما توالت عليهم النكبات وتعاقبت المصائب والهزائم .. فهم لا يعترفون لنا — يقول الاركون — بهزيمتهم امامنا ولا بانتصارنا عليهم .. استنتج الاركون من المعارك التي شاهدها ومن موقف المغاربة التطوانيين وعدم اكتراثهم بالجيوش الاسبانية وهي تحتل مدينتهم .. فقد آثروا ان يجلوا عنها ويتركوها بلقعا على ان يشاهدوهم فى ازقتها ويبادلوهم التحية والمنافع .. وحتى الضعاف والعجزة منهم الذين لم يستطيعوا مغادرة البلدة فانهم لاذوا ببيوتهم ولازموها ليلا ونهارا صابرين على الجوع والخصاصة كاتمين آلامهم ومتجرعين همومهم الى ان ياتي الله بالفرج .. ومن اضطرته الظروف لمغادرة بيته الى الشارع فانه لا يلتفت الينا — يقول الكاتب — ولا

يعيرنا أدنى اهتمام كاننا لسنا بموجودين .. وقد قص الكاتب كثيرا من الشواهد والوقائع شاهدها بنفسه تدل على صدق ما يقول .. من ذلك انه لاحظ عند دخول الجيوش الاسبانية الى تطوان خلو الطرقات والسطوح والنوافذ وسائر الممرات من العنصر المغربي .. لا وجود لهم اطلاقا ولا للفضوليين منهم .. ولا فى ساحة الاستعراض التي تجلب اليها عادة غمار الناس فلم يشاهد الاستعراض الا بعض اليهود القريبين منها .. وقال الاركون انه كثيرا ما كان يتجول فى الازقة وهي خالية تماما فيقول له دليله : انهم مختبئون فى بيوتهم .. قال : فنتسمع من اخصاص الابواب فنحس ان بداخلها حركة ودويا كدوي النحل .. وان بها جرحى ومرضى يكتمونهم عن السلطات الامر الذي جعلني – يقول الاركون – اكن اعمق الاحترام لاولئك الذين يكتمون آلامهم ويصبرون على بلواهم .. كما لاحظ ان بعض الصبيان يغفل اهله ليطل من الباب ولكن سرعان ما تمتد يد من الداخل فتجذبه وتصفق الباب .. كما لاحظ فى احدى جولاته انه مر فى زقاق ووجد فيه شيوخا يجلس كل واحد منهم بباب بيته منعزلا عن جاره الآخر لا يلتفت اليه ولا يبادله الحديث مع قربهم من البعض .. قائلا وذلك من فرط تحفظهم وابتعادهم عن الفضول خوفا من ان يصدر من احدهم شيء ينم عن اعترافهم بالوجود الاسباني فى مدينتهم .. واضاف ان هؤلاء المغاربة الذين كانوا اغلقوا عليهم ابواب بيوتهم ولبثوا قابعين فيها ربما اضطرهم طول المكث الى الخروج ولو لبضع ثوان وعدة خطوات قصد استنشاق الهواء النقي ..

كما قص علينا الكاتب قصة ذلك الشيخ الذي مر عليه موكب القائد العام اودونيل فى طريقه الى وسط المدينة يوم دخوله تطوان .. فراى الاركون من ذلك الشيخ صورة من صور الاباء الممزوج بالترفع وعدم الاكتراث .. كان شيخا طاعنا فى السن ذا لحية طويلة بيضاء كالثلج وعمامة كثيفة وحائك من الصوف كان جالسا امام دكان صغير لا شك انه له وكان باب الدكان ورفوفه الخشبية ركاما على الارض .. ويداه على فخذيه وعيناه مركزتان على الارض كانه غارق فى بحر التاملات .. مر الموكب حواليه فى صخب ولجب دون أن يرفع راسه لينظر ما حوله ولا انه تململ من مكانه ليتقي على الاقل سنابك الخيل ويتحاشى ان يصيبه مكروه .. قال : فاعظمنا فى الشيخ هذا الاباء واكبرناه فى نفوسنا .. واشرنا اليه بالتحية بأيدينا وما تحرك ولا بالى بنا ..

وقد تكرر مثل هذا الموقف .. مما جعل الكاتب فى مشاهد مماثلة يدون فى مذكرته ان المغاربة عند ما تمر مواكبنا لا يعيرونها التفاتا ولا يرفعون اليها راسا ولو على سبيل الصدفة .. انهم يعتقدون ان النظر الينا والى مواكبنا معناه الاعتراف بنا ولو ضمنيا .. يصدق عليهم مثلهم العربي : اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب .. اني لم ار نبلا اقدر على تحمل المصائب مثلهم .. جائعون ولا يطلبون الخبز ، يتالمون ولا يبكون ، يموتون ولا يتساهلون معنا ، قراراتهم لا يفصحون عنها ولو بالتبجح بالوطنية ، يكتفون باقتناعهم بانهم لن يكونوا عبيدا لنا ابدا .. الحقيقة انني لا ادرك مستوى حضاريا اكثر من هذا ، فاذا كانت الحضارة تعني تمجيد النفس الانسانية وجعلها تنتصر على المادة وعلى الشهوات فانا اعتقد ان ثبات المغاربة وصمودهم وعزة النفس التي يحتفظون بها فى الهزيمة – هذا الشموخ المستمد من دينهم – لمما يظهر لنا ويعطينا الدليل على انهم عنصر قوي يمارس قدراته بحكمة سقراط .. وان لا سبيل الى غزوهم وقهرهم ولو بالقوة ولا بالحضارة الكاثوليكية .. انهم يشبهون الانجليز فى جل الصفات ..

حضــــارة تطــــوان :

هكذا كان الاركون فى تجولاته بحارات تطوان يسبر الاغوار ويستشف ما خلف الاسوار وما وراءها من الاسرار .. ليس كالسائح الذي يقف عند المظاهر ويكتفي بالقشور بل انه يتعداها الى الكشف عن حقائق الامور والى رد الفروع الى اصولها والمعلولات الى عللها وحكمتها .. شان العالم المنقب والصحافي الماهر المستطلع ، لذلك كان يلهج بالحالة التي وجد عليها المدينة ويبتهج بحالة اهلها المحافظين وتمسكهم بعاداتهم وحضاراتهم العتيقة .. وآثارهم القديمة .. ومما كتبه فى هذا الصدد : انني وجدت تطوان لا احلى منها ولا ابهى ، فلو كانت كما يريدها اصحابي الجنود من توفرها على مظاهر الحضارة الاوربية من اوطيلات ومقاهي ومسارح ومقاصف ونوادي وملاعب ... الخ لو كانت كذلك لرايتها انا عديمة الجدوى لا تعدو أن تكون كحي من احياء المدن

الاوربية ، اذن لا داعي للمجيىء اليها .. فانا انظر اليها بعين الفنان الذي لا ينظر الى القشور والظواهر بل يغوص الى أعماق الاشياء ، يستشف وراء المحسوس والملموس .. اني وجدت تطوان كما كنت اتمنى ، عربية صرفة لا مثيل لها عندي في المدن الاوربية ، هي في نظري عش المغاربة الخلص وبقية مما تركه اجدادهم في البيازين بغرناطة الفيحاء .. واضاف ان المغربي يعزف عن الملاهي ويميل الى الانعزال ويكره التظاهر بالاشياء الفارغة ، فلا يقيم وزنا لمظهر بيته الخارجي ولا للمغريات والمباهج الزائفة .. واستنتج من ذلك ان المغاربة يجعلون المدينة مقبولة من الخارج والبيوت مزينة في الداخل .. ثم استطرد يقول : وهناك استثناء وهو ذلك الفندق الكائن بفسحة الوسعة المقام ازاءه مقهى عمومي احدثه الجزائريون اللاجئون الى تطوان ويرتاده الشباب والشيوخ على السواء حيث يتناولون كؤوس الشاي والقهوة ويتبادلون الاحاديث .. وذكر انه كان يشاركهم في هذا المقهى وانه معجب بطعم القهوة التي يغلونها على النار في غلايات خاصة.

ووصف المدينة بانها كبيرة نوعا ما ومزدحمة وان سكانها يقدرون بـ 50 الف نسمة وان بها اسواقا حسنة وساحات واسعة وقيسارية تحتوي على اكثر من 300 دكان الا انها مخربة الآن ومنهوبة وهناك سقايات عمومية وافران وحمامات وفنادق للتجار وللدواب ...

بيوت تطوان :

ووصف بيوت تطوان بانها تذكر ببيوت الاندلس القديمة من حيث التخطيط والمرافق .. وان ترف البيت يتجلى في الابواب والنوافذ الداخلية وفي السقف المخدوم بنقش رائع على الخشب الملون .. وكذلك في الموزيك الذي يكسو الارض والحيطان .. وفيما يخص الاثاث ذكر ان آماله لم تخب عند زيارته لبعض البيوت .. (فالاثاث الذي رايته والزرابي والستائر والخزانات وادوات الاكل وكل ما شاهدته ودرسته كان اصيلا وفنيا رائعا ، له مميزات شرقية جد بارزة مليء بالكتابات والصور الرمزية والخطوط الهندسية .. ويطابق تماما الامتعة الموريسكية الموجودة في اسبانيا .. كل شيء لم يتغير ، الفن والصناعات والعوائد .. زيارة تطوان اليوم معناها رؤية قرطبة القرن الثالث عشر) .

دار الرزيني :

وكان قصر الحاج محمد الرزيني الشهير من اكبر البيوتات التي تعلق بها الاركون واستصدر اذنا خاصا من الجنرال الحاكم يسمح له بزيارته ، اذ كانت عليه حراسة عسكرية خوفا من امتداد يد النهب اليه بعد ان غادره صاحبه في جالة من غادروا تطوان والتجأ الى بستان له يقع غير بعيد من تطوان في الاجنة المعروفة هناك بمدشر كيتان .. ووصفه الاركون بأنه غني جدا وان اخاه (يقصد الحاج احمد الرزيني) اغنى منه .. يقولون عنه انه يزن الذهب بالقفاف وانه عند ما فر من تطوان البارحة (كذا) حمل امواله على تسعة بغال وعلى ثلاثة جمال وثمانية عبيد .. وان القصر نفسه يكشف عن هذا الثراء الفاحش ، وبما انه قصر فاخر فان صاحبه تركه كما هو لما شرع في بناء قصر آخر بجانبه يريده افخم منه واعظم .. فجاءت الحرب وتوقف البناء .. فالاقواس قائمة والاخشاب مجموعة واكوام الموزيك باحجامها والوانها وتصاميم الرياض الواسعة .. كل هذا ينبىء عما سيكون عليه القصر لو تم .. واما ما يتعلق بالدار القديمة فانها وحدها كافية لتعطينا فكرة عن حياة ذلك الاستقراطي الذي كان يسكنها .. الغرف واسعة والسقوف عالية جدا وهي من الخشب الملون المصنوع بدقة متناهية .. والحيطان كلها مكسوة بالفسيفساء الجميلة وكذلك الحنايا والاقواس المكونات للممرات ، فهي تخطف الابصار وتعجب برقتها وفخامتها ..

ثم تابع يقول : واول شيء يرغب فيه المرء عندما يدخل الى هذه الدار هو الجلوس والاتكاء عدة ساعات .. فهناك الهدوء والراحة وشيء آخر لا اجد له اسما .. هناك ظل الاشجار وخرير المياه وازهار البرتقال التي تعطر الجو والطيور التي تغرد وتزقزق بين الاقواس والاشجار ..

واسترسل يقول : لا املك وانا ما زلت في الصحن الاول من هذه الدار الا ان افكر في النساء .. ولم لا .. ! وهذه التحفة الفنية بنيت للحب .. والجو ما زال عبقا بطيب الحريم .. فصرت أتحسس

واتسمع الى ان سمعت من وراء ستار غناء امـــراة وبكاء طفل .. ولكن التعليمات تقضي بأن لا انتهـــك الحرم واقتحم الحجب .. والحارس وهو مغربـــي مسن واقف لي بالمرصاد .. ومن ورائه عسكـــري مسلح واقف بالباب لا يأذن الا لمن بيده ورقة ممهورة من الحاكم وعليها تعليمات صارمة .. الا انني بحيلة استطعت ان اغافل الحارس المغربي واتسلـــل الى غرفة انيقة وفيها فتاة سوداء تهز بيديها مهدا يرقد فيه صبي .. تأملتها فاذا هي فاتنة كأنها قطعة من الكهرمان الاسود .. ابتسمت وافترت عن ثغر نضيد من اللؤلؤ دون ان تبدي انزعاجا او نفورا .. وتأملت غرفتها فاذا كل ما بها آية من الآيات .. سرير ملوكي مغطى بأقمشة حمراء فاخرة وستائر مـــن الحريـــر ومتكآت عديدة ومخدات كثيرة وفى الوسط مبخرة ذهبية على صينية ومعها كؤوس بلورية وابريق لماع .. الى غير ذلك من الاواني والتحف النادرة .. ولم يسعني الا ان انسحب من الغرفة قبل ان ينكشـــف امري .. ثم اكتشفت ان هناك جناحا آخر فيه بقية نساء الرزيني اللائي لم يصحبهن معه .. وتابعـــت تطوافي على سائر الغرف والمرافق فاذا هي تحتوي على اثاث ثمين من مختلف الانواع .. وكذلك المخازن فانها ممتلئة باصناف المأكولات والمشروبات . (واطال القول فى ذلك كله اذ تتبع كل ما احتوت عليه الدار من النفائس والذخائر الدالة على ثراء الرزيني الرجـــل الدبلوماسي الذي كان فيما سبق قنصلا معتمـــدا للمغرب فى جبل طارق وكانت جل الصادرات والواردات تمر على يــــده ...) .

الجامـــــع الكبيــــــر :

وكان الجامع الكبير من معالم المدينة التـــي حرص صاحبنا على زيارتها .. فبادر هو ورفيق له الى زيارة الجامع قبل ان يمنع الحاكم زيارته على غير المسلمين كما هو المتبع عند المسلمين المغاربة من منع دخول غيرهم بيوت العبـــادة (والمعـــروف ان اودونيل كان تعهد للوفد الممثل لسكان تطوان باحترام امكنة العبادة ولكنه لم يوف بهذا التعهـــد ..) قال الاركون وجدنا حارسا عسكريا على باب الجامع الكبير وهو باب مهيب عليه نقوش وزخرفة باهتة .. دخلنا وطفنا جنبات المسجد فاذا هو خال الا من الحصر وبعض المنابر المهيئة للوعظ اشبه ما يكون بالكنائس البروتيستانية الخالية من التماثيل والتهاويـــل .. فجلسنا جانبا فى الصحن الواسع انا ورفيقـــي .. يرسم هو بريشته ما يراه واكتب انا بقلمي ما يبدو لي من افكار حين لم اجد شيئا يستحـــق الوصـــف ، وقلت ها هي اقدامنا واحذيتنا وطئت ارض هـــذا المسجد وسقفه يردد صدى وقع اقدامنا المنتعلـــة بنعال النصارى الثقيلة الوطأة .. اين ذلك النبي .. لماذا لا يهدم على رؤوسنا هذا البيت الذي دنسناه باحذيتنا وانتهكنا حرمته باقتحامه ..

وسجل فى الاخير ان المؤذن حضر ونظر اليهما بامعان وقصد المزولة وقـــاس ظلها بعينيـــه واشار اليهما بأن الساعة هي الثانية فصعد الى الصومعـــة واذن للصلاة : الله اكبـــر .. الله اكبـــر .. قال : فبادرنا بالخروج وتركنا المكان لقداسته وللمومنين الذين اخذوا يتواردون لاداء الصلاة .. وكنا نسلـــم عليهم : سلام ، فيردون علينا بمثله ..

والبقية تاتي بحول الله .

الرباط : رضا الله ابراهيم الالغي

المغـــــــــرب :



● صدر عن صندوق احياء التراث الاسلامي المشترك بين المملكة المغربيــة والامارات العربية المتحدة الجزء الخامس والاخير من كتاب « أزهار الرياض فى اخبار عياض » لابي العباس المقري . وقد حقق هذا الجزء الاستاذ الباحث سعيد اعراب والدكتور عبد السلام الهراس .

وكانت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية قد اعادت طبع الاجزاء الثلاثة الاولى من هذا الكتـــاب بالاوفسيت ، كما نشرت الجزء الرابع فى السنــــة الماضية بتحقيق الاستاذ محمد بن تاويت والاستاذ سعيــــد اعــــراب .

والكتاب من أمهات الكتب المغربية النفيسة ، وهو ترجمة مفصلة لعلامة المغرب ، وفقيه مدينــة سبتة السليبة القاضي عياض رحمه الله .

ويقع الجزء الخامس من هذا الكتاب فى 354 صفحة من القطع المتوسط ، وقد اعتمد المحققان مجموعة من النسخ الخطية اثنتان منها بالخزانة الملكية بالرباط وثالثة بالخزانة العامة بالرباط .

ويشتمل الكتاب على مجموعة فهارس للاعلام ، والقبائل والشعوب والطوائف ، والبلدان والامكنة ، والاشعار ، والكتب الواردة فى المتن ، ومصــــادر التحقيق ، وفهرس الموضوعات .

وقد استغرقت الفهارس 54 صفحة من الكتاب.

● تحت شعار الحديث الشريف (من لم يهتم بامر المسلمين فليس منهم) نظمت جمعية الثقافــة الاسلامية بتطوان مهرجانها الثقافي الثالــث عــن افغانستان المسلمة الذي استغرق ثلاثة أيام (16 ـ 17 ـ 18 ماي) . وقد اهتم المهرجان بابراز حقائق اساسية عن جغرافية افغانستان وتاريخها وجهادها ودور رجالاتها فى خدمة الثقافة الاسلامية .

● نظمت كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط ندوة عن الفكر العربي والثقافة اليونانية وذلك بمناسبة مرور الف سنة على ميلاد الفيلسوف الاسلامي الكبير الشيخ الرئيس ابن سينا وثلاثة وعشرين قرنا على وفاة أرسطو . وقد استمرت النـــدوة اربعة أيـــام (7 ـ 8 ـ 9 ـ 10 ماي) .

● حصل الاستاذ يوسف الكتاني المحامـــي على درجة دكتوراة الدولة فى العلوم الاسلاميـــة من دار الحديث الحسنية حول اطروحته « مدرسة الامــام البخاري فى المغرب » . وقد تراس لجنة المناقشة الاستاذ العلامة الرحالي الفاروق وضمت الدكتـــور الشيخ محمد الحبيب بلخوجة مفتي الديار التونسية والدكتور رشيد فكار . وقد استحق الباحث درجة حســـن .

● بمناسبة مرور الف عام على مولـــد العلامـــة الفيلسوف ، والطبيب العربي المسلم « ابن سينا » ينظم المكتب التنفيذي للجمعية المغربية للتضامـــن الاسلامي ، مسابقة علمية بين الاساتذة والباحثيـــن المغاربة لكتابة دراسة متكاملة عن حياة وآثار العالم الكبير ابن سينــا .

ويشترط للمشاركة فى هذه المسابقة ما ياتي :

1) أن يكون المتسابق من جنسية مغربية .

2) أن تكون له مشاركات علمية مشهود له بها من قبــل .

3) تتضمن الدراسة المقدمة لهذه المسابقة تفصيلات علمية عن حياة ابن سينا (اصله — نشأته شيوخه — مؤلفاته — آثاره العلمية — فضل معارفه على الانسانيــة) .

4) تكتب الدراسة باللغة العربية ويجب ان لا تقل صفحاتها على مائة ويستحسن طباعتها على الآلة الكاتبــة .

5) آخر موعد لتقبل المشاركات هو نهايــة شهر شوال 1400 — غشت 1980 .

6) ترسل المشاركات الى الجمعية المغربية للتضامن الاسلامي ، صندوق البريد 351 الرباط .

— الجوائــــز :

الجائزة الاولى : طباعة الدراسة الفائزة بالجائزة الاولى على نفقة الجمعية .

الجائزة الثانية : تذكرة سفر ذهابا وايابا لاداء فريضة الحج .

الجائزة الثالثة : مجموعة كتــب ومؤلفــات اسلامية قيمــة .

● انعقدت ابتداء من الثاني عشر من شهر مــاي الماضي فى مكتب تنسيق التعريب فى الوطن العربي بالرباط ولمدة خمسة ايام ندوة توحيد مصطلحات التعليم المهني والتقني عكف خلالها خبراء عدد مــن الاقطار العربية على دراسة المصطلحات التي أعدها مكتــب تنسيق التعريب فى التجارة والميكانيكا والصناعــة المعمارية والتجارة والمحاسبة والكهرباء والطباعة .

وقد شارك فى هذه الندوة باحثون من المملكة الاردنية الهاشمية والجمهورية العربية الســوريــة ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، والمملكة المغربية .

ونظرا لما لهذه المواد من اهمية فى عالمنا اليوم وللحاجة الماسة والملحة لها فى التعليم فقد تقرر ان تعرض هذه المصطلحات على شكل معاجم متخصصة « ثلاثية اللغة » (عربي — انجليزي — فرنسي) على مؤتمر التعريب الرابع لدراستها واقرارها وتعميــم استعمالها فى جميع الاقطار العربية .

● نوقشت مؤخرا بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط رسالة لنيــل دبلوم الدراسات العليــا فى اللغة الفرنسية وآدابها فى موضــوع : « الدراسات اللغوية العربية المعاصرة : محاولة نقدية » تقدم بها السيد بوجمعة الاخضر . وكانت لجنــة المناقشة تتكون من الاستاذ جان مولينو رئيسا ، والاستــاذ احمد المتوكل مقررا والاستاذ ميشيل دولابر عضوا .

● صدر للدكتور محمد عابد الجابري كتاب جديد بعنوان « نحن والتراث : قراءات معاصرة فى تراثنا الفلسفي » . وذلك عن دار الطليعة ببيروت ، ويتضمن الكتاب الموضوعات التالية : مشروع قراءة جديدة لفلسفة الفارابي السياسية والدينية ، ابن سينــا ، المدرسة الفلسفية فى المغرب والاندلس ، مشروع قراءة جديدة لفلســفة ابن رشــد ، ابستيمولوجيــا المعقول واللامعقول فى مقدمة ابن خلدون ، ما تبقى من الخلدونية ، مشروع قراءة نقديــة لفكر ابــن خلـــدون .

● اصدر الناقد نجيب العوفي كتابه الاول بعنوان « درجة الوعي فى الكتابة » .

● « البدايــات » مجموعــة قصص قصيــرة أصدرها الكاتب ادريس الخوري .



● «دراسات تحليلية نقدية لرواية دفنــا الماضي » احدث كتاب صدر للاستــاذ عبــد الكريم غلاب يتضمــن دراسات لعدد من كتاب المغرب والمشرق لروايته الشهيرة نشــرت فى صحف ومجلات مختلفة.

وقد اشتمل الكتاب على ثلاث عشرة دراسة باقلام : عبد الله كنون ، عبد المجيد بن جلون ، د. عبد الهادي التازي ، عبد الجبار السحيمي ، د. محمد برادة ، محمد العربي المساري ، جورج انطونيوس ، محمد فريد الرباحي ، احمد اليابوري ، د. صالح جواد الطعمة ، عبد الرزاق البصير ، احمد محمد عطية ، عبد الله بن محمد .

وقد اهتم النقاد بهذه الرواية اهتماما كبيرا لما تحمله من تحليل لاهم فترة في تاريخ المغرب الحديث، ولما يمثله ابطالها من نضال ايجابي في سبيل الحياة الافضل في ظل الاستقلال والحرية ، ولانها رواية تمثل انبعاثا لرواسب عديدة من فترة المخاض ، وهي فترة عاشها شعب المغرب بكل وعيه وتفتحه على العالم الجديد .

تونس :

● ما زال الدكتور الحبيب الجنحاني المؤرخ والاستاذ في كلية الآداب في جامعة تونس يواصل محاولاته الرامية لاعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي ...

وقد اصدر عدة كتب في هذا المجال آخرها كتاب صدر له اخيرا عن دار الطليعة في بيروت تحت عنوان « دراسات مغربية » ...

وقد احتوى هذا الكتاب على اربعة اقسام اساسية هي :

— سياسة الخلافة الاموية تجاه المغرب ولا سيما في الميدان المالي .

— حركات الخوارج في المغرب وفي منطقة الخليج خلال العصر الاسلامي الاول : الجوانب الاقتصادية والاجتماعية .

— السياسة المالية للدولة الفاطمية في المغرب .

— الخلفية الاقتصادية للصراع الفاطمي — الاموي في المغرب (القرن الرابع الهجري) .

— كتاب طبقات المشائخ لابي العباس احمد بن سعيد الدرجيني مصدر للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي المغربي ...

وقد جاء في المقدمة التي كتبها المؤلف نفسه ان هذا الكتاب يقدم للقارىء العربي مجموعة من الدراسات المغربية تدور حول محور واحد هو التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي الوسيطي كما انه يضع امام المهتمين بالتاريخ عامة وبالتاريخ الاسلامي المغربي خاصة بعض النتائج المتواضعة حول موضوعات تناولتها اكثر الدراسات الحديثة من وجهة نظر كلاسيكية اثبتت الابحاث الجديدة بعدها عن الحقيقة التاريخية الموضوعية مثل قضية الاسباب الاساسية الكامنة وراء الصراع الفاطمي .

وقد حاول المؤلف في دراسته هذه عن المغرب ان ينطلق من رؤية شمولية للتاريخ الاسلامي تعتمد اساسيا قراءة جديدة لمصادر التاريخ العربي الاسلامي .

ومن الملاحظ ان مؤلف هذا الكتاب الجديد نشر في تونس عام 1978 كتاب « المغرب الاسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية » عن الدار التونسية للنشر ، وكان له صداه في المشرق والمغرب العربي .

مصر :

قام معهد المخطوطات العربية بالقاهرة بطبع (فهرس المخطوطات العربية) . ويتضمن وصفا تفصيليا لنحو اربعمائة مخطوطة تبدأ عناوينها من حرف (الالف) الى حرف (الخاء) كجزء أول من هذا العمل الضخم ، وهو خاص بالادب .

● تأسس في القاهرة (المجلس الاسلامي الاعلى) الذي يمثل الازهر والاوقاف والجمعيات الاسلامية والطرق الصوفية ووزارات الاعلام والشباب والتعليم والثقافة .

● « الملحمة المحمدية » مسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم صاغها شعرا فى 2000 بيت الشاعر الكبير كامل أمين .

● « اعجاز النظام القرآني » كتاب جديد للواء احمد عبد الوهاب صدر عن مكتبة غريب .

● « الشيوعية والاديان » لمؤلفه الدكتور طارق حجي صدر عن مطبوعات الاتحاد الدولي للبنوك الاسلامية . وكان المؤلف قد صدر له كتاب بمدينة فاس بعنوان « الماركسية فى الميزان » منذ ثلاث سنوات .

● « حصاد الالوان » احدث كتاب صدر للدكتور نعيم عطية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

● « صحيفة تحت الطبع » صدرت منه الطبعة الجديدة للمؤلف سمير صبحي ويتحدث عن فن الاخراج الصحفي .

● تأسست فى القاهرة « جماعة ابو للو الجديدة » برئاسة الدكتور مختار وكيل . وكانت هذه الجماعة الشعرية قد أسسها الدكتور الشاعر احمد زكي ابو شادي عام 1932 . وقد تخرج من هذه الجماعة عدد كبير من الشعراء العرب المعاصرين .

● « التكنولوجيا والثقافة » ترجمة للمهندس محمد عبد المجيد نصار . وهي من تأليف العالم والمؤرخ العلمي (ملفين كرانزبرج ، ووليام هـ. دافنبورت أستاذ الادب بكاليفورنيا .

● « الثقافة والسياسة فى الصين » كتاب جديد اصدره محمد نعمان جلال .

● « عدة المجاهدين » للكاتب الاسلامي عطية عبد الرحيم عطية . يتناول الكتاب فى عرض سهل غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وجهاده مع صحبه لاعلاء كلمة الله وكيف انه ما ترك قوم الجهاد الا ذلوا . كما يتناول الكتاب عرضا لآيات الجهاد فى القرءان الكريم .

● « ثقافة الفقر » صدر فى الاسكندرية للدكتور محمد حسن الغامري أستاذ العلوم السلوكية بالمعهد القومي للتنمية الادارية .

● صدر للكاتب فتحي رضوان كتاب بعنوان « الخليج العاشق » وهو سيرة ذاتية للمؤلف . ويريد الكاتب بالخليج احد احياء مدينة القاهرة .

● صدرت للكاتب الصحفي احمد عادل رئيس تحرير جريدة « المساء » مجموعة قصص بعنوان : « رجل فى فقاعة » .

● « حكم تداول المخدرات فى التشريع الاسلامي» كتاب جديد لعادل رسلان . وقد حصل عنه المؤلف على درجة الماجستير فى الدراسات الاسلامية من معهد الدراسات الاسلامية بالقاهرة .

● « محمد نبي الاسلام » و « تربية الطفل » كتابان جديدان للكاتب الاذاعي فاروق أبو العلا حسنين .

● « الاسطورة والفن الشعبي » كتاب جديد للدكتور عبد الحميد يونس ، يتحدث فيه عن الفلكلور والميثولوجيا والاسطورة والرمز الفني والملحمة الشعبية .

● صدر للشاعر الدكتور تاج الدين نوفل ديوان جديد بعنوان « لؤلؤ ومرجان » ، الديوان مكتوب بخط يد المؤلف . وجاء فى الاهداء : « الى أمي ، ثم أمي ثم أمي . ثم أبي » .

لبنان :

● صدر مؤخرا عن مؤسسة الرسالة فى بيروت كتاب « رسائل خليل مردم بك » رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق سابقا . أعده وقدم له نجله الشاعر عدنان مردم بك ، ويضم نماذج من خطوط

الادبـاء العـرب مثل : مي زيـادة ، واسعـاف النشاشبي ، وشكيب ارسلان ، وغيرهم .

● تعززت الصحافة الاسلامية فى لبنان بصدور مجلة اسلامية جديـدة بعنـوان : « الوحدة » . وهـي فكرية مستقلة تصدر عن دار طريق الوحدة ، ويتولى رئاسة تحريرها عبد الحسن الامين .

ومن خلال موضوعات الاعداد الثلاثة الاولى التي وصلت الى المغرب مؤخرا يتضح الخـط الفكـري الاسلامي الذي تلتزم به المجلة .

ونقرا فى العدد الثالث الدراسات التالية :

— العوامل الحاضرة لتمزق المسلمين .
— المعادلة الحضارية فى الاسلام .
— الماركسية فى ضوء الاقتصاد الاسلامي .
— نحو وعي مطابق لتطور البلدان الاسلامية .
— مناهج التفسير القرآني .
— موقف « توينبي » من الاسلام والغرب .
— لقاء مع عجاج نويهض مترجم كتاب « حاضـر العالم الاسلامي » .

● مركز الانماء القومي ببيـروت أصدر مجلـة « الفكر العربـي المعاصـر » . للعلوم الانسانيـة والحضارية . رئيس تحريرها مطاع صفـدي . وكان المركز يصدر مجلة سابقة تحمل عنـوان « الفكـر العربي » . من موضوعات العدد الاول (ماي 1980) (السلفية والحداثة) من خلال دراسة نقدية للكتاب تجديد الفكر العربي للدكتور زكي نجيب محمـود . سوسيولوجيا الثقافة ، المنهج البنيوي التكويني فى دراسة الادب ، بين ازمة المثقفين العـرب وأزمـة المجتمع ، النقد النفسي وسوسيولوجيا الادب .

الاردن :

● اصدرت مكتبة الجامعـة الاردنيـة كتـاب البيبلوغرافيا الاردنية . ويشتمل على قائمة بالكتب والرسائل الجامعية التي كتبـت عن الاردن باللغـة العربية واللغات الانجليزية والفرنسيـة والالمانيـة والتقارير الرسمية الحكومية والدوريات الاردنية . ويتضمن الكتـاب الذي رتبـت محتوياتـه حسب الموضوعات معلومات عن 833 كتابا باللغة العربيـة و 100 دورية عربية وميكروفيلمين عربييـن و 313 كتابا باللغات الاجنبية و 3 دوريات باللغة الانجليزية .

● صدر عن (دار البيرق للصحافـة والنشـر والتوزيع والدعاية والاعـلان) فى عمـان كتـاب « نظرات فى الواقع الثقافي الاردني » لمؤلفه الدكتور ابراهيم خليل العجلوني .

● اصـدرت وزارة الاوقـاف والمقـدسـات الاسلامية دليلا عن بلدة « مؤتة » . ويشتمل الدليل على مقدمة تاريخية عن الاردن فى العصر الاسلامي ، ومعلومات عن بلدة (مؤتة) من حيث أهميتها وموقعها وتاريخها ، وبشكل خاص معركة (مؤتة) الشهيرة فى التاريخ الاسلامي . ويحتوي الدليـل على اسمـاء الشهداء الذين استشهدوا فى المعركة ونبذة عـن سيرة القادة الثلاثة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة .

● صدر فى عمان كتاب (الشيعـة : نشأتهـا وتطورها حتى أواسط القرن الثالـث الهجـري) للدكتور محمد العقيلـي .

الهنـــد :

● صدر فى الهند كتاب جديد للاستاذ المرحـوم محمد الحسني رئيس التحرير السابق لمجلة البعث

الاسلامي بعنوان : « تناقض تحار فيه العيون وتطابق يسر به المؤمنون » . مع مقدمة للعلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي .

● وضع حجر الاساس لمجمع الجامعة العربية في (شاه اباد) والتي ستكون امتدادا للجامعة العربية السلفية القديمة بمقاطعة (أوتار ابراديش) الهندية.

● احتفل بالعيد المئوي لدار العلوم (الجامعة الاسلامية الكبرى) فى ديوبند على مسافة 125 كلم من نيودلهي .

امريكا :

● صدر حديثا فى نيويورك كتاب جديد بعنوان : « مستقبل الثقافة فى ظل طبقة المثقفين الجدد » . يناقش المؤلف (الفين — و — جولدنر) مفهوم الثقافة فى العالم المعاصر ، ويحلل نوعية المثقف الجديد ، ويقول انه لم يعد ينتمي لطبقة او ايديولوجية او مجتمع معين ، بل الى شكل ثقافي جديد هو نتاج الاعتماد الهائل على وسائل الاعلام الحديثة . ويؤكد جولدنر فى كتابه ضرورة تغير النظرة التقليدية للثقافة وان تكف عن الهجوم على شكلها الجديد حيث ان الثقافة فى خلال هذا القرن قد ازدهرت بصورة لم يسبق لها مثيل وانه قد ظهر عدد من الفنانين والمفكرين اثروا التراث البشري .

● اصدرت جامعة انديانا الامريكية كتابا جديدا بعنوان : (قراءات فى علم اللغة العربية) اشترك فيه نخبة من أساتذة اللغويات فى الجامعة .

يتناول الكتاب قضايا اللغة العربية وتطور علم اللغة منذ بداية نشأته على يد الخليل بن أحمد حتي يومنا هذا .

سوريا :



● صدرت فى دمشق مجلة ثقافية جديدة تحمل عنوان : « دراسات تاريخية ». وهي مجلة علمية فصلية تعني بالدراسات حول تاريخ العرب ، تصدرها (لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق).

العدد الاول من هذه المجلة الصادر فى مارس المنصرم يتضمن الابحاث التالية :

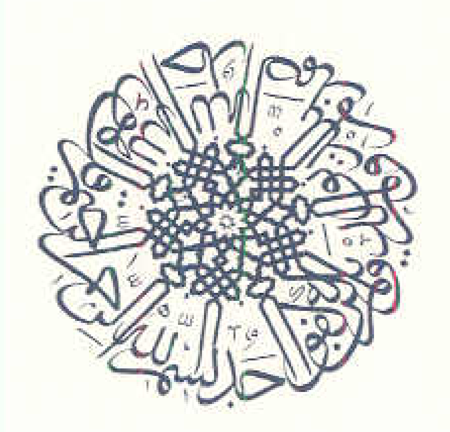
— كتابة تاريخ العرب ! لماذا ؟
— انتشار الاسلام فى الخليج فى زمن الرسول الكريم .
— اصول تباين مواقف الدول الاوروبية حيال المسألة السورية (اللبنانية) .
— مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية فى بلاد الشام .
— الحركة العربية خلال الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها .
— العرب فى شرق افريقية (جزر القمر) .
— ملوك اوغاريت من خلال الوثائق .

اسبانيا :

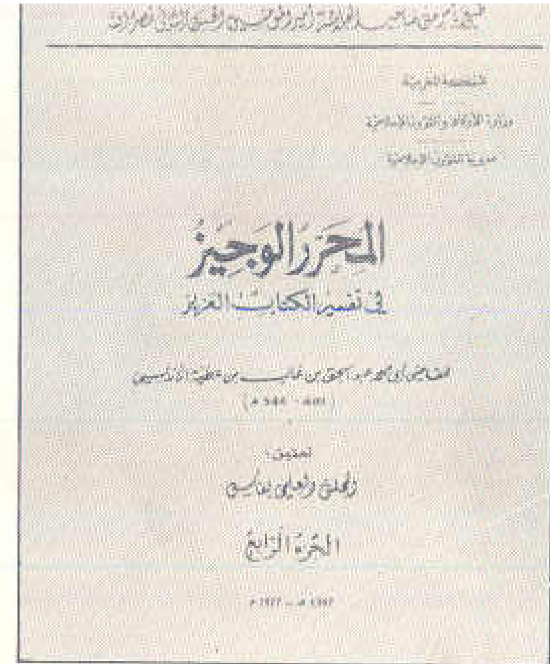
● تضمن العدد الثاني من مجلة « اوراق » التي يصدرها المعهد الاسباني العربي للثقافة بمدريد باللغة العربية موضوعات اسلامية واندلسية هامة ، منها موضوع قيم للدكتور احمد العلي عن « الحركة الفكرية واتجاهاتها فى صدر الاسلام » ، ودراسة تاريخية للدكتور احمد مختار العبادي عن « حركة الزط فى العصر العباسي الاول » ، وبحث للدكتور معن خليل عمر عن التحليل السببي للظاهرة عند ابن رشد . ونشرت المجلة مختصر ببليوغرافية الادب الفلسطيني .

فهرس العدد 3 السنة 21

صفحة



مطبعة فضالة — المحمدية (المغرب)

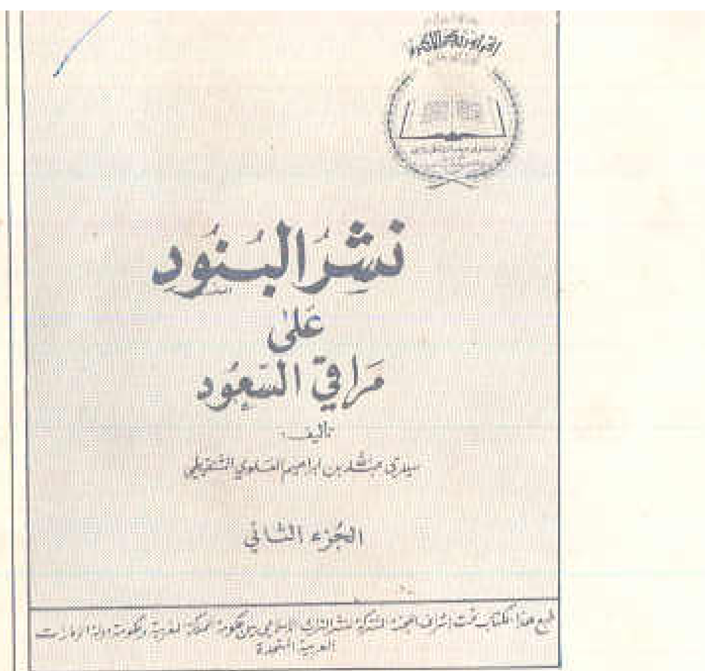


المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
مديرية الشؤون الإسلامية

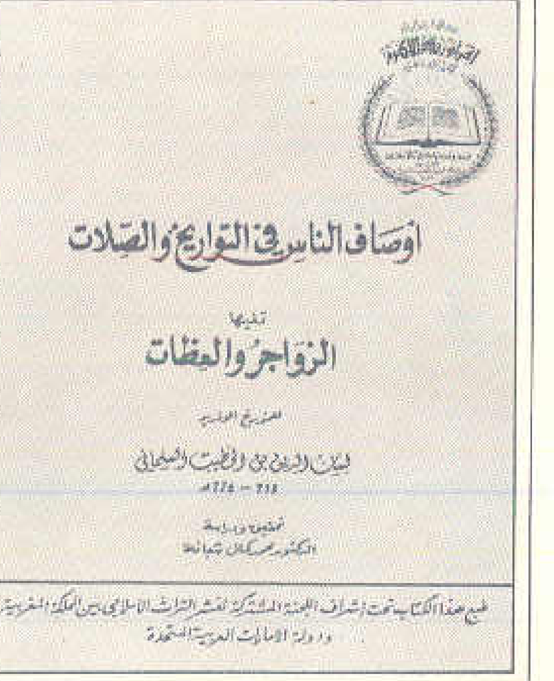
منوعات
ابن الخطيب

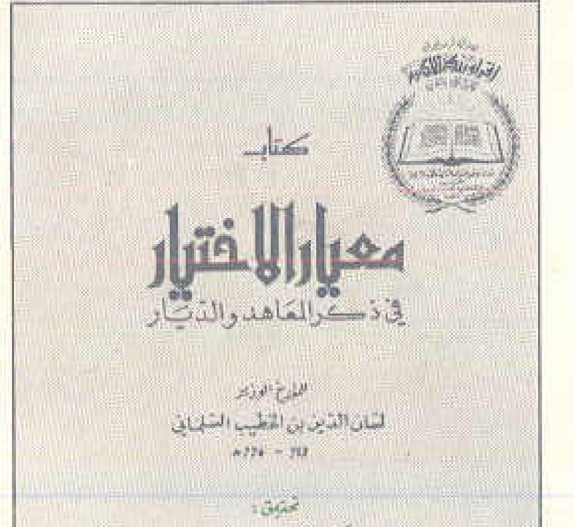
تحقيق

1396 - 1976









الموسوعة المغربية
للأعلام البشرية والحضارية
معلمة المدن والقبائل

(ملحق 2)

عبد العزيز بنعبد الله

1397 — 1977